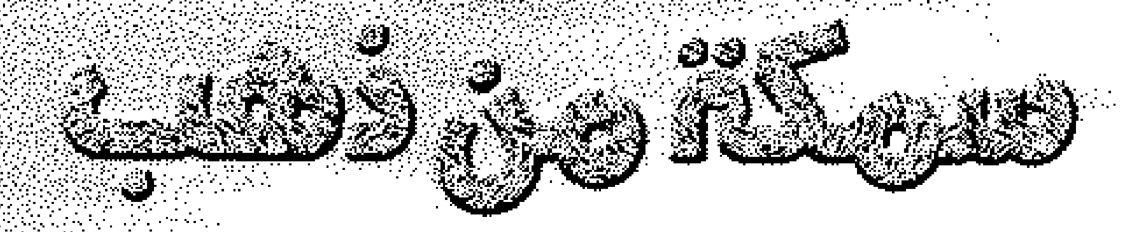


جان ماري جوستاف لكلزيو



ترجمة / خلف عبد العزيز

دار الهدى للنشر والتوزيع

سمكة من ذهب

Poisson d'or
J.-M. G. Leclézio
Gallimard 1997

الكتاب: سمكة من ذهب

المؤلف: جان ماري جوستاف لكلزيو

ترجمة: خلف عبيد العزيز

الناشر: دار الهدى للنشر والتوزيع

رقم الإيداع : ٩٩/١١٥٧٠
الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-5822 - 35 -1



المنيا ـ شاهين ـ 6 ش أحمد عرابي
المنيا ـ عدنان المالكي ـ 6 ش 15 ـ شقة 1
ت 086/354576 ـ 012/3454568
فاكس 086/346713

سمكة من ذهب

تأليف

جان ماري جوستاف لكلزيو

ترجمة

خلف عبد العزيز

تصدير

لكليزيو وظاهرة التعدد اللغوي والحضاري

كان الروائي الفرنسي الشهير جي دي موباسان *Guy de Maupassant* كثيرا ما يشكو إلى معلمه الروائي العظيم جوستاف فلوبير *Gustave Flaubert* وإلى محيطيه من المبدعين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ضيق الأفق الروائي وتبعيته النصية والموضوعية، وإمكانية محاكاته عبر الأساليب الروائية المختلفة. وربما سكن خلف هذا الاعتقاد الموباساني جدل فرنسي حول حماية النص من براثن التقليد والمسخ والمحاكاة، والذى صار بمثابة قضية عنيت بها موائد جمهور النقاد والمبدعين في فرنسا على مدار القرن التاسع عشر، والذى يعد بحق من أخصب العصور الثقافية الفرنسية نظرا لتوافد وتعاقب شموس الحركات الأدبية والفكرية على الفضاء الأدبي الفرنسي، ونظرا للصلات التي أدارت نوعا من الحوار

الايدولوجي بين الحضارة والفكر الفرنسيين والحضارات الأوربية المجاورة لفرنسا، مثل إنجلترا التي اوى إليها الكاتب الفرنسي فولتير في القرن الثامن عشر، والذى نقل عنها إلى الفرنسيين عظمة كتابها والحريات العامة بها ومناهج الفكر فيها، وبين الحضارتين الفرنسية والألمانية من جانب آخر على أيدى أعلام التواصل والتقارب بين الحضارتين أمثال مدام دى ستيل ***de Staël Madame***،وأيضا بين الحضارة الفرنسية والحضارات الأوربية المتاخمة لفرنسا من جانب آخر كإيطاليا التى ظلت ومازالت تتبوأ مقعدا رائعا بين روافد الثقافة الفرنسية في العصور الحديثة، وأسبانيا التي اتيح لها اقتطاف ثمرات حضارتين متباعدتين، هما الحضارة العربية في العصور الوسطى والحضارة الغربية التي أسهمت فيها بحصتها عن طريق مخلفات وحصاد حضارة عربية بادت وتقهقرت إلى خلف البحر المتوسط بعدما تجاوزته وبسطت سلطانها الفكرى بفضل مفكريها وعلمائها في هذه البلدان. وما من شك أن هذا التلاقى بين هذه الحضارات جميعا تم إنجازه عبر الرحالة. ولقد عملت هذه الطقوس الترحالية على تأسيس مشروع ترحال للأفكار والموضوعات الأدبية بين هذه الحضارات منذ قرون عديدة. وظل هذا التواصل الحضارى يؤتى ثماره حتى نضج وتأصل في القرن التاسع عشر.

لقد خلق هذا التقارب الحضارى - الذى يظل قضية يعنى بها الأدب المقارن منفردا - أصواتا عديدة في النص الأدبى عامة والنص الروائى بصفة خاصة. فتمتعت موضوعات إنسانية بشيوع عالمي وغدا تصور الأدب

الألماني – على سبيل المثال – لمشكلات الحوز والوطنية والإنسانية يناهز ولايتباعد عن مثيله في الآداب الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والأسبانية كثيراً.

وبالرغم من هذا الترحال الفكري بين هذه الآداب جميعا وعظمة الصلات الفكرية بينها، إلا أن النص الروائي، باعتباره علامة لغوية من الطراز الأول، ظل سجين قفص الحضارة الواحدة، يعاني ندرة تنصيته وفضائه الحضاري الوحدوي الذي لا يتيح له التجول في فضاء لغوي آخر، ينتزع مفرداته وخصائصه اللغوية المحددة له.

لقد حاول بعض الأدباء العظام في العصور الحديثة خلق ما يمكن أن نطلق عليه "التعددية اللغوية" في النص، وتعميق صوت النص، وتعدد مكوناته اللغوية وتوجهاته الفكرية، وهي الدعوة التي استهلها بعض المبدعين الأوربيين مثل الروائي والفيلسوف الفرنسي فولتير في نزعته العالمية بقصته، الساذج *Candide*، وتشارلز ديكنز في رائعته الروائية، قصة مدينتين *A tale of two cities*. بيد أن هذا المشروع التأسيسي وُئدَ من جراء التطرف الحضاري الذي أدت إليه "الشعوبية القومية" ونمو الشعور المرضي بالعنصرية الثقافية في الأقطار الأوربية التي مازالت – مع التلاحم الاقتصادي الحديث – تخضع لصوت الأقليات الفكرية بها والتي تعد التعددية اللغوية مشروعا تدميريا لا حضاريا.

حتى أن التناص *Intertextualité* باعتباره مشروعا لغويا

يستهوى الكثيرين من اللغويين في العديد من التوجهات اللغوية العالمية، ونهجا التقى فيه اللغويون والمنظرون للأدب، لم يكشف لنا – رغم عمره الذى تجاوز الثلاثة عقود – عن عمق تعدد لغوى بالنصوص الأدبية، فلقد سعى فلاسفة ولغويون كثيرون مثل ميشيل ريفتار ***Michel Rifffaterre*** وبيير ريكاردو ***Pierre Ricardou*** ومارك انجنو ***Marc Angenot*** وبيير لورت ***Pierre Laurette*** ومن قبلهما جوليا كريستفا ***Julia Kristeva*** إلى تحطيم الفرض القائل بفردية النص وتبعيته المطلقة لمؤلفه وذلك عن طريق التصور بأن لكل نص، نص قبلي أو نص إرجاعي ***Intertexte***، يدور فى فلكه النص. ولكن هذا التوجه اللغوى الذى التف حوله حشد من نقاد الأدب وجمع غفير من اللغويين فى أوربا وأمريكا، وعلى الرغم من دقة أدواته البحثية والنتائج الهائلة التى توصل إليها، ولاسيما فى تشريحه للأدب بصفة عامة وحقلى المسرح والرواية بصفة خاصة، فإنه قد توقف عند العثور على الحوار اللغوى والمعنوى بين نصين متباعدين عبر الزمان والمكان.

اليوم، لقد أصبح الحديث عن "الاستنباطية ***déductisme***" فى الإبداع أمرا باليا إلى حد ما، فإذا كان فيكتور هوجو ***Victor Hugo*** قد صور الشرق وطبيعته فى ديوانه الشهير الشرقيات ***Les Orientales*** دون أن يراه، فإن ذلك التصوير لم يخرج خارج نطاق قفصه اللغوى الفرنسى وأصبح صوت النص، رغم اختلاف فضائه، منفردا، يتوافق ومعايير موجودة قبلا.

ومن بين الأعمال الأدبية التى تمثل ظاهرة التعددية اللغوية أو

تعدد الأصوات اللغوية، رواية سمكة من ذهب *Poisson d'or* للروائي جان ماري جوستاف لكليزيو *J. M. G. Leclézio* الذى ولد عام *1940*، ولعلها من أفضل الأعمال الأدبية تمثيلا لهذه الظاهرة التى لم تلق حتى اليوم حصتها من الخطاب الأدبى؛ فالرواية – شأنها في ذلك شأن معظم أعمال لكلزيو – تعد رحلة قصيرة في الحضارات الإنسانية، فى طقوسها وموروثاتها القومية المتباينة، إذ تتخذ شكلا دائريا من حيث أحداثها، اعتبارا من البادئة التى تمتطى الرواية ومرورا بالحى اليهودى بالمملكة المغربية مضيا بباريس ومدينة نيس الفرنسية ثم بعض الولايات الأمريكية ونهاية بمسقط رأس البطلة، عشيرة الهلال، نلحظ الصوت التعددى للبطلة "ليلى" التى تنشطر رويدا رويدا فتحمل أصواتا متعددة، فهي التى تحدثنا عن العرب المسلمين في حى الملاح اليهودى بالمملكة المغربية، ثم تمضى بنا إلى فرنسا حيث تصف الحياة الباريسية وصفا تفصيليا رائعا، إلى حد أن المطابقة بين الوصف ومدينة باريس لايقود إلى إظهار فارقا يذكر على الرغم من أن الأحداث تقع فى الستينيات من هذا القرن، ثم تمضى ليلى أبعد من ذلك وترسم حياة الساحل الفرنسية بمدينة نيس، ثم تعبر المحيط إلى العالم الآخر، حيث تمتزج في هذا العالم وتتفاعل معه؛ وما إن نجدها كذلك حتى تنتقل بنا إلى مدينة نيس ثم تعود إلى المكان التى بدأت رحلتها منه. وهى فى كل هذه المسيرة الروائية، لاتبدو غريبة، دخيلة على الفضاء الذى تحتله، بل نراها صوتا معبرا ينقل إلينا معطيات حضارة أخرى بأدق مفرداتها.

إن ليلى، العربية، الفرنسية، الأمريكية، ليست سوى إحدى أدوات لكليزيو الروائية التي يمسك بها ويوكل لها أن تؤدى دورا واحدا هو ماذكره في رواية أخرى له حيث قال بأن العالم ليس سوى "محيط حى"[1] بالنسبه له. وهي تتخذ مسلكا كغيرها من شخصيات لكليزيو، فهي السجينة التي تمتد إليها شباك وشراك الآخرين كي يلحقون بجسدها وروحها العذاب، فلا تذعن، بل تمضي تسخر أدواتها الطفولية في الخروج من قفصها، وتتقدم شيئا فشيئا حتى تنال حريتها.

ولعل الباعث إلى إقدامنا على تعريب هذا النص الأدبي هو حداثته واهتمامه بحضارتنا وبعض معطياتها الجوهرية، وكذلك تقديم هذا الروائي - الذي لم ينل حظه من الخطاب النقدى العربى رغم اهتمامه بحضارتنا العربية - إلى قراء العربية. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الأوساط الأدبية الفرنسية تضع لكلزيو في مرتبة عالية بين صفوف الأدباء الفرنسيين في القرن العشرين، فكتاباته تتميز بسمة أفقها الروائي، وخروجها من القفص الفرنسي المعهود بمعطياته العاداتية والتطلعية الفرنسية لتتخذ من الحضارات الأخرى منطلقا لها، فلقد تناولت رواياته أمريكا الشمالية والبلاد المتاخمة لفرنسا والهند وبعض الحضارات الشرقية الأخرى، فنظمت حوله المؤتمرات الأدبية، وتناولته الصحف والمجلات الأدبية، وعنى به الدارسون

---

(1) انظر

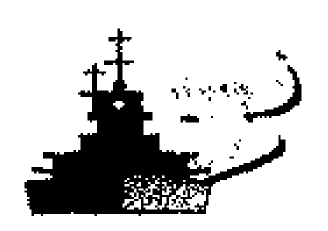
J.-M. G. Le Clézio, Terra Amata, Gallimard, 1967.

في شتى الجامعات الفرنسية.

ومن أهم أعمال لكلزيو "المحضر الرسمي" *Le procès-verbal* 1963 و"الحمي" *la fièvre* 1965، و"الطوفان" *Le déluge* 1966، و"الأرض المحبوبة" *Terra Amata* 1967، و"الحرب" *la guerre* 1970، و"العمالقة" *les géants* 1973، و"رحلات في الجانب الآخر" *Voyages de l'autre côté* 1975، و"ثلاث مدن مقدسة" *Trois villes saintes* 1980، و"الباحث عن الذهب" *le chercheur d'or* 1985، و"نجمة ضالة" *étoile errante* 1992، و"بواانا" *Pawana* 1992، وأخيرا الرواية التي نعربها هنا "سمكة من ذهب" *Poisson d'or*.

وفي النهاية لا نأمل إلا أن يكون هذا العمل منطلقا لحوار نقدى عام يحمل مسيرته الخطاب النقدى العربي.

المترجم



المسلاح

عندما كنت في السادسة أو السابعة من عمري اختطفت. لا أتذكر ذلك بحق، لأنني كنت صغيرة جدا آنذاك، وما عشته بعد ذلك محا فى هذه الذكرى. إنه على الأرجح حلم أو كابوس قديم مرعب يعاودني في بعض الليالي ويؤرقني حتى في نهاري؛ فيه أتذكر هذا الشارع المبيض من الشمس، المترب والخالي، وهذه السماء الزرقاء، والصرخة المدوية لعصفور أسود، وفجأة يد رجل تلقيني في قاع حقيبة كبيرة ثم أكاد أختنق. إنها لالا[1] التي ابتاعتني.

---

(1) اسم إحدى شخصيات الرواية. (المترجم)

ولهذا لا أعرف اسمي الحقيقي الذى وهبتني أمي إياه عند ولادتي، ولا أتذكر اسم أبي، ولا المكان الذى ولدت فيه، وكل ما أعلمه من أمري، وهو ما قالته لى لالا أسماء، أنني أتيتها ذات ليل ولهذا لقبتني بليلي؛ فلقد جئت من الجنوب، من مكان بعيد جداً، ربما من مكان لم يعد له وجود الآن. وبالنسبة لى، ليس هناك من شئ قبل هذا الشارع المترب والعصفور الأسود والحقيبة.

ثم فقدت بعد ذلك السمع بإحدى أذني؛ وحدث ذلك حينما كنت ألعب فى الشارع أمام باب الدار، حينها صدمتني شاحنة صغيرة، فهشمت عظمة فى أذني اليسرى.

كان الخوف من الظلام ومن الليل ينتابني؛ أتذكر أنني كنت أستيقظ أحيانا من نومي وأشعر بالخوف يدخلني كدخول ثعبان بارد إلى جسدى، ولم أكن أجسر على التنفس، ولهذا كنت أتدحرج فى فراش سيدتي وألتصق بظهرها الممتلئ حتى لا أرى شيئا ولا أشعر بشيء. إنني على يقين أن لالا أسماء كانت تستيقظ من نومها أثناء ذلك، لكنها لم تكن تدفعني عنها، ولو لمرة واحدة، ولهذا كانت بالنسبة لى بمثابة جدتي.

انتابني خوف من الشارع لفترة طويلة؛ فلم أكن أجسر على الخروج من فناء الدار، ولم أرد تجاوز الباب الضخم الأزرق الذى يطل على الشارع. وعندما كان يحاول أحد ما أن يقتادني إلى الخارج، كنت أصرخ وأبكي متشبثة

بالجدران، أو أفر مختبئة في إحدى قطع الأثاث. وكان الصداع المرعب يستحوزني، وضوء السماء يؤذيني ويخترقني حتى أعماق جسدي.

وحتى الضوضاء المنبعثة من خارج الدار كانت تشمل في الرعب: ضوضاء الخطوات في الزقاق عبر الملاح[2]، أو صوت رجل يتحدث بصوت عال من الجانب الآخر من حائط الدار. ومع ذلك كنت أحب بولع تغريد العصافير وقت الفجر، وصرير السمان في الربيع، وهو يقف على حافة الأسقف؛ ولم تكن هناك غربان في هذه المنطقة من المدينة، بل كان حمام ويمام فحسب، وأحيانا بعض طيور اللقلق العابرة في فصل الربيع، والتي كانت تجثم في أعلى حائط دار وتفرقع منقارها.

وعلى مدار أعوام، لم أعرف سوى فناء الدار الصغير وصوت لالا أسماء التي كانت تصيح باسمي "ليلى"، وكما قلت من ذي قبل، لا أعرف اسمي الحقيقي، فاعتدت الاسم الذي منحتني إياه سيدتي، كما لو كان هو الاسم الذي اختارته لي أمي؛ ومع ذلك فإنني أؤمن أنه ذات يوم، سيناديني شخص ما باسمي الحقيقي، وسوف أرتعش له وأعرفه.

اسمها الحقيقي ليس لالا أسماء، كانت تدعى عظمة، وكانت يهودية أسبانية. وحينما اندلعت الحرب بين العرب واليهود في الطرف الآخر من العالم، ظلت الوحيدة التي لم تترك الملاح، وتترست خلف الباب

---

(2) الملاح هو حي يهودي في المغرب.(المترجم)

الضخم الأزرق، ثم أقلعت عن الخروج؛ واعتبارا مـن هذه الليلة التـي أتيـت فيها، تبدل كل شئ في حياتها.

كنت أناديها "سـيدتي" أو "جدتـي"، وكـانت تؤثـر أن ألقبـها "سيدتي"، لأنها هي التـي علمتنـي القـراءة والكتابـة بالفرنسية والأسبانية والحساب والرياضة، وهي التي علمتني مبادئ الدين، دينـها هـي، حيـث لا يوجد اسم لله، وديني حيث يسمي الله. كانت تقرأ علـي مقتطفـات مـن الكتـب المقدسة، وكانت تعلمني كل ما كان علي ألا أفعله، كالنفخ فيما نأكله، ووضـع الخبز مقلوبا، أو الاستنجاء باليد اليمنى، وتعلمنـي أنـه يجـب قـول الحـق، والاغتسال كل يوم من القدم إلى الرأس.

وفي مقابل ذلك،كنت أعمل لها منذ الصباح حتي المساء فـي الفنـاء، أنظف وأقطع الخشب الصغير لموقد النار، أو كنت أقوم بغسيل الملابس، وكنت أحب أن أصعد فوق السقف لنشر الغسيل؛ ومن هذا الموقع، كنـت أرى الشـارع وأسقف المنازل المجاورة والناس الذين يدلفون والسيارات، وطـرف النـهر الأزرق من بين شقي جدار، وفـي هذا الموقع، كـانت الضوضـاء تبـدو لي أقـل رعبا، فكان يبدو لي في هذا المكان أنني في ملاذ.

وحينما كنت أمكث طويـلا علـى السـقف، كـانت لالا أسمـاء تصـرخ باسمي، وتظل قابعة في غرفتها المزركشة على وسادات من الجلد طيلة اليوم؛ وكانت تعطيني كتابا ما كي أقرئه عليها، أو كانت تقوم بإملائي وتسـألني فـي الدروس السـابقة التـي لقنتنـي إياهـا، وكـانت تجـري لي اختبـارات. ولكـي

تكافئني،كانت تسمح لي بالجلوس في الصالة بجانبها، وتضع في جهاز تسجيلها شرائط المغنيين الذين تحبهم: أم كلثوم، سيد درويش، وهيبة مسيكة وبصفة خاصة فيروز بصوتها الخفيض الأبح، والجميلة فيروز الحلبية التي تنشد "يا قدس"، وكانت لالا أسماء تذرف دمعا متى سمعت اسم القدس.

ولمرة واحدة كل يوم، كان الباب الضخم الأزرق ينفرج لتمر منه امرأة سمراء فظة، ليس معها أطفال، تدعى زهرة، كنة لالا أسماء؛ كانت تأتي لتطهي شيئا ما لأم زوجها، أو كانت تأتي، بصفة خاصة، لمراقبة الدار. وكانت لالا أسماء تقول إنها تراقبها كما لو كانت ثروة سترثها يوما ما.

أما نجل لالا أسماء، فكان يأتي بندرة؛ اسمه هابيل، رجل فارع الطول، قوي البنية، يرتدي حلة رمادية أنيقة، ثري يترأس شركة للأشغال العامة، ويعمل أيضا في الخارج، في أسبانيا وفرنسا؛ ولكن وفقا لما روته لالا أسماء، فلقد أجبرته زوجته على العيش مع أبويها هي، وهم أناس يستحيل تحمل مشقتهم، فهم متباهون يؤثرون العيش في المدينة الجديدة على الشاطئ الآخر من النهر.

وكنت أحذر هابيل دوما، ذلك أنني عندما كنت صغيرة، كنت أتوارى خلف الستائر لحظة مجيئه، فكان ذلك يضحكه ويقول: "يالها من همجية!"؛ وعندما كبرت، كان يخيفني أيضا، فلقد كان لديه أسلوبا خاصا في النظر إلي، كما لو كنت شيئا يمتلكه. وكانت زهرة تخيفني هي أيضا،

ولكن ليس بنفس الطريقة. ذات يوم، بمـا أنني لم ألـم الـتراب المتنـاثر فـي الفناء، نهشتني حتى أسالت دمي وقالت لي: "أيتها البائسة اليتيمة !، لست ماهرة حتى في التنظيف!"، فصرخـت فيها: "لسـت يتيمـة، إن جدتـي لالا أسماء"، فسخرت مني ولكنها لم تجسر على المضي في توبيخي.

كانت لالا أسماء تدافع دومـا عنـي، لكنـها كـانت عجـوز منهكـة، أقدامها متخمة ومليئة بالدوالي، وكانت حينما تسأم أو تشـتكي، أقـول لهـا: "أأنت عليلة يا جدتي؟"، فكانت تسمرني أمامها وتحملق فـي، وتكـرر المثـل العربي الذي تحبه، والذي كانت تقوله بإحتفاء وكأنها تبحث في كل مرة عن ترجمته الفرنسية:

"الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لايدركها إلا الأعلاء".

والآن، لم تعد تجعلني أقرأ كثيرا أو تجعلني أذاكر، لم يعـد لديـها أفكار لإملائي، وكانت تمضي معظم أيامها في الصالة الخاليـة تشـاهد شاشـة التلفاز، أو تطلب مني أن أحمل إليها علبة مجوهراتها أو علب فضتها. وذات يوم، أرتني زوج من قرط ذهبي وقالت لي: "انظري يا ليلي، هذا القرط سيكون ملكا لكي حين أموت".

ومررت القرط في ثقبي أذني، وكـان القـرط قديمـا مسـتخدما، علـى هيئة أول هلال للقمر المعكوس في السماء، وعندما لفظت لالا أسـماء لي الاسم، هلال، اعتقدت أنني أسمع اسمي، وتخيلـت أن هـذا القرط كنت أتحلـى بـه حينما أتيت إلى الملاح.

قالت لي: "إنه يناسبك كثيراً، إنك تبدين فيه كبلقيس ملكة سبأ".

فوضعت القرط في يديها، وثنيت أصابعها، وقبلت يدها وقلت:

"شكراً يا جدتي، إنك عطوفة عليّ".

قالت: " اذهبي!، اذهبي!"؛ وزجرتني وقالت: "لكنني لم أمت بعد!".

لم أعرف زوج لالا أسماء إلا من خلال صورة فوتوغرافية له كانت تعترشُ الكمودينو، وكانت تحتفظ بها في الصالة، بجوار ساعة حائط متوقفة، كانت هيئته تدل على أنه رجل يبدو قاسياً، يرتدي زيا أسوداً. كان يعمل محامياً وكان ثرياً، ولكنه خائن، ولما مات، لم يترك لزوجته عدا دار الملاح، وقليل من النقود لدى كاتب العدل؛ وكان لايزال على قيد الحياة حينما أتيت إلى الدار ولكنني كنت صغيرة جداً حتى أتذكره.

كانت لدى أسباب تدفعني للخوف من هابيل، كنت في الحادية عشرة أو في الثانية عشرة من عمري حينما اصطحبت زُهرة جدتي خارج الدار كي ترى الطبيب أو لتبتاع شيئاً، ودخل هابيل إلى الدار دون أن الحظ ذلك، فبحث عني داخل الدار، ووجدني في الغرفة الصغيرة، بجوار الفناء، حيث يوجد المرحاض وحوض الغسيل.

كان ضخماً وقوياً، لدرجة أنه أغلق كل الباب بجسده، ولم أقو على النجاة بنفسي منه، هلعني، ولم يكن بوسعي أن أتحرك بأي طريقة؛ اقترب

مني، وكانت حركاته عصبية جنونية، ربما كان يتحدث إليّ، لكنني وضعت رأسي على أذني اليسرى حتى لا أسمعه. كان طويل القامة، عريض المنكبين، وجبهته عارية تتلألأ في الضوء، ركع أمامي وتحسس أسفل ثوبي، وتلمس أفخاذي وتحسسني، وكانت يداه صلبه من الأسمنت. انتابني إحساسٌ أن زوج من الحيوانات الباردة الجافة قد اختبأ أسفل ملابسي، وأحسست بالخوف لدرجة أنني شعرت بقلبي ينبض في حلقي.

وبغتة، عاودني كل شئ، الشارع المبيض والحقيبة والضربات فوق رأسي، ثم أيدى تتلمسني، وتضغط علي جوفي فتؤلمني. لم أدرِ ماذا أفعل، أظن أنني بُلت علي نفسي من الخوف، وحينما فرغ من ذلك سحب يديه، فأفلحت في المرور من خلفه، وتدحرجت كالحشرة، فعبرت الفناء وأنا أصرخ، ثم سجنتُ نفسي في صالة الاستحمام، لأنها كانت الغرفة الوحيدة التي يمكن غلقها بالمفتاح، وترقبت وقلبي يدق بكل سرعة وأذني السليمة ملتصقة بالباب.

جاء هابيل إليّ، قرع الباب، في البداية بلطف بأطراف أصابعه، ثم بشدة بكلية يديه قائلاً: "ليلي افتحي لي الباب، ماذا تفعلين؟ افتحي، لن أفعل بك شيئاً. "، ثم رحل، أما أنا فمكثت جالسة على البلاط، مولية ظهري للحمام الرخامي الذي صنعه هابيل لأمه.

وبعد ذلك بوقت طويل، جاء شخصٌ ما خلف الباب، وسمعت صوتاً، ولكنني لم أدرك ما جاء فيه، وقُرع الباب ثانية، وهذه المرة عرفت يد

لالا أسماء، وعندما فتحت الباب، كان يبدو عليَّ الرعب، حتى أنـها ضمتني بين ذراعيها وهي تقول لي: "ولكن، ماذا فُعل بكِ؟ ماذا حدث لكِ؟"، فضممت جسدي إليها، وأنا أمـر من أمام زُهرة، ولكنني لم أتفوه بشيء، فصاحت زُهرة: "لقد غدت معتوهة، هذا كل ما حدث"، ولم تسألني لالا أسماء عن شيء آخر، ولكنها منذ ذلك اليوم، لم تتركني بمفردي متى جاء هابيل إلى الدار.

وذات يوم، بينما كنت منهمكة في غسيل الخضر في المطبخ لإعـداد الطعام للالا أسماء، سمعت ضوضاء مدوية في الدار، كما لو كان شيءٌ ثقيلُ يضرب البلاط ويقلب المقاعد، فأتيت مسرعة، ورأيتُ العجوز ملقاة على الأرض، ممددة بكل طولها، فظننتُ أنها ماتت، وفورت أختبئُ في مكـان مـا حينما سمعتها تتأوه وتئن. لقد كان مغشياً عليها، وحينما هوت علـى الأرض اصطدمت رأسُها بزاوية مقعد فسال منها قليل من دم من صدغها، ودارت مـن الهزة واضطربت عيناها، ولم أدرِ ماذا أفعل؛ وبعد مرور برهة، اقتربت منها وتحسست وجهها؛ فكانت وجنتها رخوة، باردة بشكل لافت للنظر، ولكنها كانت تتنفس بكل قوة رافعة صدرها، وكان الزفير يزلزل شفتيها فـي قرقـرة مضحكة كما لو كانت تغطُ في النوم.

"لالا أسماء!، لالا أسماء!"، هكذا كنت أتمتـمُ بالقرب مـن أذنها، وكنتُ على يقين من أنه بوسعها أن تسمعني في حالتها هذه. كانت عاجزة عن الكلام فحسب، وكنت أرى رعشة جفونها المواربة على عينيها البيضتين، وأعلم أنها تسمعني، وقلت لها: "لالا أسماء، لاتموتي!".

في أثناء ذلك، جاءت زُهرة، وقلقت كثيراً من النَفَس البطئ الذى لم أعهده في لالا أسماء، وقالت لى:

ـ "ياغبية! أيتها الجنية الصغيرة !، ماذا تفعلين الآن؟"

جذبتني بعنف من كُم ثوبي حتى أنه تمزق، وقالت لى: "هيا ابحثي عن الطبيب، ألا ترين أن أمي في أشد ألمها!"؛ وكانت هذه هي المرة الأولى التي تتحدث فيها عن لالا أسماء وتلقبها بأمها؛ وعندما رأتني أقف مذهلةً على عتبة الباب، اقتلعت سباطها وقذفتني به قائلة: "هيا، ماذا تنتظرين؟".

حينئذ عبرت الفناء، ودفعت الباب الأزرق الثقيل، ثم شرعت في الهرولة في الشارع دون أن أعرف إلى أين أمضي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أخرج فيها من الدار، ولم تكن لدى أدنى فكرة عن المكان الذى أستطيع فيه أن أجد طبيب، ولم أكن أعرف سوى شئ واحد هو أن لالا أسماء ستموت، وسيكون ذلك خطئ، لأنني لم أتمكن من أن أجد إنساناً ما كي يعالجها. ظللت أهرول دون أن ألتقط أنفاسي على طول الأزقة التي أنامتها الشمس، وكان الجو حاراً للغاية، والسماء عارية، وكانت جدران المنازل بيضاء للغاية.

هرولت من شارع إلى آخر، حتى بلغتُ مكاناً يمكن منه للمرء أن يرى النهر، بل وأبعد من ذلك، البحر، وأجنحة الزوارق. كان المشهد رائعاً حتى أنني لم أخشَ أى شئ، وتوقفت في ظل جدار، وشاهدت كل ما تمكنت من مشاهدته؛ كان المنظر هو نفس المنظر الذى كنت أشاهده من أعلى سقف

دار لالا أسماء، ولكنه أرحب سعة بكثير. إلى الأسفل على الطريق، كانت هناك سيارات كثيرة، وشاحنات وسيارات نقل. كان الوقت هو الساعة التي يذهب فيها الأطفال إلى المدرسة بعد الظهر؛ كانوا يدلفون على الطريق، الفتيات ترتدين التنورات الزرقاء والقمصان الشديدة البياض، أما الفتيان فكانوا يرتدون ملابس قليلة الأناقة، محلقون رؤسهم، يحملون حقائبهم المدرسية أو كتباً يحفظها ماسك.

حدث ذلك وكأني أفقت من سبات طويل؛ وحينما مر أطفال المدرسة بالقرب مني، بدا لي أنهم يضحكون ويسخرون مني، وعندما تريثت، بدت عليّ الغرابة كما لو أنني أتيت من كوكب آخر بثوبي ذي النهج الفرنسي، والذي كان كمه ممزق، وبشعري الطويل المجعد؛ وفي ظل جدار الحائط، بدا عليّ أيضا أنني جنية.

تعقبت شارعاً عن طريق المصادفة باتجاه تلاميذ المدرسة، ثم شارعاً آخر يعج بالناس؛ فكان هناك سوق وغطاءات تقي من الشمس. وفي مدخل أحد الديار، كان هناك رجل عجوز يعمل في حانوت مصنوع من الخشب، وكان الرجل يجلس متربعاً على شئ يشبه المنضدة المنخفضة تحيط به بابوجات[3]، وكان يدق مسامير صغيرة جداً بمطرقة من النحاس في نعل؛ وبما أنني توقفت أنظر إليه، سألني: "أتريدين بُلغةً؟"

---

(3) البابوج هو الحذاء دون الكعب، والكلمة الفرنسية babouche مأخوذة من العربية والتي نقلتها بدورها عن الفارسية. (المترجم)

فلقد لاحظ جيداً أن أقدامي عارية، وقال: "ماذا تريدين؟ أأنت صماء؟"

أفلحت في الحديث إليه، فقلت له: "أبحث عن طبيب لجدتي".

قلت ذلك بالفرنسية، ثم كررتُ بالعربية لأنه نظر إلى دون أن يفهم، وقال لي: "ما بها؟"

– "ستَقَطَت على الأرض، وستموت".

أدهشه هدوئي الشديد، وقال لي: "ليس هناك من طبيب في هذه المنطقة. هناك السيدة جميلة في الفندق؛ إنها مولدة، ربما تتمكن من فعل شئ".

غادرتُ مهرولةً في الاتجاه الذى أشار به علىّ، وظل صانع الأحذية لايتحرك ومطرقته النحاسية مرفوعة، وقال لى شئ لم أفهمه فأضحك الناسَ.

كانت السيدةُ جميلة تعيش في دار لم أتخيل هيئته، فكان عبارة عن قصر مهدوم، حوائطه شاهقة تتكون من التراب المدكوك، وكان يبدو أن مصارع باب هذا القصر الاثنين مفتوحين منذ زمن طويل، لدرجة أن ما من أحد يستطيع غلقهما، إذ يحجزهما الطين والأنقاض. وفي واجهة القصر، كانت هناك قطع من أوراق طلاء الحوائط تدل على أن الدار كان وردي اللون في الماضي، كانت نوافذه الخشبية ناتئة، وشرفه منخورة بالسوس؛ ورغم علمي بذلك، إلا أنني دخلت إلى فنائه.

فناء دار لالا أسماء، كان منظماً تنظيماً قاسياً، نظيف إلى حد المُبالغة، وكنت أظن أن أي فناء يكون كذلك؛ ولكن هنا في داخل الفندق، كان هناك ركام لا يمكن تخيله، وأناس يخيم عليهم السبات في كل مكان من الفندق، تحت ظل الأفاريز أو أشجار السنط الهزيلة؛ وكانت هناك ماعز وكلاب وأطفال ومواقد تستنفد قواها بمفردها، وكانت هناك في كل مكان أكوام القمامة التي يلوكها الدجاجُ المشابه للنسور. وفي جدران الحوائط، حول الفناء تحت ظل أشجار السنط، كان الباعة الجائلون يكدسون حزم بضائعهم؛ ولكي يحرسونها جيداً، كانوا يتوسدونها. لم أعرف ماذا كان يعمل هؤلاء الناس، ولم أكن أدرك المظهر الذي يكون عليه فندق. وحينما عبرت ببطئ الفناء مترددةً في الاتجاه الذي أتخذه، ناداني شخصٌ ما من أعلى الشرفة الداخلية في حركات واضحة؛ وبما أنني فتنت بالشمس فقد بحثت عن ظل الرواق، وسمعت صوتاً واضحاً يسألني: "عما تبحثين؟".

في النهاية، رأيت سيدة متقدمة في العمر، ترتدي ثوباً فيروزياً طويلاً، كانت تتكئ على سور السلم، وتشعل سيجارة وهي تنظر إليَّ، فنطقت اسم السيدة جميلة، فأشارت إليَّ: "أصعدي السلم في نهاية الغرفة أمامكِ".

وعندما بدا عليَّ أنني لا أعي ما تقول، قالت لي: "انتظري".

اقتادتني عبر غرفة كبيرة مظلمة، حيث كانت هناك حزم أخرى من البضائع، وأناس يستريحون، وشيوخ يلعبون الدومينو على منضدة قصيرة

القامة وقد وضع نارجيل بجوارهم، ولم يكن هناك من يبدو عليه أنه يعيرني انتباهاً.

وفي أعلى درجات السلم، كان الرواق مُضاءً من ضوء الشمس حيث لم يكن هناك من مصارع أبواب؛ وكانت تقطن الطابق الأعلى أجنبيات، يبدو على البعض منهن أنهن في سن الشباب، والأخريات في عمر زُهرة أو أكبر منها عمراً. كانت هؤلاء النسوة بدينات، سحنتهن صافية وشعورهن حمراء من الحناء، وشفاههن مطلية، شديدة السمارة، وأعينهن محاطة بالكُحل، يشعلن الغليون أمام أبواب غرفهم، جالسات في أرديتهن على الأرض، وكان دخان غليونهن يخرج من ظل الرواق فيتراقص في الشمس.

قلت: "أريد أن أبحث عن السيدة جميلة".

ظللت أعلى السلم وأقدامي تطأ أرض الطابق، وأظن أن ما منعني أنْ أتقهقر مهرولة من هذا المكان هو فقط الخوف من العودة دون الطبيب إلى لالا أسماء، وجاءت النسوة تلتف حولي، يتحدثن بصوت عالٍ ويضحكن، وكان دخان الغليون يشغل الهواء برائحة عذبة قليلاً، كانت تجعلني أدير رأسي.

كن يداعبن شعري ويتلمسنه وكأنهن لم يرين مطلقاً شعراً مثله، ثم شرعت إحداهن، وهي فتاة شابة يداها فارعتان دقيقتان، محملة رقبتها بالجواهر، في تجديله مخللة الخيط الأحمر بشعري، لم أجسر على التحرك، وقالت: "انظرن، لكم هي جميلة! إنها أميرة حقيقية".

لم أدرك ما قالته، وسألت نفسي عما إذا كان هؤلاء النسوة الجميلات بكل حليهن ومساحيقهن لايسخرن مني، وعما إذا كن سينهشنني ويتجاذبني من شعري، كن يتحدثن بسرعة بصوت منخفض ولم التقط كل الكلمات بسبب أذني المصابة.

ثم أتت السيدة جميلة؛ كنت أتخيل أنها امرأة حكيمة طويلة وقوية، وجهها متجهم، فرأيت امرأة قصيرة نحيفة، شعرها قصير، ترتدى ملابسها على النهج الأوروبي. رمقتني للحظة، ثم أبعدت عني النسوة، وعندما أدركت مشكلة أذني، مالت نحو وجهي وقالت ببطء: "ماذا تريدين؟"

– "جدتي تموت، ينبغي أن تذهبي لتريها في دارها".

ترددت ثم قالت: "حقا أنني أعيش هنا من أجل الأطفال والأجداد الذين يموتون أيضاً".

كانت تمشي بخطوات منفرجة في الأزقة، وكنت أعدو عدو الطفل خلفها؛ وبدونها ما كان لي أن أتوصل لمعرفة طريقي، ولكنها كانت تعرف دار لالا أسماء.

وريثما وصلنا الدار، كان قلبي منقبض؛ وظننت أنه في خلال كل هذا الوقت قد ماتت لالا أسماء، وأنني سوف أستمع إلى الصرخات المدوية، التي ستطلقها زوجة ابنها. بيد أن لالا أسماء كانت على قيد الحياة؛ كانت تطأ مقعدها المريح في مكانها المعتاد، تتمدد وأقدامها على مقعد وضع أمامها،

وكان هناك فقط قليل من الدم الجاف على صدغها حيث ارتطمت رأسها لما وقعت.

رأتني لالا أسماء، فأشرقت نظرتها، كانت لاتزال ترتعش قليلاً، فشدت على يدي بقوة شديدة؛ لاحظت أنه لديها الرغبة في الكلام، وأنها لم تقو على ذلك، ولم أكن أدرك إنها تحبني كثيراً، وفجاءة أسال ذلك عبراتي، وقلت لها: "لاتتحركين ياجدتي سوف أعد لك الشاي كما تحبين".

ثم رأيت السيدة جميلة على عتبة الصالة، وطالما أن لالا أسماء لم تكن على وشك الموت، فلم تكن في حاجة إلى أحد. لم تكن تحب أن يدخل عليها الغرباء، قلت للسيدة جميلة: "إنها بخير الآن، لم تعد في حاجة لك"، واصطحبتها نحو الباب، وأردت أن أدفع لها ثمن الزيارة من دراهمي التي ادخرتها من أعمال التنظيف، لكنها رفضت، وقالت وهي تتفحص وجهي بدقة: "ربما سينبغي عليك أن تستقدمي طبيباً حقيقياً، هناك شيئاً ما تحطم في رأسها، ولهذا السبب سقطت على الأرض".

تسألت: "هل ستتكلم ثانية؟"

هزت السيدة جميلة رأسها: "لن تكون البتة كما كانت من قبل، يوماً ما ستسقط ولن تعود مطلقاً، الأمر كذلك، ولكن يجب أن تظلي معها حتى نفسها الأخير"؛ كررت الجملة بالعربية ولم أنساها: "خرجت الروح...".

عادت زُهرة بعد قليل، لم أتحدث إليها عن أمر السيدة جميلة، فلقد كانت ستصفعني إذا ما علمت أن كل ما أحضرته لها، هو مولدة بفندق

قديم، فكذبت عليها وقلت لها: "قــال الطبيـب أن صحتُـها ستتحسن، وأنـه سيعود الأسبوع القادم"؛ فقالت: "والأدوية؟ ألم يقرر أدوية؟ "؛ هززت رأسي وقلت لها: "قال أن الأمر لايستدعي ذلك، وأنها ستعود كما كانت من ذي قبل".

كانت زُهرة تتحدث بصوت عالٍ بالقرب من أذن لالا أسمـاء كمـا لـو كانت صماء: "أتسمعين يا أماه، لقد قال الطبيب أنك ستغدين على مايرام".

ولكن لالا أسمـاء لم تتحـدث إلى منـذ أشـهر عـن كنتـها، ولم تلحـظ زُهرة أي شئ، وعندما انصرفت، عاونت لالا أسماء على السير حتى فراشها، وكان سـيرها غريبـاً، تقفـز كالشـحرور[4]، ونظرتـها المتفائلـة غـدت هشـة، وحزينة وبعيدة.

فجأة، انتـابني خـوف ممـا سـيحدث؛ لم اسـأل نفسـي حتـى هـذه اللحظة ماذا ساكون حين ترحل لالا أسماء عن الدنيـا، أأكـون فـي هـذا الـدار خلف الجدران العاليـة مـن الجـانب الآخـر مـن البـاب الأزرق؟ وهـل سـأرى المدينة من أعلى السقف حيث أنشر الملابس المغسولة؟ جعلنـي ذلـك أعتقـد أنَّ شراً ما سيحدث لا محالة.

نظرتُ إلى سيدتي، كان وجهـها منتفخـاً لدرجـة أن عينيـها كـانت بمثابة ثقوب في وجهها، وشعرها القليل جداً أبيض أسفل الحنة.

---

(4) اسم عصفور. (المترجم)

قلت: "جدتي، جدتي، لن تتركيني ؟ "، وسرت العبرات فوق وجنتي، ولم أتمكن من إيقافها، ثم رددت: " أليس كذلك ياجدتي، لن تتركيني؟"، أعتقد أنها سمعت ما قلته لها لأنني شاهدت جفونها تتحرك، وشفاها ترتعش، وضعت يدي في يديها حتى تصافحها بقوة، وقلت: "سوف أهتم بأمرك ياجدتي، لن أدع أي أحد يقترب منك ولاسيما زُهرة؛ ساُعدُ لك شايك، وسأقدم لك طعامك وسأمضي أحضر لك الخبز والخضر؛ والآن لم يعد الخوف ينتابني في أن أمضي خارج الدار، فلن نعد في حاجة إلى زُهرة".

كنت أتحدث والدموع لا تتوقف عن السيل، ويمكنني القول أنها ربما كانت هذه هي المرة الأولى، بالنسبة لي أنا التي لم تزرف الدمع أبداً بلا وازع حتى عندما نهشتني زُهرة حتى أسالت دمي.

بيد أن لالا أسماء لم تعد كما كانت من ذي قبل، بل على النقيض، أخذت حالتها تسؤ يوماً بعد يوم، ولم تعد تتناول الطعام؛ وحينما كنت أحاول أن أشربها الشاي، كان الشاي البارد يسيل من طرفي فمها ويبلل ردائها؛ وكانت شفتاها مشققتين مصدعتين، وأصبح جلدها جافاً وأكتسى بلون الرمل؛ ويجب أن أقول أنها كانت تبول تحتها، هي التي كانت نظيفة جداً ودقيقةً؛ كنت أغير لها ملابسها؛ ولم أرد أن تراها زُهرة وهابيل في الحالة هذه؛ كنت على يقين أن لالا أسماء تستحي من ذلك، وأنها تضع حسباناً لكل شئ. عندما جاءت زُهرة، سدت أنفها وقالت: "من أين تنبعث هذه الرائحة الكريهة؟"، فقلت لها أن هناك أشغال تُجرى في الدار المجاور ويتم إخلاء

الحفرة؛ نظرت زُهــرة إلى لالا أسماء نظـرة ريبــة، ونهرتني قائلة: "لأنك لاتقومين بأعمال النظافة بشكل جيد، انظري إلى هذه الفوضى !". كانت تسعى لتعرف ما لايمضي على مايرام في الدار؛ وحتـى لاتستبطن حالـة لالا أسماء، قمت بتصفيف شعرها في الصباح، وطليت وجنتيها بالمسحوق الوردى، ووضعتُ زبدة الكاكاو على شفتيها، ووضعت الطبق النحاسي بجوارها على المنضدة مع إبريق الشاي والأكواب، وسكبت قليلاً من الشاي المحلى بالسكر في الأكواب كما لو كانت لالا أسماء قد شربت شاياً.

لم أعد اتركها؛ ففي الليل، كنت أرقد على الأرض بجوارها مطوقة في ملاءة فراش؛ وأذكر أنه، ذات يوم، كان هناك ناموس، وكنت أستمع إلى غنائه في أذني طيلة الليل، وفي الصباح عدت إلى غرفتي كي أنام قليلاً، نسيت نَفَسَ لالا أسماء الحزين، ورأيت في نومي، أننا، أنا وهي، نرحل ونستقل، في نهاية المطاف، الزورق الشهير الذى كانت تتحدث عنه دوما من مليلا[5]، باتجاه ملاجا[6]، وحتى أبعد من ذلك، إلى فرنسا.

ذات ليل، أخذت الأمور كلها تزداد سوءاً؛ لم أضع هذا الأمر في حسباني على الفور، كانت لالا أسماء تختنق، كان نفسها يحدث غطاً في حلقها، ومع نهاية كل زفير، كانت هناك ضوضاء منبعثة من رئتيها، فظللت

---

(5) أراضي على ساحل البحر المتوسط تطل على المغرب وهي محل نزاع حتى الآن. (المترجم)

(6) ميناء في أسبانيا على البحر المتوسط وهو موطن بيكاسو، ما زال محل نـزاع بين المغرب وأسبانيا. (المترجم)

جامدة متمددة على الأرض دون أن أجسر على الحركة. كانت غرفتها مظلمة مع بصيص من ضوء القمر في الفناء، ولكن لم يكن بوسعي أن أمضي إلى خارج الدار. كنت أترقب، وأردت أن يكون النهار، اعتقدت أنه منذ أن تشرق الشمس، ستستيقظ لالا أسماء، وتتوقف عن الغط، ويتوقف ضيق أنفاسها وضوضاء رئتيها.

نمت مع بزوغ ضوء النهار، فلقد كنتُ متعبة للغاية، ربما ماتت لالا أسماء في هذه الأثناء، وهكذا استطعت في النهاية أن أنام.

حينما استيقظت كان وضح النهار، كانت زُهرة تجلس بجوار الفراش، وكانت تبكي بصوت مرتفع، فجاءة رأتني فملأ الغضبُ فمها، قرعتني بكل شئ وجَدَتهُ: منشفة من الإسفنج ومجلات، ثم اقتلعت حذائها كي تضربني به، فلذت بنفسي والفناء. صاحت فيّ: "أيتها الجنية الصغيرة!، لقد ماتت أمي وأنت تنامين في سكينة ! أنك قاتلة". اختبأت في المطبخ أسفل منضدة كما كنت أفعل وأنا صغيرة، ارتعشت من الخوف، ولحسن حظي، جاءت سيدة مجاورة أنبئها الصراخ في هذه اللحظة، وجاء هابيل بدوره أيضا، وسكَنوا من روع زُهرة. كان معها مدية في يديها كما لو كانت تريد أن تقتلني، وصاحت ثانية: "أيتها الجنية القاتلة !". أجلسوها في الفناء، وقدموا إليها قدحاً من ماء.

أما أنا فقد تدحرجت خارج المطبخ، وعبرت الفناء على قدمي وساعدي على طول الجدار في الظل، وأقدامي عارية، ولم أكن أرتدي سوى

الثوب المجعد الذى نمت به، وكان شعرى مُشعث، وكان يبدو علىَّ أننى قاتلة بحق.

أفلحت فى الهرب مارة من الباب الأزرق الكبير الذى ظل مواربا، ثم شرعت في الهرولة فى الشوارع مثل اليوم الذى ذهبت فيه أستدعى الحكيمة، وكان ينتابنى هلعٌ جارف من أن يلحقوا بى ويودعونى السجن لأننى تركت لالا أسماء تموت.

هكذا تركت دار الملاح دون عودة، ولم أكن أمتلك أى شئ ولاسو[7] واحد، وأقدامى عارية وثوبى بالٍ، ولم يكن معى حتى القرط الذهبى وهلال القمر الذى وعدتنى لالا أسماء أن تتركه لى حينما تموت، فشعرت بأننى أكثر عراءً من اليوم الذى باعنى فيه لصوص الأطفال إلى لالا أسماء.



(7) أصغر وحدة من العملة الفرنسية القديمة. (المترجم)

السوق القديم

كان الفندق يختلف تماماً عن كل ما عرفته في حياتي إلى ذلك الحين، كان عبارة عن دار ينفرج على كل الاتجاهات الأربعة، يقع في شارع يكثر العبور فيه، تربكه الشاحنات الصغيرة والسيارات والموتوسيكلات، وكان السوق على بعد خطوتين منه، وهو مبني من الأسمنت يجد فيه المرء كل ما يريد، لحوم المجازر، والخضروات، والسجاد، والدُّلِيّ البلاستيكية.

حينما تركت دار لالا أسماء، لم أعرف إلى أين أمضي؛ فلم أكن أعرف سوى شئ واحد، هو أنه ينبغي عليَّ أن أختبئ في مكان لا يعثرُ علىَّ فيه مطلقاً كل من زُهرة وهابيل، حتى وإن أرسلا الشرطة تبحث عني. سرت على طول الشوارع في الظل، مجاورة للحوائط كالقط الضال؛ وكانت صرخات

زُهرة "أيتها الجنية ! أيتها القاتلة!" تدوى في رأسي، وكنت على يقين من أنها إذا لحقت بي سوف تدعني السجن. ورغما عن إرادتي، قادتني أقدامي إلى الشارع الذى بحثت فيه عن طبيب يعالج لالا أسماء. لما تعرفت على المبنى من خلال بوابته ذات المصرعين المنفرجين على أشدهما، اهتز قلبي من الفرح، ففي ذلك المكان، كنتُ على يقين من أن زُهرة لن تتمكن من العثور عليّ. لم تكن السيدة جميلة في الفندق، فلقد تم استدعائها إلى مكان ما لحالة طارئة، ولذا فقد جلست بهدوء على الشرفة وظهري للجدار وترقبتها بالقرب من بابها.

في المرة الأولى التي أتيت فيها إلى هذا المكان، كنت في عجلة من أمري، ولم يكن لدى متسعاً من الوقت كي أشاهد ما يحدث في الفندق، أما الآن، فأتفحص كل شئ: الناس الذين يدخلون ويخرجون من الفناء دون توقف، الباعة الجائلين في أثوابهم الرثة محملين كالعير، والتجار الذين يضعون حزم بضاعتهم أسفل الشرفات المقوسة، تجار خضر، وتجار تمر، وشباب يحملون شحن غريبة، تتأرجح على دراجاتهم علب كرتونية محملة بلعب الأطفال البلاستيكية، وأشرطة موسيقى وساعات ونظارات سوداء. كنت أعرف كل بضاعتهم، ذلك أنهم كانوا يأتون، في الغالب، يقرعون باب لالا أسماء، وبما أنها لم تكن تقو على الخروج لتقضي مشترياتها، فلقد كانت تجعلهم يفرغون سلعهم في الفناء، وتشتري منهم أشياء لم تكن في حاجة إليها: أقلام وصابون، وكل ما يحمل الغضب إلى كُنتها التي كانت تقول لها:

"أماه ! ماذا أنتِ فاعلة بهذه الأشياء؟"، وكانت لالا أسماء تهز رأسها وتقول: "ربما سأكون يوماً ما راضية لأنني ابتعت هذه الأشياء". لم أتصور مطلقاً أنه من الممكن أن يتلاقى الباعة الجائلون في مكان مثل هذا الفناء.

في الطابق تقطن سيدات في مقتبل العمر، لم أراهن المرة السابقة. كن أنيقات جميلات إلى حد أنني بسذاجتي حسبتهن أميرات. في هذه الساعة، كن يرقدن في الحجرات خلف الأبواب الواربة؛ وعندما تفحصت ثقب الباب رأيت إحدى الأميرات نائمة على فراش كبير؛ وفي رمق، تبينت هيئتها، كانت ترقد عارية تماماً فوق ملاءة الفراش، يواري شعرها وجهها، وذهلت لمشاهدة بطنها بضاً وعانتها منزوعة الشعر تماماً، فلم أرى قط مثل ذلك، فلم تكن لالا أسماء تصطحبني إلى صالة الاستحمام، وحتى في لحظات عمرها الأخيرة، لم ترد أن أراها مجردة من ملابسها. جسدى الهزيل الأسود لا يشبه البتة هذا الجلدَ الأبيض، وأعتقد أنني تقهقرت خائفة قليلاً والعرق في كفة يدى.

انتظرت كثيرا أسفل الرواق مولية اهتمامي لغدو ومجئ التجار في الفناء؛ ولم أكن قد تناولت الطعام ولا الشراب منذ البارحة. فلقد كان لدى شعور جارف بالجوع وأشعر أنني أموت من الظمأ.

إلى الأسفل في الفناء، كان هناك بئرٌ. لاحظت أسفل الشرفات المقوسة جوالا مفتوحاً به فاكهة جافة، تأتي العصافير لتنقرها؛ فتدحرجت حتى حزمة البضاعة، استحييت قليلاً، ذلك أن لالا أسماء كانت تقول لي

دوماً، أنه ليس هناك أسوأ من سرقة الآخرين، لابسبب ما نأخذه منهم، بل بسبب خداعنا لهم، ولأنني كنت جائعة للغاية، أبعدت تعاليم لالا أسماء عن رأسي.

جلست القرفصاء بجوار الحقيبة المفتوحة، والتهمت بعض التمر والتين المجفف وحفن من العنب الجاف الذى أخرجته من تعليبه البلاستيكي، وأظن أنه كان بإمكاني أن آكل الجزء الأكبر من حزمة البضاعة لو أن صاحب البضاعة لم يأتي في صمت من الخلف؛ مسكني بيده اليسرى من شعرى وبيده الأخرى طوقني بزُنار[1] وقال لي: "أيتها اللصة الزنجية !، سوف أريك ماذا أفعل بأمثالك من البشر"، وأذكر أن أكثر ما كان يؤلمني هو ليس مباغتته لي، وإنما الطريقة التي كان يمسك بها شعرى بأصبعه ويناديني "أيتها السوداء! "، لأن ذلك لم يكن شئ يتلفظ به أحد مطلقاً ولا حتى زُهرة في غضبها، فلقد كانت تدرك أن لالا أسماء لا يمكن أن تطيق مثل هذا الشئ.

تخبطت، ولكي أفلت منه، ضرستهُ حتى سال دمه، وجابهته وصحت فيه: "لست لصة، سوف أدفع لك ثمن ما أكلته".

في هذه الأثناء، أتت السيدة جميلة ومالت سيدات الطابق من الشرفات، وشرعن في سب التاجر الجائل بشتائم لم أسمعها قط، حتى أن إحدى الأميرات لم تجد قذيفة أفضل من أن تلقي عليه قطعاً من النقود فئة

---

(1) حزام. (المترجم)

العشرة والعشرين سنتيماً[2] صائحة فـي وجهـه: "هاك أيها اللص!"، ظل التاجر مبهوتاً أمام مجون السيدات، أسفل سيل قطع النقـود، إلى أن أخذتنى السيدة جميلة من ساعدى واصطحبتنى إلى الطابق، وأعتقد أنـه كـان بيدى إلى هذه اللحظة حفن من العنب الجاف لم أدعها حتى عندما تناولنى التـاجر من شعرى وضربنى بزُناره.

غير أن الهلع تملكنى بغتة، أو ربما كان ذلك ركام كل ما حدث فـى هذا الوقت مع لالا أسماء التي سقطت على البلاط، وزُهرة التي طردتنى ناهبةً قرط أذنى، فأخذت أبكى بشدة على السلم حتى أننـى لم أتمكن مـن الصعـود. حملتنى السيدة جميلة، التي لم تكن أضخم منى، إلى أعلى كما لو كنـت طفلـة صغيرة، وكررت فى أذنى: " ابنتى !، ابنتى ! "؛ أما أنـا فقـد أشـتد بكـائى لأننى افتقدت جدتى وعثرت على أم لى فى يوم واحد.

فى أعلى السلم، كانت الأميرات – اللواتى كنـت ألقبهن كذلـك فـى أعماقى حتـى حينمـا أدركـت أنـهن لسـن أمـيرات بحـق – تنتظرننـى بـألف مداعبة وإشارة ترحيب؛ "وسألننى عن اسمى وكررنه بينهن: "ليلى، ليلى"، وحملن إلىّ الشاى المركـز والحلوى المصنوعـة مـن العسـل، فتنـاولت كـل مـا استطعت أن أتناوله؛ ثم أعددن لى فراشاً فى غرفة كبيرة، رطبة، بها وسـدات ملقـاة علـى الأرض، فرقـدت بعـد ذلـك مباشـرة وسط هـرج ومـرج الفنـــدق،

---

(2) وحدة من العملة الفرنسية، والفرنك يشتمل على مائة سنتيماً. (المترجم)

يهدهدني صوت موسيقى المذياع في الفناء. وهكذا دخلت في حياة السيدة جميلة قاتلة الأجنة وأميراتها الستة.

تدبرت حياتي بالفندق بشكل هادئ ولافت للنظر، ويمكنني أن أقول غير مبالغة، أن هذه الفترة كانت أكثر فترة من حياتي سعادة؛ فلم يكن هناك أدنى إجبار ولا أدنى هَم، فلقد وجدت في شخص السيدة جميلة وفي شخص الأميرات كل البهجة، وكل المحبة التي حرُمت منها حتى ذلك الحين.

حينما كان ينتابني الجوع، كنت آكلُ، وحينما كان ينتابني النعاس كنت أنام، وحينما كنت أرغب في الخروج – وهو ما كان يحدث بشكل ثابت تقريباً – كنت أخرج دون أن أسأل أحداً، دون أن أسأل عن أي شئ كان. كانت الحرية المطلقة التي حييتها في الفندق هي حرية النسوة اللواتي كنت أشاركهن عيشهن، ولم يكن لديهن حساب الساعات، طالما أنهن سميدات، وتبنينني كما لو كنت ابنتهن، أو بالأحرى دُمية، أو أخت صغيرة جداً، وهكذا كن يناديننى. وكانت السيدة جميلة تناديني: "يا ابنتي"، وكانت فاطمة وزبيدة وعائشة وسليمة وحورية وتغادير يناديننى: "شقيقتنا الصغرى"، لأنهن كن بحق في عمر أمي، وكنت أنام دورياً في كل غرفة تشغلها اثنتان من الأميرات، إلا تغادير التي كانت غرفتها دون نافذة، والتي نمت فيها اليوم الأولى. كانت للسيدة جميلة شقة على الجانب الآخر من الرواق، بها نافذة تطل على الشارع، وكنت أرقد هناك أيضا في بعض

الأحيان، ولكن بشكل نادر نظراً لانشغال السيدة جميلة في مكتبها المخصص للفحص الطبي، حيث كانت تأوي السيدات اللواتي لديهن مشكلة في طفل؛ ولما كانت تتلقى المرضى، كنت أدرك أنه لا ينبغي أن أذهب لأطرق بابها. وفي مثل هذه الليالي، كانت تغلق الباب بالمزلاج وكنت أرى عبر السجف الفانوس الذي كانت تتركه مشعلاً في مكتبها، وكان ذلك بمثابة إشارة فهمتها بسرعة.

كانت الأميرات تحببني كثيراً، وكن يشركنني في مهامهن وشئونهن، وكنت أحضر لهن الشاي في الفناء أو اشترى لهن الحلوى من السوق أو الغليون، وأحمل رسائلهن إلى مكتب البريد؛ وفي بعض الأحيان، كن يصطحبنني معهن لإجراء المشتريات في المدينة، ليس كي أحمل حقائبهن – فلقد كان هناك دوما صبية لذلك الأمر – إنما كي أعاونهن على الشراء، ولكي أساوم في الأسعار. فلقد كانت لالا أسماء تعلمني أن أشتري بمساومة الباعة الجائلين الذين كانوا يطرقون بابها، فاستوعبت دروسها جيداً.

كانت زبيدة تحب أن تذهب معي إلى سوق القماش، وكانت تختار أقمشة من القطن لحياكة ثوب أو لغطاء فراش. كانت فارعة ونحيفة، لونها كالحليب، شعرها أسود في لون السبج[3]؛ وكانت تلتف بالمنسوجات وتتقدم

(3) السبج هو مادة قيرية سوداء، وتستخدم اللفظة jais في اللغة الفرنسية للدلالة على شدة السواد. (المترجم)

في الضوء وتقول لي: "كيف ترينني؟ "، وكنت آخذ وقتا حتى أجيبها، كنت أقول مجدة: هذا حسن ولكن اللون الأزرق الداكن يناسبك أكثر".

كان التجار يعرفونني، ويدركون أنني أساومهم بشكل لانع كما لو كنت أنا التي تدفع، ولم يكن بوسعهم أن يخدعونني في الجودة، فلقد تعلمت هذا أيضا من لالا أسماء. ذات يوم منعت فاطمة من شراء حُلية ذهبية فيروزية قائلة لها: "انظري يا فاطمة هذا ليس بحجر حقيقي، إنما هو طرف معدن مطلي"؛ وضعته على أسناني وقلت: "أترين؟ ليس هناك من شئ بداخله"، غضب التاجر، بَيدَ أن فاطمة وبختة قائلة: "صه، إن أختي الصغرى تقول دوما الحق، انج بنفسك لأنني لن أضعك أمام القاضي ".

واعتباراً من ذلك اليوم، ضاعفت الأميرات من انتباههن لي، وكن يقصصن حسن صنيعي مع كل الناس، والآن، حتى الباعة الجائلين في الفندق، يحيونني بوقار. كانوا يأتون إليَّ حتى أتوسط لدى هذه وتلك؛ وكانوا يسعون أن يشترونني بأن يقدموا لي الهدايا، ولكنني لم أكن أخدعُ، فقط كنت آخذ الحلوى واللوز المسكر من التاجر وأقول لفاطمة أو زبيدة: "احذريه، إنه بكل تأكيد لئيم".

وكانت السيدة جميلة تعرف كل ما يحدث، ولم تكن تتحدث عن شئ، ولكنني رأيت أنها لم تكن راضية. حينما كنت أمضي أجري المشتريات، أو كانت إحدى الأميرات تصطحبني للخارج، كانت تتعقبني بنظرتها، وكانت تقول لفاطمة: "أتصحبيها إلى هناك ؟" على سبيل اللوم، أو كانت

تحاول أن تأخذني وتكلفني بواجبات أقملها، صفحات أكتبها أو حساب أو علوم طبيعية. فلقد أرادت أن تعلمني الكتابة باللغة العربية. لقد كانت تتوسم فيّ خيراً.

ولكنني لم أعر انتباها إلى ما كانت تريد أن تقوله لي، وكنت ثملة بالحرية، فلقد حييت سجينة لفترة طويلة، وكنت مهيأة للفرار إذا ما سعى امرؤ إلى أسري.

واليوم أجد مشقة في الاعتقاد بأن الأميرات لم تكن أميرات، كنت أمزح معهن: كانت هناك زبيدة وسليمة اللتان كانتا في مقتبل العمر، لا مباليات، تضحكان طوال الوقت، ولقد اتيتا من قرى الجبل، هاربتين، وكانتا تعيشان محاطتين بلفيف من الرجال، تمتطيان السيارات الأمريكية الأنيقة التي كانت تأتي تسعى إليهن أمام الفندق. أتذكر أنه ذات مساء، جاءت سيارة سوداء كبيرة زجاجها مطلي، تحمل علمين على جناحيها، علمان من اللون الأخضر والأبيض والأحمر والأسود أيضاً، فقالت تغادير لي: "إنه رجل ذو شأن وثرى"، حاولت أن أنظر إلى داخل السيارة، بَيدَ أن الزجاج الأسود لم يتح لي أن أرى شئ، وقلت لها "أهو ملكٌ؟"، أجابت تغادير دون أن تسخر مني: "إنه إنسان مهم مثل الملك".

كنت أحب وجه تغادير كثيراً، ولم تكن شابة إلى درجة كبيرة، كانت بها بعض التجاعيد الملاحظة في ركن عينها وكأنها تبتسم، وكان جلدها شديد السمرة، به وشم صغير مخط على الجبين، وكنت أذهب معها

إلى صالة الاستحمام مرتين أسبوعياً. كان ذلك يحدث على مقربة من مصب النهر بالقرب من رصيف الشحن، وكانت تفادير تعطيني منشفة عريضة، وتأخذ معها حقيبة بها أشياء نظيفة، وكنا نمضي سوياً؛ وفي عهد لالا أسماء، لم أكن اعرف أن هناك مكان مثل ذلك، ولم أتخيل قط أن أتجرد من ملابسي أمام الأخريات.

لم تكن تفادير تحتشم البتة، تغدو وتعود أمامي عارية من ملابسها، وتحك جسدها بأحجار نسفة[4]، وتدعك نفسها بقفازات من الساف[5]؛ وكان ثديها مكتنزاً، حلمته في لون البنفسج، وكان جلدها ينثني على أردافها وجوفها، وكانت تنزع بعناية شعر عانتها وإبطها وأفخاذها، وكنت أبدو بجوارها زنجية صغيرة هزيلة البنية؛ وبالرغم من كل شئ، لم أكن أتمكن من إخفاء خثلتي[6] بمنشفة.

كانت تفادير تحب أن أقوم بتدليك ظهرها وعنقها بزيت لب النرجيل[7]، الذى تبتاعه من السوق والذى يشيع برائحة الفانليا. وفي صالة الاستحمام العامة، كانت غيوم البخار تتدحرج خلف الأجساد، وكانت هناك

---

(4) أحجار نخرة توجد عادة عند مرمى الموج في البحار. (المترجم)

(5) الساف هو جلد الحيوان. (المترجم)

(6) الخثلة هي أسفل البطن. (المترجم)

(7) لب النارجيل هو لب يعصر منه دهن النارجيل وهو من السمون النباتية الشهيرة. (المترجم)

دوما ضوضاء من الأصوات والصراخ والهتافات، وكان هناك صبية عرايا تماماً، يهرولون على طول حوض الماء الساخن وهم يصرخون، وكان كل ذلك يجعل رأسي يدور ويحمل إلىّ الغثيان، وكانت تقول لى: "استمرى يا ليلى، إن يديك قاسيتان وهذا ما يريحني".

لم أكن أعرف ما إذا كنت أحب ذلك، فلقد كنت أمضى فى غلالة الزيت في ظهر تغادير، وكنت أستنشق رائحة الفانليا ورائحة العرق؛ ولكنى تفيقني، كانت تغادير تنضحني بالماء البارد وتضحك حينما أفرّ وشعر كل جسدى منتفش.

غدوت تميمة الفندق، ربما لم تكن السيدة جميلة سعيدة لأجل هذا السبب؛ من الجائز أنها كانت تعتقد أنني كنت مُداعبة وممدوحة لحد أكثر من اللازم لدى الأميرات، وبالتالى كان ذلك ينعكف على خطر قد يفسد طابعى من فرط سماعى لهؤلاء النسوة يمتدحننى طيلة النهار قائلين: "آه لكم هى جميلة!" وبسبب استغلالى فى نزواتهن، انتهيت إلى تصديقهن، وتأقلمت بخيلاء مع نزواتهن. وكن يبهرجنني بأثواب فضفاضة، ويطلين أظافرى بالزجنفر، وشفاهى بالمسحوق القرمزى، ويزين عيناى بالكُحل. كانت سليمة التى هى من أصل سودانى تهتم بتصفيف شعرى، كانت تقسم شعرى إلى مربعات صغيرة، ثم تجدلها بخيط أحمر أو بعقد ملون، أو كانت تغسله بصابون جوز الهند، حتى تجعله أكثر جفافاً وانتفاخا مثل لبدة الأسد، وكانت تقول لى أن أفضل شئ فىّ، هو جبهتى وأهدابى الطويلة المقوسة بشكل

باهر، وعيناي لوزية الشكل، وربما كانت تقول لي ذلك لأنني أشبهها، وكانت تفادير تخط يدي بالحناء، أو تخط على جبيني ووجنتي نفس العلامات التي كانت تضعها هي مستخدمة قذاة مبللة في سواد مصباح، وكانت تعلمني الدق على الدف وأنا أرقص في وسط غرفتها، وعندما كانت الأميرات تنصتن إلى صوت الدف الصغير، كن يأتين لأرقص لهن وأقدامي عارية على البلاط، دائرة حول نفسي إلى أن أترنح.

كنت أنفق السواد الأعظم من فترة ما بعد الظهيرة في هذه التصرفات الصبيانية، وفي المساء كانت الأميرات تسرحنني لكي تستقبلن زيارتهن، أو أذهب إلى غرفة من غرف أولئك اللواتي يخرجن في سيارة. وحينئذ، كانت السيدة جميلة تنظفني بطرف منشفة مبللة وتقول لي: "ماذا فعلن بك ثانية، أنهن معتوهات". وببشرتي المنتفش والكُحل السائل وأحمر الشفاه الذي يطفح على وجهي، كنت أشبه، على الأرجح، دُمية مجهلة، ولم تكن السيدة جميلة تقوى على إمساك نفسها عن الضحك من مشهدي، وكنت أنام مهدهدة بإعصار ذكريات هذه الأيام الطويلة جداً، إلى حد أنني لم أعد أتمكن من تذكر كيف بدأت.

ظفرت حورية بإيثاري لها، كانت أكثرهن شباباً، وآخر من أتى إلى الفندق؛ وصلت قبلي ببضعة أيام، قَدمت من مدينة بربرية بعيدة من الجنوب، كانت مقترنة برجل ثري من تنجر، قهرها وأخذها عنوة، فأعدت حقيبة صغيرة ذات يوم وفرت؛ انتشلتها تفادير من شارع بجوار محطة

القطار، وحملتها إلى هنا حتى تتمكن من الاختفاء والفرار من رسل زوجها، وخشيت السيدة جميلة هذا الأمر، ولكنها وافقت شريطة أن تنصرف حورية متى زال الخطر، فلم تكن ترغب في مضايقات الشرطة.

كانت حورية قصيرة ورقيقة، كان يبدو عليها أنها طفلة تقريباً؛ أصبحنا بسرعة أصدقاء، وكانت تصطحبني معها في كل مكان، حتى في المساء، إلى المطاعم والحانات الليلية، وكانت تقدمني إلى أصدقائها وكأني أختها الصغيرة، وكانت تقول لهم: "إنها أختي، ألا تشبهني؟".

كان وجهها جميل الطلعة، متناسق، وأهدابها مرصوصة وعيناها أجمل العيون التي رأيتها قاطبة، لم أطرح عليها سؤالاً عن الطريقة التي تكسب بها عيشها، كنت أعتقد أنها تتلقى هدايا، لأنها تعرف كيف ترقص وتغني، ثم أنها كانت جميلة، فلم يكن لدى أي فكرة عما تكون عليه أي مهنة ما، وما يمكن أن يكون حسناً أو سيئاً، عشت كحيوان صغير مستأنس، وكنت أرى حسناً فيمن يمدحني ويداعبني، وسوءاً في كل من كان يمثل خطر عليَّ ويخيفني مثل هابيل الذي كان ينظر إليَّ كما لو كان يريد أن يلتهمني، أو زُهرة التي تسعى إليَّ بالشرطة قائلة لها أنني سرقت أم زوجها.

أكثر ما كان يخيفني هو الوحدة، أحيانا في نومي كنت أعيش ما حدث منذ زمن بعيد حينما أختطفت، وكنت أرى الضوء في شارع مبيض، وأسمع صيحة العصفور الأسود المتوحشة، أو كنت أسمع صوت العظمة التي كسرت في رأسي حينما صدمتني الشاحنة.

حينئذ كنت أتدحرج في فراش حورية، وأطبق عليها بشدة وألتصق بظهرها كما لو كان سيغشي علي، وكانت هي الأولى التي قصت لي عن جذوري، حينما قصصت عليها القرط الذي نهبته زُهرة، قالت أنها تعرف أين يكون أناس عشيرتي، الهلاليين، ناس هلال القمر على الجانب الآخر من الجبل، على شاطئ نهر عريض جاف، ووددت أن أذهب إلى هناك في هذه القرية التي دخلتها، في الشارع الذي في نهايته تكون أمي التي ترقب قدومي إليها.

غير أن حورية لم تمكث كثيراً في الفندق، فلقد رحلت ذات صباح، ولم يكن ذلك من جراء زوجها، ولكن بسببي أنا.

ذات مساء، ذهبتُ إلى مطعم على شاطئ البحر مع حورية وأصدقائها، وسرنا كثيراً أثناء الليل حتى أتينا شاطئ عريض خال، وكنت في مؤخرة مقاعد السيارة المرسيدس بجوار الباب،وكانت حورية تجلس في وسط السيارة مع رجل، وكان هناك أيضا رجلان في الأمام وامرأة شقراء، يتحدثون بصوت مرتفع، وبلغة لم أعرفها، ظننت أنها من الجائز أن تكون الروسية، وأتذكر جيداً الرجل الذى كان يقود السيارة، فلقد كان طويلاً وقوياً مثل هابيل، شعره كثيف وذقنه أسود، وأذكر أيضا أنه كان له عين زرقاء وأخرى سوداء. ظللنا لوقت طويل في المطعم، ومن الجائز أن الساعة كانت منتصف الليل. كان مطعما بهياً، به ثمة شمعٌ تضئ رمال الشاطئ، وكان هناك فتيان يرتدون الحلل البيضاء. أمضيت السهرة أرمق البحر الأسود،

وضوء زوارق الصيد التي تعود وضوء "فنار بعيد. كانت السيدة الشقراء تتحدث وتضحك بشدة، وكان الرجال يحاصرون حورية؛ وكانت الريح التي تمر من النافذة المفتوحة تحمل دخان الفليون. شربت خمراً خلسة؛ أسقاني سائق المرسيدس في كأسه، خمر لذيذ للغاية، كثير السكر، يشعل الحلق؛ كان يحدثني بالفرنسية بلكنة غريبة ثقيلة إلى حد ما يجرها على الكلمات، وكنت متعبة إلى حد أنني نمت على مقعد بالقرب من إحدى نوافذ السيارة.

ما إن أفقت حتى وجدتني بمفردي في مؤخرة السيارة، والسائق يميل عليّ، ورأيت شعره المجعد المتلألئ في ضوء المطعم. لم أدرك الأمر في الحال، ولكنه حينما وضع يده أسفل ثوبي استيقظت؛ كنت ثملة وكان لدي رغبة في التقيؤ. صرخت رغم إرادتي لما انتابني خوف، وحينما أراد السائق أن يضع يده على فمي ضربته وصرخت فيه وأنا أنشب مخالبي في جسده.

أتت حورية على الفور، كانت أكثر غضباً مني، جذبت الرجل من الخلف، وضربته بقبضة يديها، وصاحت فيه بالشتائم؛ حاول الرجل أن يرد الشتائم، تقهقر على الشاطئ، وتناولت حورية حجراً غليظاً، وكادت أن تقتله لو أن الآخرين لم يأتوا؛ ظلت تسب السائق حتى بكت، وبكيت أنا أيضاً. ثم ابتعد السائق بنفسه وذهب على الجانب الآخر من السيارة، وأشعل سيجارة كما لو كان شيئاً لم يحدث، وبعد لحظة هدأ روع حورية واستطعنا أن نستقل السيارة. كان السائق يقود السيارة دون أن ينظر إلينا، يضع سيجارته في فمه، ولم يعد أحد يتفوه بشيء، حتى أن الروسية صمتت.

أودعتنا السيارة في السويقة، ودلفنا حتى الفندق، وكان هناك حتى هذه اللحظة أناس كثيرون في الخارج. في الغالب حدث ذلـك فـي مساء يوم سبت. كان شارع العشاق العريض ممتلئٌ، كان بـه زوج من البشر أسفل كـل مغنولية[8]. ابتاعت حورية فنجانين للشاي والحلوى. كنا منهكتين، نرتعش كما يحدث على أثر حادثة، ولم تتحدث حورية عما حدث، إلا أنـها قـالت مرة واحدة: "أين الكلب هذا قال لي: دعيها تنم وسوف أقـوم عليـها كأبيها".

علمت السيدة جميلة أمر ما حدث علـى الشاطئ، ولكنـها لم تقـرر بنفسها أن ترحل حورية، ففي الصباح أخذت حوريـة حقيبتـها التـي كـانت معها حينما التقت بـها تغادير بالقرب من محطـة القطـار، ورحلـت دون تبرير، ربما عادت إلى زوجها في تانجر، لم أعد أعرف منها شيئاً على مدار أشهر، بَيدَ أن رحيلها جعلني حزينة جداً لأنها كانت بحق كـأختي إلى حـد ما.

بعد ذلك اليوم، حاولت السيدة جميلة أن تمنعنـي مـن الخـروج مع الأميرات الأخريات، ولكنني مع حوريـة اعتـدت الحريـة ولم أعـد أمارسـها سوى في رأسي؛ وبصحبتي لعائشة وسليمة اعتدت عادة أخرى: شـرعت فـي السرقة.

---

(8) المغنولية نبات زهري جميل الطلعة أوراقه رائعة. (المترجم)

كان ذلك بداية مع سليمة، عندما كانت تتلقى وصديقها في الفندق، أو عندما كانت تمضي إلى المطعم، كنت أرافقها، وكنت أتخذ جانباً، متقلصة إلى الباب كالحيوان مترقبة اللحظة. كان صديق سليمة فرنسياً، مدرساً للجغرافيا في المدرسة الثانوية، أو شئ من هذا القبيل، وكان رجلاً حسن الملبس، يرتدى حُلة من قماش الفلانيلا الرمادى وصدرة وحذاءً أسوداً مطلياً طلاءً حسناً.

كانت له عادت مع سليمة، كان يصطحبها في البداية لتناول وجبة الغذاء في مطعم بالمدينة القديمة، ثم كان يحملها إلى الفندق، وكان يقيم في الغرفة التي ليس بها نافذة، وكان يحمل إليّ الحلوى ويعطيني في بعض الأحيان قطع النقود، وكنت أظل جالسة أمام الغرفة ككلب حراسة، وفي الواقع كنت أنتظر كثيراً حتى ينهمكان وأدخل الغرفة بخفة متناهية، ثم أندس في الضوء الخافت حتى أصل إلى الفراش، ولم أكن أهتم بما تفعله سليمة مع الفرنسي، كنت أبحث عن ملابسه، فقد كان المدرس رجلاً يعتني بهندامه، فكان يطوى البنطال ويضع حلته وصدرته فوق مسند مقعد، وكانت أصابعي تتدحرج في الجيب كحيوان صغير خفيف الحركة، وتأخذ كل ما تعثر عليه: ساعة بصلية الشكل، خاتم من الذهب، حافظة نقود منسوجة من أوراق البنك ومليئة بالنقود، قلم أزرق راشح مطلى بالذهب، وكنت أحمل غنيمتي إلى الرواق حتى أتفحصها في ضوء النهار، وأختار منها بضعة أوراق

وبضعة نقود، ومن وقت إلى آخر، كنت أحتفظ بشئ يعجبني، أزرة حاشية قميص من عرق اللؤلؤ أو القلم الأزرق الصغير.

أظن أن المدرس انتهى إلى الشك في شئ ما، ذلك أنه، ذات يوم، أهداني سواراً من الفضة في علبة صغيرة، وحينما قدمه إليّ قال: "هذا حق لك"، كان رجلاً عطوفاً معي، فكنت في خجل من نفسي لما فعلت، وفي ذات الوقت، لم أكن أقدر على حبس نفسي من إعادة الكرّة، وكنت أفعل ذلك ليس لروح شريرة بي، وإنما على سبيل اللعب، فلم تكن لدى حاجة إلى النقود، سوى أن أشترى هدايا لسليمة وعائشة أو للأميرات الأخريات، ولم تكن النقود تفيدني في شئ.

ظللت أسرق بصحبة عائشة في المتاجر، كنت أصحبها إلى وسط المدينة وأدخل معها إلى المتجر، وبينما كانت تنهمك في شراء الحلوى، كنت أملأ جيوبي بكل ما أجد من الشيكولاته وعلب السردين والبسكويت والعنب المجفف، وما إن كنت أبلغ خارج المتجر، حتى كنت أنقب سمياً عن فرصة، فلم أعد حتى في حاجة إلى صحبتها. كنت قصيرة سوداء البشرة، وكنت أعلم أن الناس لا يعبئون بي، ولا يمكن رؤيتي. ولكن في السوق، لم يكن هناك من شئ أفعله، كان التجار يعرفونني وكنت أحس أن عيونهم ترقب كل حركاتي.

كنت أذهب وعائشة إلى مكان بعيد جداً حتى حي المحيط حيث تقام فيلات رائعة وأبنية كلها حديثة البناء، وحدائق. كانت عائشة تحب أن

تتجول كثيراً في المراكز التجارية، وفي هذه الأثناء، كنت أمضي إلى دار المقابر كي أرمق البحر.

وفي هذا المكان كنت أشعر بأنني في مأمن، كان الجو ساكناً وصامتاً، لانرى فيه ازدحام المدينة، وكان يبدو لي أن ذلك هو فضائي منذ الأبد. كنت أجلس فوق أكمة المقابر وأستنشق رائحة عسل النباتات الصغيرة كثيفة الأوراق، ذات الورود الوردية، ثم أتلمس الأرض براحة يدي حول المقابر.

في هذا المكان، كان بوسعي أن أتحدث مع لالا أسماء، لكنني لم أكن أعرف البتة أين دُفنت؛ كانت يهودية ولهذا السبب لم يكن ينبغي لها أن تدفن بين المسلمين؛ غير أن هذا الأمر لم يكن له أهمية بالنسبة لي، لقد كنت أشعر بأنني على مقربة منها، في دار المقابر هذه، وأنه بوسعها أن تسمعني. قصصت عليها حياتي، ليس كل شئ، مقتطفات فحسب، ولم أرد الدخول في تفاصيل، فقلت: "ياجدتي لن تكوني فخورة بي، أنت التي كانت تقول لي دوما أنه ينبغي أن نحترم متاع الآخرين، وأن نقول الحق، ها أنا الآن أكبر اللصوص وأكبر كاذبة على وجه الأرض".

حزنت للتحدث إلى لالا أسماء عبر الأرض، وكنت أزرف الدمع ولكن الريح كانت تجففه في الحال، كل شئ أصبح طيباً للغاية في هذا المكان: أكمة المقابر المغطاة بالزهور الوردية الصغيرة، وأحجار المقابر البيضاء التي لا تحمل أسماءً، والآيات القرآنية الممحاة، والبحر الأزرق الذي يُرى من بعيد،

وطيور النورس المعلقة في السماء، والتي تنزلق على الريح وترشقني بعين حمراء وماكرة. كانت هناك سناجب بدار المقابر، ويبدو أنها كانت تخرج من المقابر، كانت تعيش مع الموتى، ربما كانت تأكل أسنانهم كما تأكل الجوز.

لم ينتابني قط الخوف من الموتى، فلأنني رأيت لالا أسماء هاوية على بلاط الصالة تغط وتقرقر، أعطاني هذا الأمر فكرة عن أن الموت عبارة عن سبات عميق، فلم يكن الموتى هم الذين أخشاهم في دار المقابر.

ذات يوم، ظهر لي عجوز ضارب في العمر، له لحية بيضاء؛ من الجائز أنه كان يرقبني منذ وقت طويل، تسمر بجوار مقبرة كما لو كان قد خرج منها، وعندما نظرت إليه مرر يده أسفل ثوبه ثم رفعها وأبان عن نفسه. فكر أنه ربما خوف ينتابني وأصيح؛ غير أنني في الفندق كنت أرى رجال عرايا تقريباً كل يوم، وكنت أنصت لداعيات الأميرات حول موضوع أعضاء الرجال التي كن يحكمن عليها عامة أنها غير كافية إلى حد ما.

طاب لي أن ألقي بحصوة على العجوز وفررت وسط المقابر، بينما كان يسبني ويمسك ببابوجه محاولاً تتبعي قائلاً: "أيتها الساحرة الصغيرة!"

– "أيها الكلب العجوز !"

في هذا اليوم فهمت أنه ينبغي ألا ننخدع بالمظهر، وأن عجوز في ثوب أبيض ولحية أنيقة يمكن في الغالب ألا يكون سوى جرو لئيم.

كان حي المحيط مكانا مهيئاً للسرقة، فكانت هناك متاجر رائعة، بها أشياء للأثرياء فقط، كما لو كان المرء لايجدها في جانب سوق المدينة القديمة. في السويقة، لم يكن هناك سوى نوع من البسكويت، نوع من الضيفة، وكشراب، فقط الفانتا بعصير البرتقال أو البيبسي؛ أما في متاجر حي المحيط، كان المرء يجد علب من عصير بأسماء مدونة باليابانية والصينية والألمانية، لها مذاق جديد غير معروف، كالتمر الهندي والكيوى[9] والجوافة، وكنا نجد سجائر من كل البلدان حتى السجائر الطويلة السوداء ذات الطرف الذهبي التي كنت أشتريها لعائشة، والشيكولاته السويسرية التي كنت أسرقها من العرض في المحلات.

كنت أدخل إلى المتاجر خلف عائشة، وأقوم بجولة، وأخرج وجيوبي ممتلئة. لم يكن الناس يعرفوني، فلم يكونوا يحذرونني. كان يبدو عليَّ أنني فتاة صغيرة عاقلة. في ثوبي الأزرق ذي العنق الأبيض، والشريط الأبيض في شعري الكث، وعيني الساذجتين. اعتقدوا أنني قاطنة جديدة في الحي، وأنني أصطحب أمي التي تعمل في الفلل، ولاحظت أن الكثير من الناس بسطاء، لم يستوعبوا الدرس بسرعة مثلي، كانوا يعتقدون بداية فيما يرون، وفيما يقال لهم، وفيما يجعلهم يعتقدون فيه الآخرون. كنت في الرابعة عشرة من عمري، وكان يبدو عليَّ أنني في الثانية عشرة، وكنت أعلم

(9) ثمرة حلوة المذاق. (المترجم)

من الجن، هكذا كانت تقول لى تغادير، وربما كان لديها الحق في قولها هذا، وكانت تتشاجر مع سليمة وعائشة وكانت تعاملهن كقوادات.

أعتقد أنه لم يكن لدى أى معنى للتقدير والسلطة، فلقد كنت أخاطر بنفسي في أسوأ المتاعب؛ وفي أثناء هذه الفترة من حياتي، تشكل طابعي وأصبحت غير قابلة للتكيف مع أى شكل من النظام، مائلةً لعدم الإذعان إلا لرغباتي فاكتسبت نظرة قاسية.

وضعت السيدة جميلة في حسبانها أن تلك الأمور لن تدوم، لكنها لم تعتاد الأطفال أو بمعنى آخر، كانت الأميرات بمثابة أطفالها؛ ولكى تصحح الانحدار السئ الذى تركتني اكتسبه، أرادت أن تدون اسمى في المدرسة، ولكنني لم أكن أتحدث العربية بشكل جيد حتى أتمكن من دخول مدرسة بلدية، وكان عمرى متقدم جداً على الدخول في مدرسة أجنبية، وإضافة إلى ذلك، لم يكن لدى أى مستند يدل على شخصيتي، فاختارت لى شيئا من قبيل المدرسة الداخلية، حيث كانت هناك امرأة جافة شرسة تدعى الآنسة روز تأخذ على عاتقها مسؤولية اثنتى عشرة صبية عضال. وفي الحقيقة، كان ذلك المكان بمثابة دار إصلاح على الأرجح. كانت الآنسة روز راهبة فرنسية نزعت عنها لباس الرهبنة، وراحت تعيش مع رجل أصغر منها سناً يكرس وقته للحسابات وأمانة الصندوق.

كان السواد الأعظم من الفتيات لهن ماض محمل أكثر من أى ماضى، فكن إما هاربات من منازلهن، وإما لهن عشاق، وإما خطبن وجعلتهن أسرهن

حبيسات الدار حتى تتيقن من خاتمتهن؛ أما أنا فقد كنت حرة بجوراهن غير مهمومة، ولم أكن أخش شيئاً، ولم أبق سوى بضعة أشهر لدى السيدة روز.

أساس التربية في الداخلية كان ينص على تكليف الفتيات في أعمال الحياكة والكي وقراءة كتب عن الأخلاق، وأعطتنا الآنسة روز بعض دروس اللغة الفرنسية ودرس لنا المحاسب الوسيم ببخل شديد أهم أفكار في الحساب والهندسة.

عندما كنت أصفُ للأميرات عبودية الفتيات المضطرات إلى كنس وتنظيف أرض الداخلية، أو عندما كنت أقص عليهن أن أصابع الفتيات تحترق بآلات كواء الملابس، أو من ماسك الطناجر، كانت الأميرات تسخطن. أما بالنسبة لي، فلم تكن المسألة أن أزين أي شيء كان، أو أن أقوم بأعمال النظافة، فلقد فعلت كل ذلك للالا أسماء، لأنها كانت جدتي، وكنتُ مدينة لها بحياتي، ولم يكن الأمر أن أعيد الكَرة كي أنال إعجاب فتاة طاعنة في السن تتقاضى أجرها بصرف النظر عن هذه الأشغال. كنت أسعد بالمكوث جالسة على مقعدي، أستمع إلى دروس الآنسة روز التي كانت تقرأ بصوتها الأبح" الزيزُ والنملة"[10] أو "حلم الياغور"[11]. ولم أتعلم الكثير في داخلية

(10- 11) إحدى حكايات لافونتين الشعرية Les Fables، كتبت في القرن السابع عشر، التي يحاول فيها أن يسرد قصة على لسان الحيوانات للخروج بموعظة أو حكمة، ولقد حاكى فيها المؤلف الإغريقي إيزوب، وهناك دلائل على تأثر صاحب هذه الحكايات بكليلة ودمنة.

الآنسة روز، ولكنني تعلمت أن أقدر حريتي، وقطعت عهداً على نفسي حينئذ، أنه مهما حدث لن أدع نفسي مطلقاً تُسلب هذه الحرية.

في نهاية هذا الفصل الدراسي في الداخلية، أتت الآنسة روز بشخصها إلى الفندق حتى تتبين، بلا شك، الوسط الذى صنع إنسان سئ الطباع مثلي، وكانت السيدة جميلة في جولة خارج الفندق، فقابلتها كل من سليمة وعائشة وزبيدة في الرواق بملابسهن المنزلية الطويلة المصنوعة من قماش الموصلي الملون وأعينهن مفحمة بالكُحل؛ وقلن لها: "نحن عماتها"؛ وأمامها هي التي لم تصدق بأذنيها وعينيها، أثقلنني بالشكوى فقلن أنني كاذبة، سارقة، سليطة، كسولة، وأنني إذا ظللت لدى الآنسة روز سأعرض كل الفتيات الداخليات للهرب أو أحرق الداخلية بآلة كي الملابس، وهكذا طُردت من الداخلية. آلمني ذلك قليلاً، بسبب كل النقود التي خصصتها السيدة جميلة لتربيتي، لكنه لم يكن بوسعي أن أعاقب بالأشغال الشاقة كي أرضيها فحسب.

وهكذا بعد شهور انقطاع، عثرت على حريتي، التسكع في السويقة، في حي المحيط الثري، في دار المقابر الكبيرة أمام البحر؛ غير أن سعادتي كانت قصيرة الأمد. حينما عدت ذات ظهيرة من غزوة وجيوبي ممتلئة بأشياء غير ذات قيمة لأميراتي، قبض عليّ رجلان يرتديان حُلّيَ زُرقاء في مدخل الفندق، ولم يكن لدي الوقت كي أصرخ أو أطلب النجاة. مسكاني، كلاهما من ذراع ونهضا بي والقياني في شاحنة صغيرة زرقاء،

نوافذها محروقة. حدث ذلك الأمر وكأن كل شئ يعيد الكَرة، أصبحت مشلولة بالخوف من جديد، كنت أتذكر الشارع الأبيض الذى ينغلق على نفسه والسماء التى تتوارى. كنت مكورة فى قاع الشاحنة الصغيرة، رُكبى ترتفع إلى جوفى ويداى متكئة إلى أذنى وعيناى مغلقتان، أصبحت من جديد فى الحقيبة الكبيرة السوداء التى كانت تبتلعنى.



حى المحيط

لم تكن لدى أية فكرة عما حدث لى، ولكننى فيما بعد، أدركت ما حدث: تعقبتنى شرطة زُهرة ونصبت لى فخاً. كل المتاجر التى سرقتها كانت تبحث عنى. مثلت أمام قاضى الأحداث، كان رجلاً هادئ الطباع، يتحدث بصوت منخفض للغاية؛ وبما أننى كنت أجيب بنعم على كل الأسئلة، بدوت له مذعنة؛ لكنه أراد أن يسألنى أيضاً عن الفندق، عما تفعله السيدة جميلة والأميرات، وبما أننى لم أجب بشئ فى هذا الصدد، غضب ولكن دائما بلطف جم. كسر فحسب القلم الرصاصى الذى كان يقلبه بين أصابعه وهو ينظر إلىّ، كما لو كان يريد أن يفهمنى أنه بوسعه أن يكسرنى أنا أيضاً بحركة منه.

وخلال أيام عديدة، تم استجوابي، ثم أرسلت إلى غرفتي التي كانت نوافذها مسيجة، فكانت كمدرسة أو مبني ملحق بمستشفى.

ثم سلمني إلى زُهرة، ولو كان قد ترك لي الاختيار بين زُهرة والسجن، لاخترت السجن، لكنه لم يمنحني الاختيار.

في هذا الوقت، كانت زُهرة وهابيل عَظْمة يقيمان في مبنى جديد في مخرج المدينة، وسط الحدائق الكبرى؛ كانا قد باعا دار الملاح، ووافقت زُهرة على أن تترك أمها وأباها لتأتي وتعيش في هذا الحي الراقي.

في البداية، كانت زُهرة وهابيل عطوفين معي، وكانا يفصلان ذلك معي وكأنهما قد قررا أن تُمحى الشكوى، وكل الماضي، وأن نبدأ بأسس جديدة، وربما كانا يخشيان أيضا السيدة جميلة، أو كانا يشعران أنهما مراقبين.

بيد أن طبيعتهما عادت بسرعة، فبعد مرور وقت ما، عادت زُهرة شريرة معي، فكانت تضربني، وتصيح فيَّ أنني لستُ سوى خادمة، خادمة لا تفعل شيء في الواقع. كانت تتخذ أقل الزرائع حتى تمضي في غضبها الوحشي، لأنني كسرت قصعة زرقاء، أو لأنني لم أغسل العدس، أو لأنني تركت أثراً على بلاط المطبخ.

لم تكن تدعني أمضي خارج الدار، وكانت تقول أنه هناك أمر من القاضي ينص على أن أتوقف عن أي ممارسة سيئة. حينما كان يلزم لها المضي خارج الدار، كانت تحبسني في الشقة مع كومة الملابس التي في حاجة إلى

الكيّ. وذات يوم، صـهبت ياقـة قميـص من أقمصـة هـابيل، ولكـي تعـاقبني حرقت زُهرة يدى بالنار. كانت عيناى مغممـة بـالدموع، ولكنني كنت أشد على أنيابى بكل ما أوتيت من قوة حتى لا أصيح، فكدت أفقد نَفَسى، كمـا لـو كان شخص ما ضغط على حلقى، ولكنه لم يغش عليّ. وحتى اليوم يوجد على يدى مثلث أبيض لن يُمحي أبداً من أثر تلك الواقعة.

كنت أظن أنني سأموت من الجوع، ولم يكن هناك شئ آكله، وكانت زُهرة تطهى الأرز لجرو صغير كان لديها، كلب من نـوع الشتترو[1]، شعره طويل، لونه أبيض أقرب إلى الصفرة، كانت تسقى الأرز بحساء الدجاج، وكان هذا كل ما تعطيني إياه، كان طعامي يقل عـن طعـام جروهـا الصغير، فكنـت أختلس، من وقت إلى آخر، حبة فاكهة من المطبخ، وكان هناك خوف ينتابني من ما يمكـن أن يحـدث إن لمحتني. كـانت قدمـاى وذراعـاى مدثـرة بـاللون الأزرق من جراء ضرباتها لى بالزُنار، لكنني كنت أتضور جوعاً إلى حد أنني كنت أسرق من خزانة المطبخ السكر والبسكويت والفاكهة.

ذات يوم، كان لديـها مدعويين علـى الغـذاء، أسرة فرنسية يطلـق عليها الدلاهاى، فاشترت لهم عنقود عنب أسود كبير من متجر كبير في حي المحيط، وبينما كانوا يأكلون الشهيات، كنت أرقب في المطبخ وآكُلُ الكَرْم. ثم لاحظتُ أنني التهمت كل الحبـوب المتراصـة علـى العنقود. حينئذ، وحتـى

---

(1) جنس الكلب أو فصيلته. (المترجم)

أوجل لحظة اكتشافهم للجريمة، وضعت محاشر من الورق أسفل العنقود بطريقة يبدو بها أنه مكتنز في الطبق، وكنت أعلم أن الأمر سيُكتشف، إن آجلاً أو عاجلاً، ولكن الأمر كان فيه شرٌ لي، فلقد كان الكَرْمُ لذيذ المذاق، حلو وشذي كالعسل.

في نهاية الغداء، حملتُ الكَرْم، وطلب المدعوون أن أمكث معهم، وقالوا لزُهرة عني: "إنها محميتك الصغيرة".

كانت زُهرة تتصنع، فنزعت عني ملابس الرثة والبستني الثوب الأزرق ذا الياقة البيضاء الذي كان بحوزتي في دار لالا أسماء. كان الثوب قصيراً إلى حد ما، وضيقاً جداً، لكن زُهرة تركت الزلاقة منفرجة، وربطت ستارة فوقها، ثم إنني أصبحت نحيفة للغاية.

كان المدعوون يقولون: "إنها رائعة!، إنها جذابة!، كل تهانينا لكم"، وكان الفرنسيون لطفاء، وكان السيد دلاهاي ذا عينين زرقاوتين شديدتين الصفاء بارزتين على وجهه البرونزي؛ وكانت زوجته شقراء، بشترها حمراء قليلاً، غضة كثيراً. وددت كثيراً في أن أطلب منهم أن يحملونني معهم، ويتبنوني، ولكنني لم أكن أعرف كيف أقول ذلك لهم؛ أردت أن يطالعوا بأسى في نظراتي وأن يفهموا كل شئ عني.

بالطبع، في لحظة تناول الحلوى اكتشفت زُهرة أسفل العنقود المأكول وحشو الورق، فلفظت اسمي، وكانت أطراف ساق العنقود منزوعة الحبات ومنتفشة كالشعر، إلى حد أن عنقود العنب بدا عليه الخزي.

قالت السيدة دلاهي: "لاتنهريها، إنها طفلة، ألم نفعل نحن شيئا من هذا القبيل حينما كنا أطفالا؟". كان زوجها يضحك علناً وكان هابيل يطلق بسمة غامضة، ولم تتظاهر زُهرة بالضحك، ألقت عليّ نظرة سيئة وبعد رحيل الفرنسيين، مضت تبحث عن الحـزام الثقيل ذا الـبزيم النحاسي وقـالت لي: "عن كل حبة سوط"، ضربتني حتى سال دمي.

وبفضل عائلة الدلاهاي تمكنت من الخروج من الشـقة، فلقد هتفت السيدة دلاهي إلى زُهرة ذات يوم قائلة لهـا: "قـولي لي ياعزيزتي، أتعيرنني لوقت قصير محميتك الصغيرة، إنك تعلمين لكم أنا في حاجة إلى من يعاونني في الدار، وفي ذات الوقت سيمكنها ادخار قليلاً من نقود جيبها".

في البداية، رفضت زُهـرة متزرعـة بأشياء مختلفة، لكن السيدة دلاهاي عاتبتها على ذلك قائلة: " أتمنى ألا تسجنيها ". فانتـاب زُهـرة شيئ من الخوف، وظنت أن هناك تهديد وراء مزاح الـسيدة معـها، ولـذا تركتني أذهب إليها، مرة ثم مرتين في الأسبوع.

كانت أسرة الدلاهاي تستأجر داراً أنيقاً فـي حـي المحيـط، وكـانت شركة هابيل هي التي قامت بأعمال الدهان والإصلاح للدار. وكـان هـذا الدار مكانا هادئا، به حديقة مزروعة بأشجار البرتقال وأشجار الليمـون وسياج دفلي[2]. كان هناك الكثير من العصافير، وأحسست أنني على ما يرام فـي دار

---

(2) الدفلي: نبات يغرس بجوار السياج لتزيين أسوار المنازل. (المترجم)

الدلاهاى؛ كان يبدو لى أننى عثرت على الهدوء الذى عرفته فى طفولتى فى الملاح عندما كانت الدنيا تنحصر فى فناء لالا أسماء الأبيض.

كانت جوليت دلاهاى حنونة معى، حينما كنت آتى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، كانت تقدم لى الشاى والحلوى الصغيرة من علبة معدنية حمراء، وعلى الأرجح أنها كانت تشك فى أنى لا آكل بشكل كاف لدى زُهرة، حينما كانت تلحظ أننى أسرع نحو الخشكنان[3]. أظن أنها تعرف ماضىَّ، ولكنها لم تكن تتحدث عنه، فعندما كنت أمرر خرقة الأتربة فى غرفتها، كانت تترك كل حليها بشكل واضح على الصوان، وكذلك قطع من النقود الصغيرة، بينها قطع معدنية نقدية، وأعتقد أنها وضعتنى تحت الاختبار، فمنعتُ نفسى من الاقتراب من هذه القطع؛ كانت تحصى النقود بعد مرورى، ومن مرح صوتها كنت أعلم أنها سعيدة لأنها وجدت قطع النقود كلها؛ ولكنها بينما كانت تفعل ذلك، كان بوسعى أن أفتش جيوب حُلة زوجها المعلقة فى الشراع فى بهو البيت.

كان السيد دلاهاى مسناً إلى حد ما، أنفه عريض، ونظارته كانت تضخم عينيه الزرقاوتين، وكان حسن الملبس، يرتدى دوماً حُلة رمادية اللون، غامقة، مزينة بكرة حمراء على العروة، وحذاء من الجلد الأسود مطلى طلاءً حسناً. كان فى السابق رجلاً هاماً، سفيراً أو وزيراً لا أعرف؛ أما

---

(3) هو البسكويت الخشن. (المترجم)

أنا، فلقد كنت معجبة به، كان يناديني: "صغيرتي" أو "آنستي"، ولم يكن هناك مطلقاً من يخاطبني بهذه الطريقة، كان يخاطبني بلغة المفرد، لكنه لم يكن يعطيني أبداً الحلوى ولا النقود. أما هوايته فكانت تتمثل في التصوير الفتوغرافي، فكانت هناك صور في كل مكان في داره، في الممرات والصالة والغرف، حتى في المرحاض.

ذات يوم، دعاني إلى مشغل التصوير، كان عبارة عن مبنى صغير ليس به نوافذ، يقع في طرف الحديقة، كان يُستخدم كمقر سيارات قبل أن يهيئه لعمله، وفي هذا المكان، كان يحمض ويستخرج الصور الفتوغرافية.

ما أدهشني في مشغل الصور الفتوغرافية، هو صور قرينته المعلقة على الحائط، صور قديمة إلى حد ما، كانت تبدو في ريعان الشباب، تبدو مجردة من ملابسها، بها ورود مغروسة في شعرها الأشقر، أو في لباس بحر على شاطئ، لقد التقطت لها هذه الصورة في بلد آخر، في جزيرة بعيدة، حيث تُرى أشجار النخيل والرمال البيضاء والبحر في لون فيروزي. ذكر لي الأسماء، يبدو لي أنها مانورافا أو اسم من هذا القبيل، وكان هناك أيضا على الحائط شيئا عجيباً من الجلد الأسود، مزين بمسامير من نحاس عددته بداية سلاحاً، مقلاعا أو خطاما، وحينما شاهدت الصور دهشت للتحقق من أن ذلك هو ساتر عورة السيدة دلاهاي الذي علقه زوجها هنا على سبيل الغنيمة.

اعتدت أن أرى النساء عاريات، في صالة البخار مع تفادير، أو عندما كانت عائشة أو فاطمة تتجولان في الحجرة، وبالرغم من ذلك، فقد

كنت أستحي أن أرى هذه الصور باللون الأبيض والأسود لدام دلاهاى ، كانت ممددة وعارية تماماً فوق شرفة في الشمس، وأسفل جوفها ، كانت عانتها تكوم قطعة مثلثية سوداء تتعاكس مع لون شعرها. كان السيد دلاهاى يرقبني من خلف نظارته بضحكة غامضة، اعتقدت أيضا أن ذلك كان بمثابة اختباراً لى ، فأخفيت خجلى، إذ كنت أرغب كثيراً في نيل رضاهما.

عدت إلى مشغل الصور الفتوغرافية مرات عديدة، وكان السيد دلاهاى يشرح لى تقنية استخراج الصور ، وحمامات التحميض، وكيف نأخذ الصورة بالملقاط ونعلقها بخيط حتى نتركها تجف. كنت أحب كثيراً أن أظهر الأوجه في الدلو، وببطئ تصبح شيئا فشيئاً سوداء. كان هناك أوجه نساء وأطفال ومشاهد من الشارع، وفتيات أيضا في أوضاع غريبة بالثوب المفتوح الذى يتدلى على الكتف والشعر المتهدل.

كان السيد دلاهاى يقول لى أننى ذكية وأننى موهوبة في التصوير؛ وتحدث بشأنى إلى السيدة دلاهاى بحماس وقال أنه ينبغي أن نلحقها بمعمل تصوير، وأنه بوسعى أن أتخذ من ذلك مهنة لى. أما أنا، فلقد كنت أنظر إلى هذه المرأة الراقية للغاية وأود لو أذهب عن رأسى قطعة الجلد الأسود التى تتدلى على حائط مشغل الصور، فقلت لنفسى إن ذلك لايمثل شئ، وأنهما على الأرجح قد نسياه، كما ينسى المرؤ ويعلق قبعته في مسمار مثبت على الحائط وهو يمضى.

ذات بعد ظهيرة، في بداية فصل الصيف، كان الطقس حاراً للغاية في خارج الدار، فذهبت كعادتى بعد نهاية مهامى كى أعمل قليلاً في

استخراج الصور، وكان السيد دلاهساى منـهمكاً وقد علـق حُلته على عَلاقَـة ملابس، ولم يكـن يشمل الضـوء الأحمـر وقـال: "اليوم لـدى الرغبـة فـى تصويرك"، كان ينظر إلىّ نظرة غريبة؛ وقال ذلك كما لو أننا اتفقنـا علـى هـذا الأمر مسبقاً، لكنني لم أكن ارغب في أن يلتقط لى أحد صوراً فوتوغرافية، فلـم أحب مطلقاً هذا الأمر، أذكر أن لالا أسماء كانت تقول إنه من السوء أن يُلتقـط صوراً للمرء، لأن ذلك يهلك الوجه؛ وفي ذات الوقت، كنت سعيدة أن تحـزو الرغبة رجل كالسيد دلاهاى فى تصوير فتاة سوداء مثلى..

أشعل مصابيحه ذات الكلابة، ووضع منضـدة منخفضـة أمام مـلاءة كبيرة بيضاء مثبتة على الحائط بمسامير، ثم أعد كل هذه التجهيزات، وعلى الأرجح أنه فكر في هذا الأمر منذ وقت طويل، فلقد كان وجهه جـاداً عملياً، وجبينه يلمع بالعرق من حرارة المصباح، ثم أجلسني علـى المنضـدة المنخفضـة وجعل نصفى الأعلى مستقيماً جداً.

ثم شرع فى التقاط الصور لى، واضعا آلة التصويـر علـى قدمـه حيث كان يسطع ضوء أحمر، وكنت أنصت إلى صوت صمام الآلة، وكان يبدو لى أننى أسمع صوت استنشاقه ونفسه الربوى، فكان ذلك الأمر غريباً. لم يكن ينتابنى مطلقاً خوف منه، وأحسست في نفس الوقت أن قـلبى يدق بقوة كما لـو كنـت في طريقى لفعل شئ محرم وخطير.

توقف، رأى أن شعرى لم يكـن مصففاً بطريقـة حسنـة، أو رأى أن شعرى لم يكن متهدلاً بشـكل كـاف؛ نـزع عنـى العصابـة التـى كـانت زُهـرة

تجبرني على وضعها، ثم بلل شعري بالماء البارد وجففه بآلة تصفيف شعر من ماركة بابيليس، فأحسست بالهواء الساخن على عنقي والماء البارد الذي كان يسري على رقبتي، ويبلل ثوبي. في هذه الأثناء، كان السيد دلاهاي يبدو غريباً بحق، كان يشبه هابيل عندما حاصرني في حوض الغسيل في فناء لالا أسماء، تصبب عرقاً، وكانت نظرته لامعة متفحصة، وبياض عينيه كان أحمر اللون قليلاً. فكرت في أن زوجته من الممكن أن تصل بين لحظة وأخرى، وأن ذلك سيغضبها. في لحظة ما، ذهب نحو الباب، ونظر للخارج، ثم أغلق عليَّ الباب وأدار المفتاح في القفل. كان ذلك الأمر بمثابة شئ غريب يشبه الأشياء الغريبة التي حدثت لي من ذي قبل، من السيدة جميلة إلى الآنسة روز ثم زُهرة. ومنذ هذه اللحظة، شعرت بأنني لست على مايرام، وكان قلبي يدق بسرعة شديدة، وأحسست بعرق من القلق الذي استشرى في جنباتي وعلى طول ظهري.

بدأ السيد دلاهاي في التقاط الصور، وقال لي شيئاً ما حول ثوبي، إنه لايناسبني، وإنه ميئل للغاية. كان يريد شيئاً يتفق مع وجهي، شيئاً أكثر همجية وبربرية وأكثر حيوانية. ففكَّ أزرار ثوبي وجوف الرقبة، وأحسست بيده على رقبتي وكتفي، وأحسست بنفَسه. فكنت أنأى عنه وأميل بنصفي الأعلى. على الأرجح كان الغضب في عيني، ذلك أنه رجع للخلف وأخذ في ترديد العبارات مكرراً: "هكذا رائع، إنك رائعة". ومن وقت إلى آخر، كان يمر خلفي، ينزع زر من أزرة ملابسي ويدحرج الثوب قليلاً من على أكتافي، ولكنه كان يلمسني بالكاد، وكنت أشعر بهواء استنشاقه في عنقي.

وفي لحظة ما، لم أقو على التحمل، وملكني الغثيان، فنهضت دون أن أصلح من شأني، هرولت حتى الباب. وبما أن المفتاح لم يكن في القفل، عدت. كان السيد دلاهاى متصلباً أمام آلة تصويره، بدا عليه التفكير، كان على وجهه انطباع غريب عني، كما لو كان يأسف كثيراً، ولم أعرف ماذا أقول، وبصوت غضوب قلت: "إن لم تدعني أخرج فسوف أصيح"، ففتح لي الباب، وأبتعد عني كما لو كنت عقرباً، وقال لي: "ماذا بك؟ ماذا فعلت بك؟ لم أرد أن أخيفك، أردت أن التقط لك صوراً فحسب"، لم أنصت إليه، ورحلت مسرعة، وخرجت من الدار دون أن أقول "إلى اللقاء" للسيدة دلاهاى، وكان قلبي يدق بشدة، وشعرت بنيران فوق وجنتي وفوق رقبتي حيث مرر هذا الرجل أنامله.

انتهيت بالعودة إلى دار زُهرة، ولم يكن هناك أحد، انتظرت عودتها وأنا على السطح، ولم تضربني مخالفة لعادتها، ولم تطرح على أي سؤال. وببساطة لم أعد أرى عائلة الدلاهاى، وأعتقد أنه اعتبارا من هذا اليوم قررت أن أرحل، أن أذهب إلى مكان بعيد على قدر استطاعتي، في نهاية الدنيا وألا أعود مطلقا، وفي هذه الفترة أيضاً قررت زُهرة أن تخطبني إلى شخص ما.

لم أدرك على التو أنها دبرت هذا المشروع، ولكنني لاحظت أنني منذ لم أعد أذهب إلى عائلة الدلاهاى، كانت زُهرة أكثر عطفاً عليّ، لكنها ظلت تسجنني في الشقة، ولكنها لم تعد تضربني، بل كانت تعطيني كميات أكثر من الطعام، وعلى غير المعتاد كنت أقتسم الطعام مع الشتزو، وكان لدى

الحق في حبة فاكهة من حين إلى آخر، حبة موز، أو تفاحة، أو تمر محمص، حتى أنها ذات يوم أعطتني العلبة الصغيرة الحجم التي تحتوي على القرط الذهبي وهلال القمر الذي يحمل اسم عشيرتي والذي تركه لي لصوص الأطفال عندما باعوني إلى لالا أسماء، وقالت لي: "هذا لكِ، كنت أحتفظ به حتى لاتخاطري بفقده، وهذه إرادة أمي وكيف لا أتبعها ؟ ". كنت أسأل نفسي دوماً لماذا تفعل ذلك، إن التفسير الوحيد الذي عثرت عليه، هو أن لالا أسماء ظهرت لها في منامها وقالت لها أن تفعل ذلك، فلقد كانت زُهرة تتصور أن روحها شريرة.

كانت كثيراً ما تأتي السيدة دلاهاي كي تطلبني، ولكن زُهرة لم تكن تُرد أن أراها، إضافة إلى ذلك، كنت قانعة بزُهرة لحد كبير، وتملصت فجأة أن أمقت هؤلاء الناس الطيبين المهذبين، بسبب قصة ساتر العورة وصورهم الشائنة.

ثم كان هناك هذا الرجل الذي جاء الآن إلى الدار، كان شاباً، موظفاً في بنك، أو شئ من هذا القبيل، متكلفاً للغاية، وعلى الأرجح أن زُهرة قالت له أنني أتحدث العربية بصعوبة، فكان يخاطبني بفرنسية مهجورة رسمية تولد لدى الرغبة في الضحك. كانت زُهرة تقدم له شاياً في الصالة، وتحضر له طفاءة غليون، حتى لايسقط رماد السجائر على السجاد. كانت له طريقة في مسك سيجارته بشكل مستقيم وكأنه يمسك بقلم رصاص. الخلاصة، كانت هيئته خرقاء وساذجة.

عندما كنا نعلم أنه سيأتي، كانت زُهرة تجعلني أرتدي قميصي الأزرق ذا الرقبة المثقوبة، ذلك الرداء الذي كان يمقته السيد دلاهاي والذي أراد أن ينزعه عني يوم التصوير. كنت أحمل إليه الصينية وبها أكواب مطلية بماء الذهب وعلبة سكر، وكان السيد جماح – الذي كنت ألقبه دوماً بـ أبداً[4] – ينظر إليّ بعينين مطوفتين للغاية، وكان وجهه الرقيق الأبيض ينم عن عاطفة؛ وحينما كنت أجلس أمامه على الوسادات، كنت أبغت بالنظرات الخاطفة التي يصوبها إلى ساقي من آن إلى آخر. ظل هذا الأمر لمدة أشهر عديدة، وانتهيت بأن أمزح بلقاءاته، فكنت أسلك سلوك المتدللة فألفظ الكلمات المضمرة المعنى حتى يفكر في ما وراء ذلك. وفي هذه الفترة، أصبح هابيل هيوراً، دنيئاً، فكان ذلك الأمر بالنسبة لي لُعبة أتسلى بها، ووسيلة للانتقام من كل ما فعله بيّ في السابق؛ كنت ألهو بإيهامه بأنني سعيدة من هذه الخطبة المُعلنة؛ وعندما كان يأتي من خارج المنزل، كنت أسأل زُهرة عن السيد جماح كثيراً، ثروته، ودار أسرته، وموقع أخوته، إلخ..

ذات يوم وهو يمر أمامي، ألقىّ علي نظرة سامة وقال: "على كُلٍ، ليس لديك الوقت الكثير الذى ستمكثينه هنا"، ثم قال لي أن حفلة الخطوبة ستكون في شهر أكتوبر، وأضاف: "طالما أنك تحبين الفنادق فإن الخطوبة ستعقد في فندق على شاطئ البحر حيث حجزنا الصالة".

---

(4) في النص الفرنسي هناك مايشبه السجع الخفيف أو التقابل الصوتي بين أسم العلم Jamah والظرف النافي jamais الذى لقبت البطلة جماح به. (المترجم)

لم أقم بإعداد حقائبي حتى لا يفطنوا أمري؛ وقمت بوضع كل حصيلتي في ملابسي، كل ماسرقت، وكل ما كسبت وأنا أعمل لدى عائلة الدلاهاي، وكل ما أخفيت تحت قطعة في أسفل جدار الحائط في الغرفة التي كنت أرقد فيها. وضعت النقود في جيوبي وحكت الأوراق النقدية داخل قميصي في واجهة معدتي، وغرست القرط الهلالي أسفل عصابة رأسي.

ولكي أخرج، انتظرت أن تنتهي زُهرة من مساعيها، وألقيت من خلال نافذة مغسل الثياب بعض الملابس في الفناء، وقلت لزهرة أنني سأذهب لإحضار هذه الملابس. كان قلبي يدق، خشيت أن تفطن أمري من خلال نغمة صوتي. بعد الظهيرة، انتاب زُهرة نعاس، ترددت في النوم، لكنها كانت متعبة، فأعطتني المفتاح وقالت: "لا تنتهزي ذلك الأمر في التسكع خارج الدار".

– "كلا ياخالتي سأعود على التو".

تثاءبت وقالت: "شدي الباب، وأعيدي غسيل كل شئ".

خرجت عن طريق السطح، ولكي أنتقم لنفسي، أخذت معي الكلب، وأغلقت الباب بالمفتاح بسنتين. أما المفتاح الآخر فكان مع هابيل، وكنت أعلم أنه لن يعود قبل أن يأتي المساء.

وفي أسفل السلم، دفعت الكلب الشتزو بركلة قدمي، وألقيت بالمفتاح في صندوق القمامة، ثم أغرته في الفضلات حتى أكون على يقين من أن أحداً لن يعثر عليه، ثم مضيت في الشوارع الخالية، في الشمس، دون عجلة من أمري.

دوار تبريكة

كان همي الأول، كما تتصوورون، أن أذهب إلى الفندق حتى أرى السيدة جميلة والأميرات، فبعد مُضي قليل من الأيام سيكون قد مرَّ عامٌ على اللحظة التي جاءت فيها شرطة زُهرة وهابيل للقبض عليّ. عندما وصلت أمام الفندق، لم أعرف شيئاً؛ كان الأمرُ يبدو وكأن زلزالاً أرضياً قد داهم المكان؛ الحائط السياجي المرتفع، والباب ذو الشقتين تلاشا؛ وفي ساحة الفناء، حيث كان الباعة الجائلون يقفون، طُليت الأرضُ بالقار وتم تهيئتها مقراً للسيارات والشاحنات التي تأتي إلى السوق؛ أما الغرف السفلى، فقد تسورت أو أغلقت بالستائر المعدنية؛ وأما الطابق العلوي، فقد ظل هو فحسب مشابه لحالته القديمة تقريباً، اللهم إلا أنه كان يبدو لايصلح للإقامة فلقد كان بسال

ومهجور. أوراق الحائط فيه كانت تسقط من الواجهة، والمصارع كانت مهشمة، وكانت هناك أيضا البوم تعشش في سقف الرواق، لم أتصور المنظر، ودهشت، انتابني إحساس بأن غدر ما قد أتى على المكان.

في مدخل مقر السيارات، كان هناك حارس، رجل جاف، وجهه محروق كوجه الجندي، يرتدي بذلة طويلة، شعره مصفف على هيئة العمة التراخية؛ وخلفه في الفناء، كان هناك صبية صغار منهمكين في غسيل زجاج السيارات بدلو الماء الممتزج بالصابون ومماسح بالية. في هذه الأثناء، كان الحارس ينظر إليّ نظرة ريبة، ولهذا لم أجسر على طرح أسئلة عليه، فربما كان سيوشي بي للشرطة. على أية حال، ماذا يمكنه أن يعرف؟. ما كان يحزنني هو الظن بأنني السبب في إخلاء الفندق، فلقد نفذ المالك تهديداته، وأخرج السيدة جميلة والأميرات بدعوى سوء الخلق وباع المنزل للبنوك.

قال لي هذه الأخبار العجوز رومانة، التاجر الذي كنت دوما أذهب إليه كي أشتري منه التبغ الأمريكي لتغادير؛ أما السيدة جميلة فقد قُبض عليها وأودعت السجن، ورحلت كل الأميرات؛ لكنه أبلغني أن تغادير مضت تعيش على الجانب الآخر من النهر في دوار يطلق عليه تبريكة، وأبلغني أن حورية تعيش معها. اشتريت منه بضعة سجائر، ولاسيما تذكاراً للماضي، لكنه لم يكن بوسعي أن أتأخر في هذا المكان، لأن زُهرة ستأتي لتبحث عني في البداية في ناحية الفندق دون شك.

كان النهار يوشك من نهايته، فاستقليت الزورق، كان مرسى المراكب شاسعاً، وقد شرعت مراكب الصيد في العودة إلى الشاطئ محملة بالأسماك الطازجة، تحلق فوقها طيور النورس وقد أحاطت بها. تلاشت حدود المدينة في الضباب، وعلى الساحل الآخر، كان الشاطئُ مظلماً، وكان هناك ضوء يبرق في السماء. وللمرة الأولى، أحسست أنني طليقةٌ، ولم يعد لدى أي ارتباطات، فأدلف نحو المستقبل. لم يعد ينتابني الخوف من الشارع الأبيض وصيحة المصفور، ولن يكون هناك من يلقيني في حقيبة ويضربني، وتظل طفولتي في الجانب الآخر من هذا النهر.

وجدتُ مشقةً في العثور على تفادير، فلقد كان دوار تبريكسة نائياً عن النهر؛ كان يقع في حي مرتفع يغلقه شارع تحت الإنشاء تمر فيه الشاحنات الكبيرة. كان حياً بائساً جداً، لم يكن به سوى الأكواخ الخشبية المغطاة بالصفائح المعدنية المطلية، أو من الفيروسمان[1] المتكئة على الأحجار كي تقاومَ الريحَ. كانت الشوارعُ متماثلة، ممرات أرضية مستقيمة للغاية مزوبعة بالأتربةِ، وكان الشارع الكبير بمثابة غيمة كبيرة تميل إلى اللون الأحمر فوق المدينة.

دلفتُ في الأزقة على غيرِ هدى، وبسبب شعرى الكث وثوبي الرث، جعلت الكلاب تعوى صوبي؛ وأمام صنبور للماء، كانت هناك

---

(1) مادة بناء صلبة يدخل في تكوينها الأسمنت. (المترجم)

مجموعة من النسوة والأطفال يعبئون أقداح ماء بلاستيكية، وكان هناك أيضاً صبية يمرون على الدراجات في كل مكان، معهم أقداح الماء أو أخشاب النار التي كانت تتوازن على دراجاتهم. أشارت إحداهم إلى منزل تغادير، ثم اصطحبتني إلى نهاية الطريق بينما كان قدحها يمتلئ بمفرده تحت صنبور الماء، وفي نهاية شارع، أشارت إلى منزل صغير مطلي باللون الأخضر، وكان هو الدوار.

كان قلبي مشدوداً، لأنني لم أكن أعرف كيف تستقبلني كل من تغاديرو حورية بعد ما حدث، وظننت أنهن قد ترفضان لقائي وترميانني بالأحجار.

لم أكن في حاجة لطرق الباب، فلقد أخبرهن عن قدومي على الأرجح شخص ما، إذ خرجت حورية في اللحظة التي وصلت فيها، وعانقتني ضامة جسدي إليها بقوة شديدة وكررت: "ليلى، ليلى"، وكانت هناك دموع في عينيها، لقد تبدلت، أصبحت أكثر شحوباً، شهباء قليلاً، بها ازرقاق دائري حول العين من جراء المشقة، وكان ثوبها ملوث من الوحل، أقدامها عارية في صندلها الذي لم تربط قدته.

سمعت صوت تغاديرالأبح في قاع الفناء، وكان هناك نوع من الأفريز البلاستيكي الأخضر المتموج كذلك الذي نراه في الحدائق، والذي كان يحيط بموقد النار في الدار. جاءت تغادير، كانت ترتدي هي أيضا اللون الأخضر، لم تتبدل كثيراً، كانت التجاعيد الصغيرة التي كنت أعشقها فيها على طرف

عينيها وعلى جانبي فمها ملحوظة بشكل واضح، وكانت تعرج قليلاً، إذ كان أحد ساقيها محاط بضمادة.

تعانقنا، وسعدت بالعثور عليها واستنشاق رائحتها، وبدا لي أنني عثرت على قريبات لي، على أسرتي بعد سنوات وسنوات من الغياب. أعَدّتْ تفاديركوب شاي لنفسها، به نبات الجونبود الشهير الذي تعشقه والنعناع الذي تزرعه في أواني بالقرب من المطبخ. كانت لدي أسئلة كثيرة أريد أن أطرحها عليها، ولكنني لم أكن أعرف كيف استهلها. حدثتني حورية عن السيدة جميلة: فبعد أن أمضت مدة قصيرة بالسجن، ذهبت إلى مدينة أخرى، ربما إلى ميلالة أو إلى فرنسا، ورحلت الأميرات، كل أميرة في جانب: زبيدة وفاطمة تزوجتا، وتزوجت سليمة من أستاذ الجغرافيا، وعائشة تعمل بالتجارة، وظل الفندق مغلقاً لفترة طويلة ثم هُدم الجدار. عندما كنت أقول لها أن كل ذلك حدث بسبب خطئي وبسبب أنه قد قُبض عليّ، كانت تفادير التي تبدو عجوزة تُهدأ من روعي وتقول: "كان لابد أن يحدث ذلك، فلقد مر وقت طويل دون أن تُسَدِدَ السيدةُ جميلة الإيجار، بخلاف وشايات التجار الذين لم تنس لهم، ثم أن الفندق كان داراً لكل الناس، وكان لابد من أن ينتهي هذه النهاية يوماً ما"، فواستني، لكنه في نفس الوقت، لم يبعد عن مخيلتي أن شر زُهرة كان وراء كل ذلك، فلقد كانت هذه المرأة بمثابة شيطان لي.

قلت لتفادير وهي تبين عن ساقها: "ما بك؟"

هزت كتفها كما لو كان تساؤلي قد ضايقها، وقالت: "لا شيء لدغني عنكبوت، أعتقد ذلك".

وقالت لي حورية الحقيقة بعد ذلك: تغادير معتلسة بسداء السكر، وفحص الطبيب ساقها في المستشفى وعهد بها إلى حورية وقال لها: "إنها مُعتلسةٌ للغاية، ساقها يتآكل وسيلزم أن تُبتر"، ولكن حورية لم تُسردْ أن تصارحها بشيء، وقالت لي: "مازالت تعتقد أنها لدغة عنكبوت، وتضع كمادات النباتات، وتقول أنها تتحسن، لكنها لم تعد تتسألم لأن ساقها في طريقها للهلاك"، وكان ذلك الأمر مخيفاً، ولكن من جانب آخر، كان من الأفضل ألا تعرف الحقيقة طالما أنه ليس هناك أملٌ في شفائها.

لم تكن حياة دوار تبريكة يسيرة، ولاسيما بالنسبة لي، أنا التي لم أعرف قط حياة البؤس، فحتى في دار زُهرة، كنت أتناول الطعام يومياً، وكان هناك الماء والكهرباء. أما هنا، في تبريكة، فكان ينتابنا الجوعُ دوماً، وحتى الأشياء البسيطة كانت تنقصنا، كإمكانية الاغتسال كل يوم، أو وجود الخشب الصغير لغلي الماء للشاي. كان هناك أطفال يبيعون الخشب المقطوع، يجلبونه من مكان بعيد، من على الجانب الآخر من الطريق، من التلال. وكانت هناك فتيات صغيرات، ملابسهن رثةٌ، يحملن على ظهورهن حزم الحطب الموثوقة بأحبال أضخم من أجسادهن. ومع ذلك فقد كان دارنا بعيداً عن أن يكون أكثر الديار فقراً.

كانت تغادير فخورة بهذا الدار، ذلك أن ابنها عيسى هو الذي شيده؛ وكان عيسى بَنّاءً يعمل في ألمانيا. وفي الحجرة التي تُستخدم كصالة للدار، علقت تغريد صورته، صورة كبيرة مبقعة إلى حد ما، كان يشبهها، كانت عيناه مصدوعتين إلى حد ما كالصينيين.

ولقد اختارت تغادير أن تطلي البيت باللون الأخضر، لونها المفضل: طلت باللون الأخضر أواني الزهور حيث كانت تغرس النعناع والقويسة، وباللون الأخضر المقاعد والمنضدة المنخفضة ووجدت أيضا إبريق شاي إنجليزي فيروزي به أذن درهمية وغطاء مستدير كحب البسلة.

كانت الدار كبيرة بالنسبة للمقيمين فيها، كان هناك بلاط أرضي وسقيفة مائلة للمطبخ، وحجرة تغادير، والغرفة التي كنت أبيت فيها مع حورية على وسادات موضوعة على الأرض، وكان هناك أيضا حجرة لعيسى بفراشها ودولابها، مهيئة لليوم الذي يعود فيه دون إخطار. ولقد شيدت تغادير صالة استحمام من ألواح الخشب بجوار المطبخ، حيث يستطيع المرؤ أن يسكب لنفسه الماء عن طريق دلو زنكي ويأخذه في وعاء بلاستيكي حتى يغسل الملاءات والملابس الثقيلة، وكنت أذهب وحورية لنعبأ الدلو من صنبور الماء بالشارع، وكنا دورياً نتراشق بالماء، مُطْلقات صرخات كبيرة، ولم يكن هناك بالدوار حمام عام، كان الناس في فقر مدقع، وكان الماء شحيحاً،

ولكننا بصالة الاستحمام التى شيدتها تغادير والدلو الزنكي، كنا نعيش فى رخاء.

لم تعد تغادير تعمل منذ أن اشتكت من ساقها، فشغلت حورية عملها، إذ كانت تحيك وتكوى الملابس في مصبغة تعمل لصالح الفنادق، وكانت تمضي كل يوم قبل السادسة، ثم تستقل زورق المعبر حتى تذهب للمدينة. كنت أقول لحورية "جدى لى عملاً"، فكانت تهز رأسها وتقول: "ليس هذا بأمر طيب بالنسبة لك، ينبغي عليك أن تقومي بشي آخر، يجب أن تذهبي إلى المدرسة"، وكانت تشترى لى كتب لغة فرنسية وأسبانية وإنجليزية وكراسات، وكانت تغادير تشاطرها الرأى وتقول لى: "يجب ألا تكونين مثلنا، عليك أن تكوني ذات شأن مثل طالبة وطبيبة، وليس خادمة مثلنا". لا أعرف لماذا كانتا تقلن ذلك، كانت هذه هي المرة الأولى التي لم يُراد بى زوجة لأحد الرجال، وكانت هذه هى المرة الأولى، التى لايُرى فىّ خادمة، خادمة من أجل لاشئ، خادمة للطهى لزوجها فحسب. ويمكن أن أقول أن ذلك كان يجعلنى أزرف دمعاً، فلقد كانتا بحق أميراتي الطيبتين، فعانقتهما.

ولكن لم يكن بوسعى أن أبقى بالمنزل وأتعلم، حيث كان هذا الأمر فوق طاقتي. وكنت آخذ كتبي يمسكها مشبك كالأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة، ثم أبحث عن مكان هادئ حتى أطالع فيه بعضها وأنا مطمئنة.

ذات يوم من أيامي الأولى، وعندما كان الوقت شهر تشرين الرائع جداً، مضيت حتى دار المقابر الكبرى أمام البحر، وهناك كان يمكن للمرء أن يرمق الأفق بوضوح، فأنفقت كل فترة الصباح وأنا أقرأ وسط المقابر. كانت عصافير البحر تتموج أمامي ساكنة في تيار الريح، أو كانت السناجب الحمراء تخرج من الأكمة وترمقني في وقاحة، لكنني لم أكن مطمئنة كثيراً منذ ما حدث مع العجوز ابن الكلب، فلقد كنت أخشى أنه – كي ينتقم مني – سيبلغ عني الشرطة، ولهذا بحثت عن مكان آخر، واهتديت إلى مكتبة الحي بجوار متحف الآثار القديمة. كانت مكتبة صغيرة، بها فحسب بعض مناضد كبيرة للقراءة ومقاعد قديمة ثقيلة، وكانت تفتحُ أبوابها كل الأيام عدا يومي الأحد والاثنين وعدا اللحظات التي يأتي فيها طلاب المدارس الثانوية لإجراء واجباتهم المدرسية بعد الخروج من المدرسة، ولذا لم يكن هناك أحد تقريباً. وفي هذه المكتبة، وفي خلال هذه الأشهر، تمكنت من قراءة كل الكتب التي كنت أريد أن أطالعها، دون أي نظام، عندما كان يأخذني الخيال. قرأت كتب في الجغرافيا وفي علم الحيوان، وطالعت بصفة خاصة بعض الروايات، "نانا" و "جريمينال"[2] لـزولا و"مدام بوفاري"[3] و"ثلاث حكايات" لفلوبير

---

(2) نانا وجريمنال من روايات الروائي الفرنسي إميل زولا الواقعية. (المترجم)

(3) رواية فلوبير الشهيرة التي شقت اتجاها في الواقعية أطلق عليه البوفارية Bovarisme. (المترجم)

و"البؤساء" لفيكتور هوجو و"حياة"[4] لموباسان و"الغريب" و"الطاعون"[5] لالبير كامي و"آخر المنصفين" لشوارزبارت و"واجب العنف" ليامبو اولوجم و"طفل الرمل" لطاهر بن جولون و"بيير الصغير صديقي" لكينو و"دائرة مورمبير" لاكسبيريت و"جزيرة الخرساوات" لبخلري و"العشواء" لفنسنو و"مورافاجين" لسندرس، وقرأت أيضا بعض المترجمات، "خانة العم توم"، و"ميلاد جلنا"، و"قال لي صابعي"، و"القديسون الأبرياء" و"الحب

(4) رواية شهيرة لموباسان تنتهج البوفارية، ولقد عُرف موباسان بنزعته البوفارية في الكتابة لتتلمذه على يد جوستاف فلوبير. تدور أحداث الرواية في إحدى الأقاليم الفرنسية، بين مدينة روان النورماندية وأريافها حيث تخرج البطلة جان من الدير وتشرع في ارتياد حياة جديدة، نائية عن حياة التعبد القاسية، وما إن يطيب لها المقام في الريف بصحبة أبويها حتى تتزوج من شاب ماجن تنجب منه طفلاً وما تلبث أن تقع يدها على خيانته لها مع خادمتها وحملها منه سفاحاً. ولم يمض وقت طويل حتى قُتل وعشيقة أخرى له بالقرية، وتمضي الكوارث تحدق بجان، التي فقدت بعد ذلك أمها، والتي كان موتها نقطة اكتشاف لخيانة زوجية عبر الماضي من خلال الخطابات التي عثرت عليها جان في صندوق أمها التي خانت أبيها. ثم مات أبوها ومضى ابنها يجرى دراسته بعيداً عنها في مدينة أخرى، فعاشت وخادمتها حياة بائسة، تشقيها سلسلة الذكريات المحزنة الكئيبة. حاولت عبثا استعادة ابنها. وفي خضم الفقر، أجبرت على بيع قصر أبيها والذهاب للعيش وخادمتها في مكان آخر. حاولت ثانية العثور على ابنها في باريس، وقطعت المسافات ولكنها تُوجت بالفشل عائدة إلى ريفها. وتنتهي الرواية بمعرفتها لمجئ مولود ابنها ورغبة الأخير في إرساله إلى جدته. (المترجم)

(5) روايتان من روايات البير كامي Albert Camus الشهيرة. (المترجم)

الأول" لتورجينوف الذي كنت أحبه كثيراً. في خلال هذه الفترة، كان الجو لايزال ساخناً في الخارج بينما كانت المكتبة مكاناً هادئاً ورطباً، وكان لدي إحساس بأن أحداً لن يأتيها ليبحث عني. وفي المكتبة عرفت رُشدي الذي كان يعمل مدرساً للغة الفرنسية في مدرسة ثانوية؛ وعندما كان الإنهاك من القراءة يبلغ نصيباً مني، كنت أخرج أمام المكتبة وأجلس على حائط قصير في الحديقة الصغيرة المُتربة، وكان يأتي بجواري السيد رُشدي ويشعل سيجارته متحدثاً إليّ. لم يكن يرمي إلى نيل شئ مني، لكنني أظن أنه كان يندهش حينما يراني أطالع الكثير من الكتب، فنصحني آنذاك وقال لي عما يجب أن أقرئه في البداية، كما حدثني عن الكُتاب العظام، عن فولتير وديدرو[6] والمحدثين، وأيضا عن كوليت[7] وشعر رامبو[8] الذي لم أكن أفهمه، مع أنني

---

(6) روائي وفيلسوف فرنسي ولد عام 1713م، ومن أشهر أعماله روايته "جاك القدري ومعلمه" Jacques le fataliste et son maître عام 1796، وله بعض الكتابات الفلسفية مثل "خطاب حول المكفوفين" Lettre sur les aveugles في عام 1749، ويرجع إليه الفضل في تأسيس "الموسوعة" L'Encyclopédie عام 1715 رغم كثافة المشكلات التي تعرض لها آنذاك، وفي ميدان المسرح، حاول تأسيس الدراما البورجوازية وذلك من خلال مسرحيته "الابن الشرعي" Le Fils naturel عام 1757 ومسرحية "أب الأسرة" Le Père de famille عام 1758، وفي مجال النقد الأدبي والفني، له محاولات أهمها "الصالونات". (المترجم)

(7) سيدوني جابرييل كوليت Sidonie Gabrielle colette هي روائية فرنسية ولدت عام 1873 ومن أهم أعمالها الروائية كلودين Claudine والقمح في العشب Le blé en herbe، ورحلت عام 1954. (المترجم)

كنت أراه شعراً رائعاً. كان السيد رُشدى فقيراً، ولكنه كان أنيقاً فى حلته الكستنائية المكوية دوماً، وقميصه الأبيض، ورباط عنقه الأزرق الداكن. كان يدخن بشراهة، وكان شاربه الرمادى يميل إلى اللون الأصفر من أثر التبغ، ومع ذلك فلقد كنت أحب طريقته في مسك السيجارة بين الإبهام والسبابة كما لو أنه يمسك بمسطرة.

عندما كان ضوء النهار ينحدر، كنت أعود للدوار؛ ولما كان زورق المعبر يدلف فى الماء الشاحب لمصب النهر، كانت رأسى جلسها مضببة بالكلمات التى انتهيت من قراءتها، ومن الشخصيات والمغامرات التى عشتها. وكنت أدلف بعد ذلك في شوارع مساكن الإيواء كما لو كنت آتية من عالم آخر. كانت تغادير تعد الحساء والتمر البُكرى الصلب والجاف المشابه للسكر المصفى، وتطهى رغيف خبز مستدير في الفرن المشتعل المغلق بوضع إطار من الصفيح. ويبدو أننى لم أتذوق أفضل من ذلك فى حياتى، ويبدو أننى لم أعش حياة غير مهمومة كتلك، فلقد نسيت مع هذه الحياة زُهرة وما حدث من ذى قبل.

كانت حورية لا تعود إلى الدار إلا فى الليل، مُضنية، وجنتاها محروقتان ببخار النار، وعيناها حمراوان من الحياكة طيلة اليوم؛ وكانت تئن قليلاً ثم تحتسى عدداً من أكواب الشاى وترقد، لكنها لا تنام؛ وكنا نتحدث سوياً فى الظلام مثلما كنا نفعل فى السابق بالفندق، بمعنى أننى كنت أتحدث بمفردى ذلك أننى لم أكن أسمع ما تقوله لى ولا يمكننى أن أقرأ ما على شفتاها.

وكانت تخرج خارج الدار من وقت إلى آخر مساء يوم السبت، فلقد كان هناك من يأتي يسعى إليها، لكنها لم تكن ترغب في أن يعرف أصدقاؤها أين تُقيم، فكانت تنتظر أسفل شجرة سنط هزيلة في مدخل الدوار، وكانت السيارة تحملها في غيم من التراب، يعقبها أطفال يلقون عليها الأحجارَ.

ذات مساء، بينما كانت تغادير منهمكة في خارج الدار، همست حورية في أذني السليمة بما تنوي أن تفعله: عندما ستكون لديها النقود الكافية سوف تستقلُ المركبَ إلى أسبانيا ومنها إلى فرنسا، ثم أبانت لي عن بعض مدخراتها، حزم من الدولارات ملفوفة ومربوطة في ماسك تخفيه في حقيبة أدوات زينة تحت الوسادة، وقالت لي أنه لاينقصها سوى بعض النقود لدفع أجر السفر والمهرب. كانت تتحدث إليّ بصوت منخفض وبحمية كما لو كانت قد شربت خمراً، وأنقبض قلبي حينما رأيت كل هذه النقود، لأن ذلك كان يعني أن حورية سترحل عما قريب.

قالت لي: "ماذا بك؟"، فلقد ضايقتها لأنني قطبت وجهي كما لو كنت على وشك البكاء، فقلت لها: "إذا ما رحلتي، فما مصيري أنا ؟ لا أريد أن أبقى هنا مع تغادير". ضمتني إليها، وحاولت أن تواسيني بكلمات رقيقة، ولكنني أيقنت أنها قررت كل شئ، وقلبها لم يعد معنا.

كانت تبدو واثقة من نفسها من خلال طالعها المتفعم بالدم، ولقد كانت حورية رقيقة جداً، يداها الصغيرتان، ووجهها ذو الجبهة المكتنزة يحتفظ بتعبير الطفولة المرح. قررت أن تفلت من كل شئ، الشوارع المتربة،

وهذا الشارع الذي يزأر من الشاحنات، وأن تفلت من السقف الفيروسماني الذي يجعله المطر يحدث ضوضاء كضوضاء جرف ثلجي، ومن حيث تحرقك الشمس كحرق الحديد الأحمر، وأن تفلت من الحوائط التي تفوح برائحة البول العفنة، ودلو الماء الأسود السام، والأطفال العرايا الذين يلعبون في أكوام القمامة، والفتيات الصغيرات بوجوههن الملوثة من السناج، منحنيات أسفل حمولهن كالنساء الطاعنات في السن، وأن تفلت من كل ما يذكرها بطفولتها: الفقر في الريف حيث حتى ماء الشرب له مذاق الفقر؛ وأرادت أن تفر بصفة خاصة من الحفلات مع سادة المجتمع الراقي بسيارتهم اللموزية السوداء ذات الزجاج المطلي، حيث ينبغي عليها أن تتظاهر بالضحك وأن تكون مرحة وسعيدة، لأن الحزن لايعجب أحداً، وأن تفر إلى الأبد من رسل هذا الرجل المخبول الذي يعتقد أن له كل الحقوق على جسدها ولو حق تعذيبها.

ذات مساء، عادت حورية إلى الدار ثملة، وكانت نظرتها شاردة، مخبولة تقريباً، فأخافتني؛ وفي ضوء مصباح الكيروسين، رأيتها تنقب في وسادتها، وتحصي حزم دولاراتها التي جلبتها من البضاعة المهربة، ثم لاحظتْ أنني غير نائمة وأنني أتفحصها، فاقتربت مني وقالت لي: "لن تحول بيني وبين الرحيل، لا أنت، ولا أي مخلوق"، فنظرت إليها دون أن أقول لها شيئاً، وقالت لي: "سوف أقتلك، سوف أقتلك إذا حاولتي، سوف أقتل نفسي إذا ما اضطررت أن أمكث هنا"؛ قالت لي ذلك ثم وضعت فوق حلقها

المدية الصغيرة التي كانت تحملها بشكل دائم معها حتى تذود عن نفسها ضد القوادات.

بعد ذلك لم تعد تتحدث عن ذلك الأمر، وبدوري أيضا لم أقل لها أي شيء. فقد كنت على يقين من أنـها سترحل وأنـها التقت بمهرب؛ وحينئذ أتتني أنا أيضاً فكرة الرحيل والعبور والذهاب إلى الجانب الآخر مـن البحر، إلى أسبانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو حتى بلجيكا، أو أمريكا أيضاً.

لكنني لم أكن مهيأة للرحيل، إذا ما رحلـت، يجب أن يكـون ذلك للأبد حتى لا أعود. كنت أفكر في هذا الأمر في ليلي ونـهاري، وكنـت أسير في ممرات دوار تبريكة وروحي في مكان آخـر، كنـت أقفـز من فوق الحفـر ومستنقعات الوحـل، وألتـف حـول مجموعـات الأطفـال أو أعبـأ الوعـاء البلاستيكي من الصنبور في نهاية الشارع الرئيسي، ولكنني كنـت أفعل كل ذلك وكأني في حلم.

بدأت أطالع الأطالس الجغرافية كي أعـرف الطرقـات وأسمـاء المدن والموانئ؛ وقمـت بتسجيل اسمـي فـي دروس اللغـة الإنجليزيـة بمعـهد *UDESIS* وفي دروس اللغـة الألمانية بمعـهد جوتـه وبـالطبع كـان الأمـر يستوجب أن أسـدد مصاريف الدراسة وأن أحصـل على التصاريح وأن أقـدم بياناتي الشخصية؛ لكنني ارتديت ثوبـي الأزرق الشـهير ذا الرقبة البيضاء والذي أطلته بشريط قماش ونقلت أزرته، وشددت شـعري الكـث الضـارب إلى الشقرة أسفل عصابة حسنة بيضـاء، وقصصـت على المسؤولين قصتـي: أنني

يتيمة، دون مال، لا أسمع، وأنني على استعداد لأى شئ كى أتعلم، ولكى أسافر ولكي أكون شخصاً ما. كان بوسعي أن أسدد المصروفات عن طريق القيام بأعمال النظافة أو عن طريق كتابة المظروفات أو ترتيب الكتب بالمكتبة أو بالقيام بعمل أى شئ. بهرتُ سكرتيرة قطاع الثقافة الأمريكى، كانت سيدة سوداء البشرة يبدو عليها الثراء، وحينما دخلت عليها فى مكتبها صاحت: "يالهى ! إننى مولعة بشعرك!"، ثم مررت يديها على خصلات شعرى الهائجة التى كانت تدفع العصابة المشبكية فوق رأسى، ثم سجلتنى دون أن تطلب منى أى شئ آخر.

وعند الألمان، كان هناك السيد جورج شون الذى كان يستلطفنى، وكان شابا طويل القامة، نحيف، شعره أشقر ومجعد، وكانت نظرته صهباء جادة وحزينة، وكنت أسليه، فقَبِلَنى على سبيل التجربة فى فصله. كنت أردد أمامه قوائم من الكلمات الألمانية وأقوم بتصريف الكلمات؛ وكنت أقرأ ذلك بصوت واضح جداً كما لو كنت أسمع ما أقول، وكأنه الشِّعرُ؛ وكان السيد شون يقول لى أن لدى ذاكرة لا تُقارن، ربما كان ذلك بسبب أذنى المصابة.

فى المساء، كنت أحمل دروسي إلى منزل تغادير، وأستذكرها على ضوء شمعة، وأنجز واجباتى الدراسية. وذات يوم، أمام كل الفصل، أبان شون عن كراستى، وكانت هناك بقعة كبيرة تتمدد فى أسفل ورقة منها، فقال لى: "ما هذا ؟ هل تناولتى الطعام وأنت تستذكرين؟ "

فضحك التلاميذ، وقلت له: "كلا ياسيدى، إنها بقعة من الشمع".

ولم يبدو على السيد شون أنه قد أدرك ما قلت له، واستطردت: "كل ما في الأمر، أنه ليس في منزلي كهرباء، ولذا فأذاكر دروسي على ضوء الشمعة، هل تريد أن أعيد كتابة كل شئ في كراستي ؟"

نظر إلىّ نظرة حيرة وقال: "كلا، كلا، حسن".

ولكنه فيما بعد، أصبح غريب الأطوار معي إلى حد ما، فكان ينظر إلىّ وكأنه يفكر دوما في أمر هذه البقعة التي كانت على كراستي، ولم أفهم ما كان يضايقه. كان يطلب مني أن أنتظره بعد الدرس ثم يطرح علي تساؤلات حول المكان الذي أعيش فيه، وعن الناس الذين يعيشون معي، ولم أكن أدرك ماذا كان يريد بذلك. خفت أن يخبر عني الشرطة، فلقد كان له نظرة غريبة غامضة، دوما حزينة، وعندما كان يحدثني، كان يشبك يديه ويقلب أصابعه، فكان يذكرني بالسيد دلاهاي، ولكنه كان أكثر منه رقة وحناناً، مع أنه كان له نفس الأسلوب في النظر قليلا من طرف عينه رافعاً جفونه، كان يقول لي أنه سيحصل لي على منحة دراسية كي أذهب إلى ألمانيا في مدينة دوسلدورف[9]، مسقط رأسه، وكان يريد أن أذهب إلى هذه المدينة ثم أبحث عنه هناك، وكان يقول أنه سيكون بإمكاني فعل الكثير هناك بلا شك، وأنني سأكون شهيرة وثرية، وستنشر صورتي الفوتوغرافية في الصحف.

---

(9) Düsseldrof مدينة ألمانية تقع على نهر الراين وتشتهر بالصناعة ولاسيما صناعة السيارات وبها جامعة ومتحف للفنون الجميلة. (المترجم)

كان السيد رُشدى يرقب كل ذلك، ولم أعد أذهب كثيراً إلى المكتبة بسبب دروس اللغة الألمانية والإنجليزية، ولكنني عندما كنت أذهب، كنت أراه هناك، كنت أجده يطالع كتباً في الفلسفة في نهاية قاعة المكتبة؛ وبعد مرور لحظة، كان يخرج إلى خارج المكتبة ليدخن سيجارته، فكنت ألحق به في الحديقة الصغيرة. عندما حدثته عن أمر شون، هز كتفيه وقال: "إنه عاشق لكِ، هذا كل ما في الأمر"، ونظر إلى نظرة قاسية قليلاً وقال: "وأنتِ يا آنستي ؟ هل تحبينه؟ "، فأضحكني سؤاله لى، ثم ختم حديثه قائلاً: "أنتِ التي تقرر، إنكِ شابة وأمامك الحياة "، ثم أشار عليَّ بقراءة "ضمير زنو" للكاتب إيتالو سفو[10]، وقال لى على سبيل اللغز: "من لم يطالع هذا الكتاب، فكأنه لم يطالع شيئاً ! ". وبعد ذلك الموقف، كان يحدثني بلا مبالاة، كان يلقي عليَّ شعر الشهادى وأدونيس. وحتى أضايقه، قلت له ذات يوم: "أعتقد أنني سوف أتزوج من السيد شون"، وحينئذ بدا عليه الغم فجأة، ثم قال لى: "لا أشير عليك به"، وكان ذلك بمثابة فخر بنفسي، فلقد كنت أعلم أن السيد رُشدى عاشقٌ لى، وكنت أمزح برؤية وجهه يتبدل عندما كنت أحدثه عن أمر زواجي.

---

(10) كاتب إيطالى عاش بين 1861 و1928، من أهم أعماله الأدبية: ضمير زنو 1923 و"العجوز الطيب" و"الطفلة الجميلة" وهي أعمال نُشرت بعد موته في عام 1929. (المترجم)

استمرت حياتي الدراسية هذه ستة أشهر كاملة حتى فصل الربيع؛ ثم قررت ألا أذهب إلى المعهد الألماني، فلقد كانت هناك صعوبات أواجهها في الدار: كانت تغادير تتشاجر طول الوقت مع حورية، واتهمتها أنها تبتزهـا وأنها لا تعطيها النقود وأنها تسطو عليها أيضاً، فكانت حورية تغضب حينئذ وتلقيها بشتائم غليظة، ثم تخرج ضاربة الباب. كانت تختفي ليالي بأكملها، وكنت أظل غير نائمة أترقبها كما لو كنت سأسمع وقع أقدامها في الزقاق.

ثم كان هناك ما حدث بعد ظهيرة يوم ما في قاعة الفصل: ظللت كالعادة بعد الدرس عندما كانت السماء تمطر، أسترجع دروس التصريفات النحوية، وكان السيد شون واقفاً خلفي، فوضع يده فوق كتفي، وكنت أرتدي ثوباً أسوداً أعارته إياي حورية وكان يكشف عن ظهري قليلاً، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرتدي فيها هذا الثوب لأننا كنا في فصل الربيع، وكان لدي الكثير من الثياب المسردة والمعاطف. وفجأة تقدم السيد شون نحوي وقَبّلني في عنقي بخفة شديدة، وتم ذلك بسرعة شديدة إلى حد أنه لم يكن لدي الوقت كي ألحظ ذلك جيداً. على الأرجح، كان هذا الأمر بمثابة ذبابة توقفت فوقيّ ثم رحلت، ولكنني عندما نظرت إلى السيد شون خلفي، كان كله خجل، فكان يزفر كما لو كان قد فرغ من الجري؛ أما أنا، فقد تصرفت وكأن شيئاً لم يحدث، رأيت أن ذلك من الهزْل، وأن السيد شون غريب الأطوار على الأرجح: رجل حزين جداً وبارد جداً يتصرف فجأة كالصبية الصغار. تتهقر،

وجهه كله شاحب، كان حزيناً للغاية، وكان ينظر إلىَّ من بعيد من بين شجر السوسن الرمادى كما لو كنت شيطاناً. لا أعلم ما هَمْهَمَ به، فلم أسمع كلماته ولكنني أدركت أنه ينبغى علىَّ أن أنطلق بسرعة، فلقد كان ما حدث أمر لا يُصدق: هذا الرجل العظيم، ذو الشأن، أستاذ اللغة الألمانية فى جامعة ديسدورف ترك نفسه يُقَبِلُ جيد فتاة صغيرة شديدة السواد من دوار تبريكة. حينئذ، جمعت كراسى وكتبى وفررت تحت رزاز المطر الذى كان يقرع ظهرى من خلال ثوبى المكشوف والذى كان له عظيم الأثر على السيد شون.

وبعد ذلك ببضعة أيام، التقيت مصادفة عندما كنت أتنزه فى بورت دى فان [11] بالين بوسوترو – والتى كانت تدرس الألمانية معى – فقالت لى أن السيد شون يأسف كثيراً على انقطاعى عن دروس اللغة الألمانية، وأنه يتمنى أن أعود إليها، لأننى على قائمة الطلاب الذين سيعاونهم فى الحصول على منحة دراسية فى ألمانيا. لم أعرف لماذا قصت علىَّ كل ذلك، ربما خرجت ذات مرة مع السيد شون فمنحها ثقته، ولكنها كانت تبدو لى طيبة وساذجة، ولا أعتقد أنه قد قص عليها ما فعله معى.

قلت لها: "نعم، بالتأكيد، أننى سوف أعود فى أقرب وقت ممكن، ولكننى فى هذا الوقت مشغولة للغاية". أردت أن أتخلص منها، ونظرت فى كل الاتجاهات من حولى وقلت لنفسى لو ظللت فى وضعى هذا، فسوف يأتى

---

(11) اسم مكان. (المترجم)

عسكر زُهرة كي يقبضوا عليّ. قرأت الين شيٌ ما فـي نظرتـي لهـا ، شيئا من الحذر، من الخوف، فمالت إلىّ وقـالت: "ليلـي، الديك مشكلات؟". كـانت ابنـة لأحـد كبار التجار الفرنسيين والذى كان يحتكر تجارة الدراجـات الصينية في أفريقيا، هل بوسعها أن تدرك شيئا عن حيـاتي ؟ كنـت أخشى، بصفة خاصة ، أن يراني أحد بجانب هذه الفتاة الشقراء جـداً والأنيقـة جـداً، فقلت لها: "كلا، كلا ، كل شئ يمضي على ما يرام"، ثـم انصرفـت وتواريـت وسط الزحام، ودرت دورة كبيرة للوصول إلى العَبَّارَة المائية.

بعد هذه الحادثة، توقفت عن عبور النهر، أحسست أنني في مـأمن على هذا الجانب الآخر من النهر، وتوقفت عن كل الدروس، وقاطعت مكتبـة المتحف والسيد رُشدى. وعلى مدار عدة أسابيع، لم أجسـر علـى الخروج من دوار تبريكـة، فبقيـت فـي مـنزل تغـادير، فـي الفنـاء، تحـت الأفريـز البلاستيكي ، أنصت للجج المطر على الفيروسمـان وأنظـر للأمطـار وهـى تمـلأ الدفاف.

كانت هذه الفترة طويلة ومُحزنسة، كـانت حوريـة تنتظـر مولـوداً، ولهذا السبب، كانت في شجار دائم مع تغادير، ولم أكن أسـأل عن السبب، ولكنني أعتقد أنه بسبب صديق حورية الـذى كـان يـأتي إليـها فـي سيارته. وفجأة اشتدت حالة تغادير سوءاً، فلقد أصبح الألم الموجـود فـي ثنيـة قدمـها يحدق بها ليلاً ونهاراً في هذه الفترة، وأصبحت غددها جافة سوداء فـي لـون الزيتون، وكانت ساقها رمادية اللون ومنتفخـة، ولم تعـد تشعر بـها كمـا لـو

كانت هذه الساق مصنوعة من خشب. كانت تمضي يومها جالسة في مقعدها تنظر إلى ساقها، تلعن العنكبوت الذي لدغها، وتتهم أيضا الفتيات الأخريات، سليمة وفاطمة وعائشة بسبب تشاجرهن المستمر، وتقول أنهن جنيات وساحرات، وكانت تكرر نفس الكلمة التي كانت ترددها زُهرة في الماضي: سَحَرةٌ، وكانت تَسُبُ وتَدّعي أنهن وضعن شوكة في حذائها، فاعتقدت آنذاك أنها سوف تتهمني أنا أيضاً إن أجلاً أو عاجلاً.

وللمرة الأولى أصبحت لدى رغبة في الرحيل بعيداً، الرحيل للبحث عن أمي وعشيرتي في بلد الهلال خلف الجبال؛ ولكنني لم أكن مهيأة لهذا الأمر؛ ربما لم يعد لذلك المكان وجود وأنني فكرت فيه حين النظر إلى قرطي.

ذات ليلة، التصقت بجسد حورية وأسندت أذني إلى بطنها كما لو كنت سأنصت إلى جنينها وهو يتحرك، وسألتها: "متى سنرحل؟"، فلم تجب، ولكنني عن طريق تحسسي لها بيدى أدركت أنها تبكي أو كانت تضحك في صمت؛ ثم همست لي في أذني: "عما قريب، عندما يكون هناك مقعدين في الزورق المتجه إلى ملاجا ".

الآن نحن متآمرتين؛ فبعد ظهيرة يوم ما، وبينما كانت تغادير تستريح في غرفتها، وبدلاً من أن تقوم بالمهام المنزلية، كنا نحيك مؤامرات، فكانت حورية تذكر لي المدن التي سنذهب إليها والناس الذين سنراهم، أما أنا فلم أكن أعرف سوى أسماء الكتاب أو المطربين، فذكرت لها أسماء جوزيه كابيني وكلود سيمون وأيضا سرج جنسبور بسبب أغنيته إليزا، فقالت لي:

"إذا شئت فسوف نراهم أيضا"، كانت تظن أنـهم إنـاس مثلـها ومثلـي، بحـر يمكننا أن نراهم.

خرجت تغادير من غرفتـها تعـرج، فسبتنا، فلقد أدركت أننـا سنرحل، وصاحت: "اذهبن إلى حيث تـردن، إلى فرنسا، إلى أمريكـا، إلى الشياطين إن أردتن ولكن لاتعودن إلى هنا".

وعن طريق مدخراتي، تمكنت من شراء مذياعٍ من سوق البضـائع المهربة الواقع بقرب النهر؛ كان مذياعاً صغير الحجم، أسود اللون، كـان فـي الماضي بحوزة دَهان على الأرجح، ذلك أنه كان ملطخاً بالدهان الأبيض. وفـي المساء، كنت أستمع منه إلى جيمي هاندركس بإذاعة تانجييه؛ وكان هناك في نهاية بعد كل ظهيرة برنامج لديجاما، وكنت أعشق صوتها الشاب، الرطب، الساخر قليلاً. كان يبدو لي أنها صديقتي وأنها تشاركني حياتي. كنت أقـول: "كنت أود أن أكون مثلها". كنت أدون دوماً كل أسماء المطربين الذيـن تقدمـهم في بطاقة، وأحاول أن أكتب كل كلمات الأغنيات الإنجليزية "فوكس لايدى". كان عجيباً فصل الربيع هذا، ربيعي الأفريقي الأخير: ففيه كان المطر يتساقط على الإفريز البلاستيكي في الفناء ويفيض عن الأروقة الأسـطوانية الصغـيرة؛ وفيه كان صـوت دجاما يقرع أذني وموسيقى المذياع ونسـنا سيمون وبول مكارتني وسيمون وكارفونكل وكات ستفنز الذى كان يغني "الزوارق الطوال"، فكان كل ذلك بمثابة انتظار طويل؛ وفيـه كـانت حوريـة تنتظر أيضاً وهـي تتمدد على الوسادات ويدها فوق بطنها، وكانت تمشـي مترنحـة كالبطة مـع

أنها كانت بالكاد في شهرها الأول من الحمل، وفيه كان دوار تبريكة حولنا – والذى كان يبدو شاسعا بلا نهاية – ينتظر شيئاً ما، شيئاً لن يحدث مطلقا؛ وفيه كان الأطفال رثو الثياب يتشردون فى المستنقع، وفيه كانت أصوات النساء الصائحات، وفيه كان النداء إلى الصلاة فى المساء ينطلق أمام النهر فيختلط بأصوات طيور النورس لحظة عودتها من الصيد، وفيه كان خلفنا – فى الليل المترب – الطريق الذى تتقدم فيه الشاحنات التى تشبه حشرات مؤذية.

وذات مساء، كانت تفادير في أسوأ حالاتها الصحية، فأرسلتنى حورية كي أهتف إلى ابنها، فلقد كنت أتحدث الألمانية. وعندما عدت إلى الدار، كانت تفادير قد رحلت إلى المستشفى حيث ستُبتر ساقها، وتم كل شئ على عجل. وفي اليوم التالى، بعد الظهيرة، هيئنا أنفسنا للسفر. كان من المفترض أن تنقلنا شاحنة إلى ميلالة وفى ذات الليل يبحر بنا المهرب فى زورق مالاجا.

أحصينا النقود في تونس، واحتفظت حورية بما ينبغى أن يُسدد للمهرب وأعطتنى المبلغ المتبقى، حزمة من ألفي دولار مربوطة بمشبك كبير؛ وعندما هممت أضع الحزمة في جيبي، قالت لى حورية: " لاتضعيها فى هذا المكان، سيُسلب منك كل النقود"، وأخذت أحد رافعي نهدى وضيقتها "محيكة حمالاتها، حاشية جيبوها بالحزم النقدية المحاطة بالمناديل، ثم ألبستنى رافعة النهدين، وقالت: "الآن يبدو عليك أنك امرأة حقيقية، وسيتهافت عليك كل الرجال "، فانتابنى إحساس أننى أحمل حقيبتين ثقيلتين على

صدري، وكانت والحمالات تنشر كتفي، فقلت لحورية: "لن أستطع أبداً، إن ذلك يؤلمني، سوف آخذ نقودي". غضبت حورية وقالت: "توقفي عن التباكي، يجب أن تعتادي ذلك، أنت التي ستحمل النقود، ليس هناك من وسيلة أخرى".

قلت: "ربما يجب أن نمضي نعود تغاديرفي المستشفى؟"، وعندما كنت أفكر في أمرها كان ينتابني الندم، وكنت على استعداد لإلغاء فكرة رحيلي، ولكن حورية كانت لها نظرة قاسية ومحددة، وكان تعبيرها مطابق لتعبيرها يوم أن وضعت المدية فوق حلقها، وقالت: "كلا سنبلغها أن تتبعنا متى اتخذنا موقعاً".

ترقبنا الشاحنة الصغيرة في نهاية الطريق حتى الليل، وكان التراب يغطينا فكان يبدو علينا أننا متسولتان.

وفي لحظة ما، مرت أمامنا الشاحنة، وقللت سرعتها، ثم توقفت بعيداً عنا إلى حد ما، وانطفأت كل الأضواء، فكنت خائفة، ولكن حورية جذبتني بحبل؛ وهبط السائق، ثم قال لحورية وهو يدفعني إليها: "هل بلَغَتْ سنَ الرشد؟" فردت عليه حورية قائلة: "أرأيت صدرها ؟ أم أنك كفيف البصر؟"؛ أعتقد أنه كان مندهشا خاصة من لون بشرتي، ربما ظن أنني من السودان أو السنغال. وضعتني حورية إلى مؤخرة الشاحنة الصغيرة، ثم صعدت بدورها. ولم تكن لدينا حقائب، فلقد كان ذلك اتفاق بيننا، وكان معنا فقط حقيبة صغيرة بيد كل منا، بها قليل من الملابس ومذياعي الشهير.

وبما أن السائق لم يدر محرك السيارة على الفور، قالت له: "ماذا تنتظر أيها الغبي ؟" فتذمر السائق شطراً بالأسبانية وشطراً بالعربية. قالت لي حورية: "هم كذلك في ميلانا".

وصلنا إلى الميناء حوالي الرابعة صباحاً؛ وفي لحظة عبور الجمارك، قرع السائق مربع الزجاج الخلفي وأشار لنا أن نرقد. كانت الشاحنة مليئة بكراتين الملابس التي كُتب عليها بلانكو، فكان ذلك الأمر مضحكا لأنني وحورية كنا سمراوات البشرة[12].

مرت الشاحنة الصغيرة ببطء من أمام مكتب الجمارك، ومن خلال الزجاج الخلفي رأيت المصابيح التي تعطي ضوءاً أصفر اللون تتباعد عنا، ثم أصبح كل شئ أسودا بعد ذلك، فنهضت حتى أرى شيئاً: فرأيت أنها مدينة حديثة وقبيحة، بها مباني شاهقة معمدة، وكانت السماء تمطر.

على الرصيف، كان هناك الكثير من الناس ينتظرون الزورق، رجال بصفة خاصة وأيضا بعض النساء اللواتي كن يتدثرن بمعاطفهن، وكان الهواء بارداً، ولم يكن هناك ثمة أطفال.

أما أنا وحورية فقد كنا جالستين متكئتين إلى حوائط المرفأ نحتمي من رذاذ المطر. نامت حورية واضعة رأسها فوق كتفي؛ منذ زمن بعيد وهي

(12) الأمر مضحك لأنه لم يكن هناك تطابقا بين ما كُتب على الكراتين "بلانكو" أي اللون الأبيض ولون بشرة البطلتين. (المترجم)

تنتظر هذه اللحظة، ثم بغتة لم تتمكن من مقاومة الإضناء. حاولت أن أشعل مذياعي ولكن في هذه الساعة لم تعد تتحدث ديجاما، ولم تكن هناك بالإذاعات سوى فرقعات كانت تجعلني أقفز وكأنها حشرات أتت من آخر العالم.

قبل الفجر بقليل، أرتكن قارب إلى الشاطئ، وكان عبارة عن زورق ضخم لونه أبيض له معبر مغطى بساتر؛ وشرع الناس في الصعود، وكانوا يهرولون لكي يحصلون على مقعد في حجرة القبطان، وكنا آخر الصاعدين، فجلسنا فوق جسر القارب أمام حائط الدرابزين.

كان المهرب يمر بيننا دون أن يقول شئ، ويبسط يديه، وكان كل واحد يضع له ما تبقى عليه من نقود؛ وكان يلتهم الأوراق النقدية على عجل، ويردد من آن إلى آخر بصوته الأخن: مضبوط، مضبوط. لم يكن هناك من يريد أن يتحدث، فكان الجميع ينصت لاهتزاز محرك الزورق بانتظار اللحظة التى يرتفع فيها للرحيل.

وفي خلال بضعة دقائق، كان كل شئ معداً، فالقى القبطان القلس وتدحرج الزورق ببطئ نحو الممر المائي راقصاً فوق تموج الماء، وهكذا رحلنا. مضينا ولم نكن نعلم إلى أين نمضي، ولم نكن نعلم متى سنعود؛ كل ما كنا نعرفه ولي، فكرت في منزل الملاح الصغير جداً، الواقع وسط كومة المنازل على شاطئ النهر النأي جداً حيث ينبثق النهار فوقه، وفكرت في دوار تبريكة، والنساء اللواتي كانت تتطوين أمام صنبور الماء البارد. ربما ستموت هناك على الجانب الآخر من البحر، وهنالك لن يعرف أحد عن ذلك شيئاً.

باريس

كيف أمضينا بقية سفرنا حتى باريس، ذلك ما لا أعرف أن أقصه عليكم، فأنا التي لم تخرج تقريباً من مكانها، والتي أمضت كل طفولتها في فناء لالا أسماء، والتي كان أبعد مكان ذهبت إليه بعد ذلك هو نهاية شارع كبير في حي المحيط، والتي استقلت قاربا حتى سالى[1] ودوار تبريكة، ها أنا أستقل زورقاً كبيراً وسريعاً، وأعبر أسبانيا في عربة حتى فال دى ارن[2] – وهو اسم لن أنساه مطلقاً – ثم أسير على قدمي في الجبل المغطى بالثلج مادة يدى إلى حورية التي كانت تلهث.

---

(1) ضاحية في الرباط اشتهرت بالتجارة منذ العصور الوسطى. (المترجم)

(2) Valle de Aran وادى أسباني يقع في جبال البيرينيه. (المترجم)

كنا نسير دون أن نعلم إلى أين نمضي، مترنحات على الطريق عبر الجبل بصحبة أناس آخرين لا نعرف حتى أسمائهم، فكل إنسان كان يتأمل في شأنه. كان المرشد صبياً صغيراً يرتدي الجينز وحذاءً رياضياً، وبشرته أكثر سواداً ممن يقتادهم. وبالرغم من التعليمات التي تلقيناها، كان بعض الناس يحملون أمتعة وحقائب أو حقيبة سفر بحمالة.

تجاوزنا الممر الجبلي مع هبوط الليل، وكان قاع السفح مفروشاً بالضباب اللبني، الذي كان بمثابة ركامة دخان دون نار. همست إلى حورية: "انظري ! ها هي فرنسا، إنه لمنظر بديع..! ". بدت حورية شاحبة اللون للغاية، فلقد أنتابها ألم في بطنها، فجاء الصبي ونظر إليها وقال لي بالأسبانية: "هل تنتظر مولوداً لها؟ "، فقلت له: "لا أعرف، إنها متعبة"، فهز كتفيه. وتركت حورية الآخرين يسيرون بمفردهم، فرأيتهم كالقطيع الصغير يهبط إلى تعرج الطريق، كانوا لايتحدثون، ولايحدثون أية ضوضاء. كان الوادي الرحب والنهر الذي يكونه الضباب يجعل المنظر بديعاً، حتى أنني فكرت في أننا لو متنا هناك، لن يكن لذلك أهمية لأننا سنكون هنا في أعلى الجبل وسنرى هذا الوادي الشاسع الذي يشبه البوابة.

لا أدري لماذا فكرت – للمرة الأولى – في بلدتي كما لو كانت تقع هنا في هذا الوادي الذي لم أمض بعيداً فيه والذي أتركه يتوارى رويداً رويداً خلفي. ظللت في مؤخرة السائرين وأبطأت من سيري، إذ سحرتني عذوبة

منظر الضباب والليل الذى كان يقترب مجيئه، فتعجلتنى حورية وقالت: "هيا سنضل طريقنا".

في أسفل الجبل، كانت المجموعة تنتظر في طرف غابة صغيرة، كنا ننصت لصوت سيل أخفاه الليل عنا، وعندما وصلت إلى المجموعة، توجه إليّ الأسباني كما لو كان يرقب قدومي كي أقوم بالترجمة للآخرين، ثم قال: "سننام في هذا المكان، ينبغي عليكم ألا تحدثوا صوتاً وألا تشعلون النار ولا السجائر، متفقون؟ "، فكررتُ ما قاله بالعربية، ثم أضاف: "غدا تنقلكم شاحنة إلى مدينة تولوز[3]، حيث القطار"، ثم مضى دون أن ينتظر إجابة منا، فوجدنا أنفسنا فرادى في الغابة.

أتذكر هذا الليل، فبعد حرارة النهار التى لمسناها عندما ارتقينا الجبل، هبط برد قارس ومبلل تخلل كل أجسادنا حتى العظام، وحاولت أنا وحورية أن ننام بين جذور شجر التنوب المجتثة، ولكن البرد الصاعد من الأرض كان يقرقع أسناني، ولم يكن لدينا أى شئ، حتى الغطاء. وفي لحظة، جلسنا الواحدة في واجهة الأخرى حتى لا نشعر ببرد الأرض، وحتى لا ننام، كنا نتقاص حكايات، أى شئ مما كان يحدث في الفندق أو عن الخنازير البرية أو عن الوشايات، وكنا نخترع حكايات. لا أتمكن من تذكر ما كنا نقوله، أتذكر فحسب أننا كنا نتحادث الواحدة تلو الأخرى هامسات

(3) مدينة فرنسية في الجنوب على مقربة من أسبانيا. (المترجم)

ضاحكات، وأحيانا كنا ننسى ونرفع من صوتنا، فكان الآخرون ينهضون قائلين: "سكوت ! سكوت ! ".

كان الآخرون لاينامون أيضا، ومن خلال الضوء الخافت للسماء المليئة بالنجوم، لاحظت أنهم قد نهضوا وأرتكنوا إلى الأشجار؛ ومن آن إلى آخر، كنا نسمع وقع أقدام في جذوع أشجار الصنوبر وشخص ما يجلس القرفصاء ليبول.

تمكنا من أن ننام في الشاحنة الصغيرة التي كانت تحملنا إلى مدينة تولوز. فمع مطلع النهار، كانت الشاحنة تقف على الطريق في طرف الغابة، حيث جعلنا الأسباني نصعد بسرعة فائقة، ثم مضى ناحية الجبل دون نظرة أو حتى إشارة وداع. في الشاحنة الصغيرة نمت على كتف الشاب الجزائري هابيل، كنت متعبة للغاية وكان الطريق يدور ويدور؛ ومن بين فتحة غطاء السيارة، شاهدت للحظة أشجار التنوب الشاهقة السوداء، وشوارع القرى، ومعبر؛ ثم كانت محطة قطار تولوز، البهو الكبير بسقفه العالي، الأرصفة حيث كان الناس ينتظرون القطار المسافر إلى باريس. أعطانا السائق بطاقات السفر والتعليمات التالية: لا تبقوا معاً، أذهبوا كل منكم في جانب، لا تسعوا بعضكم على البعض الآخر. أخذتُ حوريسة من يدها واقتدتها حتى نهاية الرصيف حيث كان الزجاج ينتهي إلى هذا الحد ويسمح بمرور الشمس، وحينما رأيت السماء الزرقاء شعرت بالراحة. تناولنا ما تبقى لدينا من خبز تفادير مع التمر ونحن جالستين فوق مقعد. عبثاً بذلنا ما في وسعنا حتى لانلفت انتباه الآخرين، وكان الناس ينظرون إلينا؛ ويمكن أن أقول أنه على

الأرجح كان لايبدو علينا أننا ككل الناس،فحورية في ثوبها الطويل الأزرق ووشاحها الأبيض وأنا ببشرتي السوداء وشعري المتهدل من النوم، كنا متشردتين بحق.

جاء طفلٌ وتسمر أمامنا حتى يتفحص جيداً وجوهنا، وكان يبدو عليه سوء الخلق، فنكست حورية رأسها، أما أنا فلم أغضب، وقلت له "ماذا تريد؟"، وبما أنه لم ينصرف، تظاهرت بأنني أتقدم نحوه فولىً. على الرصيف، كان هناك إناس يبدون غرباء مثلنا، من رجال ونساء بشرتهم سوداء، وشعرهم حالك السواد كالسبج، وكانت ثيابهم غير مهندمة، وكانوا يتحدثون لغة غريبة بها بعض الكلمات الأسبانية. همست إلىْ حورية: "هؤلاء هم البوهيميون، إنهم يسافرون دوماً، فليس لهم من ديار"؛ لم أراهم مطلقاً من ذي قبل، كانت هيئتهم بائسة، ويشوب نظراتهم شئ من الفخر. دقق أحدهم النظر فيّ، وكان شاباً طالعه حاد، ونظر إلىّ نظرة كما لو كان لا يستطيع عنها فكاكاً؛ وللمرة الأولى منذ وقت طويل، دق قلبي من الخوف، من الرعب أو شئٍ من هذا القبيل، فجذبتني حورية من ذراعي وقالت لي: "لا ينبغي أن تنظري إليه، سيضايقنا". اقترب البوهيمي منا وقال: "من أي البلاد أنتم ؟ هل ستسافرون إلى باريس"، كانت أسنانه البيضاء تتلألأ في وجهه الأسود، وكان يقف متواركاً كداعر، فاقتادتني حورية إلى الطرف الآخر من الرصيف، ثم استطردت: "إنك معتوهة، إنه مؤذ ". ثم وصل القطار واحتجزنا زحام الناس حول أبواب القطار، وعثرنا على مقعد في عربة خالية

وأخذ القطار طريقه ببطئ تاركاً المحطة، ورأيت المنازل تتقاطر إلى الخلف، ففكرت في كل ما تركته، الشوارع الضوضائية، منازل تبريكة المتكدسة، أو فناء بيت لالا أسماء، أو أيضا الفندق بتجاره الذين كانوا يشغلون الحجرات في السابق، والأروقة المقنطرة بحزم بضاعتهم وحقائبهم المليئة بالفاكهة الجافة. فكرت في أنني ربما أعود يوما ما، ولن يبقى لي شيئاً من ذكرياتي ولا أي إنسان أعرفه. كان قلبي مشدوداً، وكانت لدي رغبة في البكاء وأنا أفكر في تفاديرفي غرفتها بالمستشفى وساقها المبتورة، ويبدو لي أنني حينما رحلت فقدت آخر شخص لي في عائلتي. نامت حورية أمامي على المقعد متوسدة حقيبتها، وكان ضوء الشمس يضئ للحظات وجهها وعينيها المغلقتين ذي الأهداب الطويلة جداً وفمها حيث تبرق قواطع أسنانها البيضاء.

ذهبت إلى الممر كي أشعل سيجارة، فلقد شرعت في التدخين في الزورق ذلك أن السجائر الأمريكية كانت تُباع دون ضرائب في ميلالا، وكنت أحب أن أدخن في الخارج وأنا أنظر إلى الدخان يتراقص في الريح، وكنت في خجل من أن تراني حورية وتقول لي: "أتشعلين السجائر الآن؟".

كان القطار طويلاً، لم يكن يحمل الكثير من الركاب، وشرعت في التنقل من عربة إلى أخرى مارة بين العربات، وفجأة رأيت البوهيمي، وكان من المفترض أن يتتبعني لأنه كان بمفرده في نهاية الممر، تصرفت كما لو أنني لا أعرفه، وأردت أن أعود إلى العربة التي بها مقعدي، فأغلق الممر أمامي؛ كان فارعاً، وبشرته داكنة، وكانت حواجبه الحالكة السواد تتراص

في وسط جبينه. أبتسم لي، وأعتقدُ أنه قال لي: "ما اسمك؟ ". كانت له لكنة فرنسية غريبة كلكنة رجل من جنوب أمريكا، وقال لي أيضا: "هل تخافين مني؟ "، ولما كنت لا أحب المزهوين بأنفسهم، قلت له: "ولما أخاف منك، إذا سمحت لي ؟". وفي ذات الوقت مررت هكذا من أسفل ذراعه خافضة نفسي إلى أسفل كالطفلة، فسار خلفي. ولم أرد أن يعرف أين تجلس حورية، فتوقفت في الممر بجوار المرحاض وأشعلت سيجارة أخرى. ظل البوهيمي بجواري، وكان ينظر من نافذة باب القطار. كاد اهتزاز القطار أن يلقينا على الأرض، وكانت الضوضاء التي تنبعث من الريح مُصمِةً، وقال لي وهو شبه صائح: " اسمي بنيكو، وأنتِ؟ "؛ دفعت الريح شعره، وكانت له خصلة شعر تخفي جبهته، وفي ومضة، أدركت أنه يضع سِنّة من الذهب في فكه وحَلَق ذهبي صغير في أذنه، ولا يبدو عليه أنه مؤذ. قلت له اسماً وهمياً، أعتقد أنه "ديزي" وأخذنا نتحادث معاً قليلاً. فقد كنا في نفس القطار، كنا في طريقنا إلى باريس، ولكي نقتل الوقت، كان من المناسب أيضا أن ننظر من النافذة أو نطالع مجلة. ولم يكن النعاس ينتابني، بل على النقيض، أحسست بنفسي غير متعجلة، مليئة بالحيوية. أما هو، فقد كان يتحدث عن الموسيقى لأنها كانت مهنته، كان يعزف ويغني؛ وفي لحظة ما قال لي: " انتظريني"، ثم دلف إلى مقدمة القطار وعاد بآلة جيتار، ثم وضع أحد قدميه على حافة الباب وشرع في العزف؛ كان يعزف موسيقى غريبة تشبه دحرجة ممتزجة بضوضاء القطار، ثم مدونات موسيقية تتفجر وتتحدث بسرعة. لم أستمع

البتة إلى مثل تلك الموسيقى من ذى قبل، حتى ولو على موجات مذياعي القديم. كان يعزف ويتحدث في ذات الوقت، أو بالأحرى كان يتمتم بكلمات من لغته أو بهمهمات مثل: هوم، أهم، هم، شئ كهذا؛ ثم توقف وقال: "هل هذا يعجبك؟ هل تحبين موسيقاى؟ "؛ وكان هناك من الناس من قوم ليرى العزف، كما كان هناك أطفال يخرجون من الطرف الآخر للعربة ليشاهدوا المنظر، وجاء أيضا مفتش قطار يرتدى حلة زرقاء داكنة وقبعة، وتوقف لحظة ثم مضى. توقف البوئيكو لحظة وقال على عجل: "أترين؟ عندما أعزف لايسألونني عن بطاقة سفرى "، كما لو أنه أحضر لي جيتاره لهذا الغرض. أما أنا فقد انتابتني رغبة في الرقص، وتذكرت عندما كنت أرقص للأميرات بالفندق في الأيام الماضية، وأقدامي عارية على البلاط البارد في الغرف، بينما كانت الأميرات تغنين وتصفقن. ولقد كانت موسيقى البوهيمي هكذا، كانت تتخللني وتعطيني قوى جديدة.

جاءت حورية، وكما يمكن لك أن تعتقد، لم تكن سعيدة وهي تراني في هذه الصحبة، فقالت لي بالعربية وهي تكشر عن أنيابها: "هيا لا ينبغي أن تبقي مع هذا الرجل". كانت قد خرجت من العربة تحمل حقائبنا ومذياعي خوفاً من أن يتم سرقتهم؛ وفي قميصها الصوفي الكستنائي وثوبها الطويل الأزرق والذى يجعلها تبدو كالحبلي بحق، كانت تبدو بائسة تثيرُ الشفقة في نفسي، فلقد كانت حورية في الواقع هي أسرتي الوحيدة وأخت لي. جذبتني من يدى ونظر إلينا البوهيمي ونحن نمضي وراح يضحك. كنت

أبغضه لازدرائه لي ولحورية، فلقد كان فخوراً بنفسه جداً. ولم تكن حورية تخشى عليّ من أن أضل طريقي، فلقد استيقظت فوجدت نفسها بمفردها في العربة، وكان ذلك الأمر بالنسبة لها شيئاً مرعباً. ضممتها إليّ على المقعد حتى أهدأ من روعها، وقلت لها: " أتعلمين ؟ إنك في فرنسا، والآن أنت لا تخاطرى بشئ، فما من أحد يستطيع أن يعثر عليك ". كنا في موقف واحد: هي يبحث عنها زوجها، وأنا تبحث عني كُنة سيدتي. وكانت كل خطوة لعربة القطار على شريط الطريق الحديدى تبعدنا عن جلاديـنـا، وتبعدنا عن البحر الذى يفصلنا عنهم.

كنت أغط في النوم حينما توقف القطار في باريس، أما حورية فكانت مستيقظة آن ذاك، وقالت لي في لطف: "استيقظى يا ليلى، ها نحن قد وصلنا". كان الوقت ليلاً، كنت أشاهد عبر الزجاج أضواءً تتراقص بينما كان القطار يهتز وهو يحدث صريراً على ملتقى الطرقات؛ وكانت السماء تمطر، فنظرت بإمعان إلى القطرات التي كانت تتساقط على الزجاج دون أن أبدى أى رد فعل؛ كنت على الأرجح متعبة إلى حد أن حورية خافت وغضبت قائلة: "ما بك ؟ استيقظي، يجب علينا أن نهبط من القطار ". لم أستطع تصديق أن كل شئ تم، وأن ذلك كان بمثابة نقطة النهاية في سفرنا؛ وبالرغم من إنهاكي، وددت لو أعطي أى شئ حتى يمضى القطار أبعد من ذلك، وحتى أتمكن من أن أنام في هدوء. هكذا كنا في باريس، فأدلفنا تحت المطر متقلصات أسفل مطرية حورية المنثنية، ومعنا حقائبنا وسلة برتقال والمذياع

الشهير رياليستيك. وعلى طول الرصيف، حول محطة القطار، بحثاً عن مسكن نمضي فيه الليل، في شارع جان بوتون حيث شقة الآنسة ماير التي لم يعد لها وجود الآن.

في البداية، كانت باريس رائعة، فكنت أهرول في الشوارع، ولا أتوقف، أما حورية فقد ظلت حبيسة الشقة، تطهى الطعام، وتنتظر قدومي، كانت تخشى كل شئ، ومثلما كان يحدث في الفندق في السابق، كنت أقوم بالمشتريات وأذهب في كل مكان. كنت أخرج صباحاً في السابعة أو الثامنة ومعي حقائبي البلاستيكية لأشترى البطاطس (كنا نأكل البطاطس المسلوقة بصفة خاصة)، والخبز، والطماطم، والحليب، فلقد كانت اللحوم باهظة الثمن، ثم أن حورية لم تكن تثق في شئ، وكانت تخشى أن يدعها الآخرون تتناول لحم الخنزير.

كانت حورية تقتصد، فكانت الغرفة تكلفنا خمسمائة فرنكا أسبوعياً. إضافة إلى مصاريف الكهرباء، وكنا لانستخدم آلة التدفئة، وكان المطبخ عاماً بين المستأجرين جميعاً، الذين كانوا جميعهم من السود، كانت تضمهم الآنسة ماير رباعي في غرفة واحدة، حتى أنها كانت تقيم فوق السطح، وكانت تهبط في كل لحظة تراقب ما يحدث في الشقة. وبعد مرور بضعة أيام، تعرفت على مارى هيلين الجوادلوبية[4] والتي كانت تعمل في

---

(4) Guadeloupe من بين الجزر التي تخضع للسيطرة الفرنسية، مساحتها 1704 كيلو متر مربع، ويتكون غالبية سكانها من العنصر المختلط، كما توجد أقلية من السود وأخرى من الفرنسيين الأصل، ولغة الجزيرة الرسمية هي اللغة الفرنسية. (المترجم)

مستشفى بوسيكو[5] وصديقها جوزيه أيضا، وهو من جزر الأنتيه[6]، كما تعرفت على كل الأفارقة، تامبي ومادى وانتوان ونونو الذى كان يصغرني عمراً، وكان شديد السواد ويلعب الملاكمة. كنت أحبهم كثيراً، كانوا غرباء في سلوكهم، وكانوا يلهون بأى شئ ويتحدثون عن المالكة، الآنسة ماير ملقبين إياها بـ " المرأة المُسنة "، أو كانوا يلقبونها بـ "شيبانية"، ذلك أن هذا الاسم هو الذى لقبتها به فاطمة التي كانت تقيم قبلنا في الغرفة، وكانت الآنسة ماير تقول لنا عندما ترانا: "لدى مبدأ ألا أؤجر شقتي للعرب مطلقاً"، ولكنها قامت بهذا الاستثناء ربما للون بشرتي.

في البداية، أحببت هذه المدينة بشدة، وأخافتني قليلاً لأنها شاسعة جداً ولكنها مليئة بالأشياء الخارقة، والناس الغرباء في سلوكهم... نهاية، هكذا رأيتها.

في بداية الأمر، دهشت للكلاب، فلقد كانت في كل مكان. كانت هناك كلاب كبيرة وكلاب صغيرة وقصيرة تنتصب على أرجلها، وكلاب شعرها طويل جداً إلى حد أنني لم أكن أعرف أين رأسها، أو أين ذيلها، وكلاب شعرها متموج كما لو كانت قد خرجت من لدى مصفف الشعر، وأخرى مُجتزة على شكل الأسود والثيران والخراف وكلاب البحر. كان بعضها صغيراً جداً إلى حد أنه يقال عنها أنها فئران، ترتعش مثل الفئران

---

(5) من المستشفيات الشهيرة بباريس. (المترجم)

(6) جزر تخضع للسيادة الفرنسية. (المترجم)

وتبدو شريرة مثلها؛ وكان بعضها الآخر، في براطيلها الملطخة وأجنابها المتراخية، كانت فارعة كفحول المجول وكالعير، وعندما كانت تهز رؤوسها كانت تلوث كل شئ بروالها[7]. كان هناك بعضها الذي يقيم في شقق الأحياء الراقية، ويسير في سيارات أمريكية وإنجليزية وإيطالية. وكان هنالك بعضها الآخر الذي يخرج بين ذراعي صاحبتهن مزينين على أكمل وجه ويرتدون صدرياتهم الصغيرة من القماش ذي المربعات، حتى أنني رأيت أحدهم يتنزه في سلسلته التي ربطتها صاحبته في السيارة.

لا أريد أن أقول لكم أنه لم يكن لدينا كلاب، كان هناك الكثير ولكنها كانت تتشابه جميعها، لونها ترابي وعيونها صفراء اللون وبطنها مقعر وكأنها حشرة الزُنبور. وتعودت آنذاك أن أراقب هذه الكلاب، فعندما كنت أرى كلباً يقترب مني كثيراً أو حتى لا يبتعد كثيراً عن طريقي، كنت أنتقي حجراً حاداً جداً، ثم أرفع يدي فوق رأسي، وعامة ما كان ذلك كافياً لإبعاد الكلب عني؛ وكنت أفعل ذلك دون تفكير، واعتدت ذلك الأمر، حتى أنني في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى حديقة النباتات[8]، اقترب مني كلب طويل ونحيف مربوط بسلسلة طويلة مذودة بزُنبرُك، وأراد اشتمام كعب

---

(7) الروال هو لعاب الحيوان. (المترجم)

(8) حديقة النباتات jardin des plantes هي من المعالم السياحية في مدينة باريس بفرنسا وتضم مجموعة نادرة من الزهور والنباتات وبها حديقة حيوان شهيرة. وتقع حديقة النباتات بالقرب من نهر السين ومعهد العالم العربي. (المترجم)

حذائي ففعلت الحركة إياها، ولم يكن معي حجر، لأنه في باريس لا يمكن للمرء الحصول على حصى بسهولة في الشوارع، فنظر إليَّ الكلب بدهشة كما لو كنت ألقي بكُرة، ولكن صاحبته أدركت الأمر فسبتني كما لو كنت قد هممت أن أرميها هي بذلك الحجر.

وبعد ذلك الموقف، لم أعد أفعل ذلك، فقل اهتمامي بالكلاب، إذ كانوا جميعاً مِلكاً لأناس يجرونهم في سلاسل وبالتالي لم يكونوا مؤذيين، عدا البراز الذي كان من الممكن أن يجعل الإنسان ينزلق على الأرض أو تُهشم عظامه.

كانت شوارع باريس تبدو لي دون نهاية، وبعضها كان بحق دون نهاية، فهي شوارع عريضة، وطرقات مشجرة تضيع وسط مد السيارات التي تتوارى بين المباني. وبالنسبة لي أنا التي لم تعرف سوى عالم الملاح وضاحية تبركية الصفائحية أو الشوارع الصغيرة في حي المحيط المزدحمة بالياسمين، كانت هذه المدينة شاسعة غير مستنفذة. فكرت أنني حتى لو أردت أن أجوب كل الشوارع، الواحد تلو الآخر، فإن حياتي لن تكفي للقيام بهذا الأمر، ولن أستطيع أن أرى سوى قطاع صغير وعدد محصور من الوجوه.

كنت أنظر إلى أوجه الناس بصفة خاصة، وكالكلاب، كانت هناك طوالع من كل الأنواع، كان هناك البُدناء، والشيوخ، والشباب ذوي البشرة التي تشبه لون سلاح المدية، وكانت هناك أوجه شاحبة للغاية في لون الأرض البيضاء، وأوجه داكنة جداً، أكثر اسوداداً مني، بها أعين تبدو مضاءة من الداخل.

في الأوقات الأولى، لم أتوقف عن تفحص الوجوه، وكان لدى إحساس أحياناً أن نظرتي مأسُورة، تمتصها نظرة الآخر، وأنه ليس بوسعي أن أتخلص منها، وحينئذ جربت النظارات السوداء كقناع أضعه على وجهي، ولكن لم تكن هناك من شمس كافية، وكنت لا أحب أن يفوتني تفصيل وجه ما، تعبير ما، أو لمعان نظرة ما.

وبسرعة، واجهتني مشكلات عديدة، فلقد كان هناك رجال كنت أتفحصهم فكانوا يتعقبونني، وكانوا يظنون أنني عاهرة، مهاجرة صغيرة من الضواحي تسعى إلى الذهب في وسط المدينة، فكانوا يقتربون مني، ولكنهم لم يكونوا يجسرون على مس جسدي، فلقد كانوا يخشون الخدعة. ذات يوم، مسكني رجل عجوز قليلاً من ذراعي وقال لي: "هل تأتي معي إلى سيارتي؟ سنشتري حلوى طيبة"

جذب ذراعي بشدة، وكانت عيناه مثل عيني الرجل الذي ضايقني في المطعم سابقاً مع حورية، وكنت أعرف ماذا يريد مني، كما تعلمون، فنهرته بداية باللغة العربية (كلب – قواد – ملعون دين أمك)، ثم باللغة الأسبانية "غبي، جبان، لواطي"، فأدهشه ذلك حتى أنه ترك ذراعي وتمكنت من الفرار منه.

وبعد ذلك الموقف، كنت أدرك الأمر على الفور حينما كان يهم رجل بتعقبني، وكنت ماهرة في اقتياد الرجال إلى ذلك؛ ولكن كانت في حياتي نساء أيضاً، ولكنهن كن أكثر مكراً من الرجال، فكانت الواحدة منهن ترتب

حتى تلقانى فى مكان لا يمكننى أن أفر منه، فى ممر مسور أو فى سلم كهربائى بمتجر أو فى عربة مترو مثلا، كان هؤلاء النسوة يخيفننى، فلقد كن فارعات الطول، بيضاوات، يضعن قلنسوات من الشعر الأسود والبدل الجلدية وأحذية صغيرة، وكان صوتهن خفيض مستنفذ قليلاً، ولم أكن أقدر على سبهن، فلقد كنت أبتعد عنهن وقلبى يدق ثم أعبر الشارع بين السيارات وأهرول بجنون.

ذات يوم، انتابنى هلع فى مرحاض مقهى؛ فلقد كان هناك بهو كبير تحت الأرض أنيق به مرآة ومصابيح صغيرة حولها، وكنت أغسل يدى وأمرر قليلاً من الماء على جبينى كعادتى حتى أملس شعرى المتهدل، وجاءت امرأة عن يسارى، على الأرجح أنها كانت شابة بدينة بشكل ملحوظ، أنفها مريض ووجنتاها تخطهما تشققات خفيفة، وشعرها أشقر مصفف على طريقة الشينيون[9]، وحينما شرَعت فى تزيين نفسها، نظرتُ إليها مرة أو مرتين بسرعة فى المرآة فحسب، الوقت الذى رأيت فيه أن عينيها لونها أزرق يميل إلى اللون الأخضر، ولاحظت أنها وضعت لوناً أسوداً على أهدابها من طريق مرقاش صغير.

وفجأة ثارت، وسمعتها وهى تقول لى فى نغمة غريبة وخبيثة وصلبة، تشبه نغمة صوت زُهرة فى غضبها: "لماذا تنظرين إلىّ؟ ماذا ترانى أفعل؟"، فالتفتُ إليها، ولم أفهم ما كانت تقوله لى، واستطردت قائلة:

(9) تسريحة شعر يطلق عليها فى بعض اللهجات العربية ذيل الحصان. (المترجم)

"أجيبي أيتها العاهرة، لماذا تنظرين لي هكذا؟".

كانت عيناها جاحظتين قليلاً وشاحبتين، وكان يبدو لي أن عينيها تفتح وتغلق كأنها قط. تمتمت قائلة: " لم أنظر إليك"، ولكنها تقدمت نحوي مفعمة بحنق بارد أرعبني، وقالت لي: "كلا، لقد نظرت إليّ أيتها الكاذبة، وكانت عيناك مصوبة إليّ، وحينما كنت لا أنظر إليك شعرت بعينيك تلتهمني"، فتقهقرت إلى الطرف الآخر من المرحاض، بينما كانت تسير نحوي، مسكت شعري بكلتي يديها وأمالت رأسي إلى الأمام نحو الحوض، فظننت أنها ستقرعني وتصدم رأسي في القاعدة الرخامية فصرخت، فتركتني: "هذه قذارة، هيا أيتها القذرة الصغيرة"، ثم تناولت أشيائها وقالت لي: "لا تنظري إليّ، اخفضي عينيك، قلت لك اخفضي عينيك، إذا نظرت إليّ سوف أقتلك "، ثم خرجت. كنت خائفة حتى أنني لم أتمالك ساقي، وكان قلبي يصطدم بصدري، وتقيأت، ولم أعد بعدها مطلقاً إلى مراحيض تحت الأرض.

وهكذا تعلمت شيئاً فشيئاً حياتي الجديدة، فلم تكن حورية تتمكن من متابعتي، فيما أنها مثقلة بحملها، كانت لا تتحرك تقريباً، ولا تبرح الغرفة إلا لكي تذهب إلى المطبخ عندما لم تكن هناك ماري هيلين، فلقد كان الأنتيون يخيفونها، وكانت تقول إنهم سَحَرةُ، ولكنني أظن أنها كانت تقول ذلك لأنهم سود مثلي. كانت حورية تحصي كل مساء ادخاراتها، فإذا كنا لم

نغادر ميلئلا إلا منذ ثلاثة أشهر، فقد نقصت المدخرات إلى النصف تقريباً، وبهذه الطريقة لن يكون معنا أي شئ قبل قدوم فصل الربيع.

كان يبدو على حورية الحزن الشديد إلى حد أنني كنت أواسيها على قدر استطاعتي، وكنت أعانقها قائلة لها: "كل شئ سيكون على ما يرام وسترين"، ووعدتها بألف شئ، وعدتها أننا سنجد عملاً وشقة جميلة على شاطئ بحيرة أورك[10] وسنستطيع أن نحيا حياة طبيعية، بعيداً عن كوخ الآنسة ماير القذر.

انتشلتنا ماري هيلين، في حين كنا لا نجد شئ نسدد به الإيجار في نهاية الصيف، فبينما كنت أخطط لأعيد مزاولة مهنتي كلصة، سألتني ذات يوم في المطبخ: "هل يناسبك عمل في المستشفى؟ "، سألتني ذلك لا مبالية، ولكنني في عينيها وجدت أنها قد استنبطت كل شئ في حياتنا، وأدركتُ أنها كانت تشفق علينا.

كان عملاً طيباً لي فلقد كنت أعمل في صالة مطعم، وعُينت على الفور، ولأني سوداء البشرة فقد قدمتني ماري هيلين على أنني ابنة أختها وقالت إن لدي مستندات دالة على شخصيتي وإنني من جزر الجوادلوب، فاندهش الآخرون من أنني لا أتمكن من التحدث بلغة المستعمرات الفرنسية، ففسرت ماري هيلين لهم كل شئ وقالت: "ولدتْ هناك، ثم جاءت أمها بعد

---

(10) منطقة في شمال باريس. (المترجم)

ذلك إلى فرنسا، ولذا نسيتُ كل شئ"، وبذلك لم يتم تغيير حتى اسمي "ليلى"، فهو اسم من الأسماء المعروفة بهذه الجزر، وقامت ماري هيلين بتسجيل اسمي العائلي مطابقاً لاسمها العائلي "مانجان".

كنت أعمل من السابعة وحتى الواحدة ظهراً في مستشفى بوسيكو، وكنت أتقاضى نصف راتب، ولكن كان ذلك يسمح بتسديد الإيجار والقيام ببعض النفقات، فكان من الممكن أن تبقى إذاً مدخرات حورية لوقت ما، إضافة إلى ذلك، كان بوسعي أن أتناول طعامي في مطعم المستشفى، فلقد كانت ماري هيلين تحجز لي مقعداً بجوارها، وكانت تعبأ طبق طعامها لي، فلقد كانت وديعة للغاية، وكنت أحب نظرتها الحنونة قليلاً. في يوم من الأيام، عاتبت الآنسة ماير حورية في أمر لا أعرفه، وهددت بأن تطردها، فتناولت ماري هيلين مدية جزار من المطبخ وسارت إلى المالكة وقالت لها: "أنصحكِ ألا تحاولي أن تطردي أي شخص مهما حدث، وبرغم كل النقود التي ندفعها لك، فإنك عجوز فاسقة".

كنت أحب بصفة خاصة الأعياد، فمن آن إلى آخر، في عيد ميلاد أو في أي مناسبة أخرى، كان السود يغلقون الستائر، وكانت الشقة تغوص في الغبش، وكان الأفريقيون يضربون الدف، وهو طبل كبير من الخشب مغطى بالجلد، وكانوا يدقونه بلطف شديد بأطراف أصابعهم، وعلى ضوء الشمع، كان الصبية يرقصون، وكان نونو، الملاكم الكاميروني الأصل، يرقص شبه عارياً أو عارياً في بعض الأحيان، وفي وسط ممر الشقة، كنا نسمع الضحكات

تنبعث من الغرف، وكانت ماري هيلين تنطلق بصوتها في لغتها الكمنجية، وكان جوزيه رفيقها يخرج من الغرفة بآلته الموسيقية ويعزف موسيقى الجاز وموسيقى هادئة مع هتاف ناشز من وقت إلى آخر. أما الآنسة ماير فكانت تحبس نفسها في هذه الأيام، ولم تكن تجسر على الخروج طالما أن الحفل مستمر. وكانت حورية أيضا لا تخرج خارج الغرفة، ولكنها كانت تنصت للموسيقى، وكنت أمضي وقتي بين الخروج والدخول إلى غرفتنا، وكنت أشْتَمُّ رائحة الدخان، ومن المطبخ كنت أتسلل إلى وسط من كانوا يرقصون، وكنت أساعد ماري هيلين في جمع الأطباق، وكنت أحمل إلى حورية أطباق الطعام، وأرز مخلوط بجوز الهند، وبخن من السمك، ولسان الحمل المقلي. وكنت أرقص أيضاً مع الأفارقة، أو مع شاب فارع عينيه خضروانين، اسمه دينيس، وعندما كان يجذبني إليه بشدة، كانت ماري هيلين تدفعه بلطمة مفاجئة قائلة له: "انتبه، هذه الفتاة شريفة، إنها ابنة أختي". وعندما كان الاحتفال ينتهي، كنت أعاون ماري هيلين في عملية التنظيف، فلقد كانت تجد مشقة في الانحناء لجمع الأطباق الورقية. ذات مرة، ضحكت هازئة وقالت: "إذاً لن أكون الوحيدة"، وبما أنني نظرت إليها دون أن يبدو عليَّ أنني أدرك ما قالت، استطردت: "نعم الوحيدة التي لديها رضيع، ماذا، ألا تشكين في هذا الأمر ؟"، ونظرت إليَّ باحتقاء وقالت: "حقيقة إنك ساذجة، أنك لا تعلمين شيئاً عن الحياة، ماذا علمتك أمك؟"، فأدركت أنها تتحدث عن حورية،

فقلت لها: " كلا، ليست هي بأمي، تعلمين ذلك"، فانطلقت مارى هيلين في الضحك، وقالت: "نعم، أيا كان الأمر، فسوف يأتيها طفلاً من قَبلي".

كانت هذه هي المرة الأولى التي نتحدث فيها عن هذا الأمر، وأحسست كثيراً أنه كان لزاما عليّ أن أحدثها بكل شئ وأعترف لها، ولكنني لم أكن قادرة على ذلك، ولم أكن أعرف سوى تأليف الحكايات، لأنني منذ أن فقدت سيدتي، كان ذلك كل ما كنت أستطيع أن أفعله. وذات مرة قلت لها: " ألم أقل لك أنه ليس لى آباء؟ "، غير أن مارى هيلين قطعت حديثي إليها فجأة ثم قالت: "اسمعي يا ليلي، لا تقولى لى ذلك الآن، فيوم ما، سوف نتحدث عن ذلك الأمر، ولكن ليس الآن وقته، ليست لدى رغبة في أن أستمع إلى ذلك، كما أنه ليس لديك الرغبة في الحديث عن ذلك"، وكانت على صواب، وربما أدركتْ أنني لا أقولُ الحقيقة.

مضيت أكتشف باريس طوال الصيف، وكان الطقس رائعاً، وكانت السماءُ زرقاءُ دون غيمة واحدة، وكانت الأشجار شديدة الخضرة لامعة، وضخمت عواصف أغسطس من نهر السين؛ وفي فترة بعد الظهيرة وأنا أخرج من المستشفى، كنت أسير على طول النهر، وأذهب حتى المعبر الذى يربط الشاطئين أمام الكنيسة الكبيرة. لم أكن مطمئنة بعد للسير في الشوارع الكبيرة، والآن أمضي بعيداً، فكنت أرتاد في بعض الأحيان المترو، وفي غالبية الأحيان كنت أستقل الأتوبيس، ولم أتمكن من التعود على استقلال المترو. كانت مارى هيلين تسخر مني وتقول لى: "إنك غبية، هذا أمر جلي،

فالطقس منعش في فصل الصيف، وفي فصل الشتاء الطقس حار، ليس علي إلا أن تجلسي في ركن من العربة ومعك كتاب، ولن يعيرك أحد انتباها ولكن لم يكن خوفي من المترو مبعثه الناس، فكوني تحت الأرض، كـ يشعرني بالدوار، وكنت أرقب خروج المترو من تحت الأرض لأرى ضو الجو، وكان صدري يطبق عليّ، ولم أكن أحتمل سوى الخط الجوي بجو محطة اوستيرليتز[11] أو من جانب محطة كامبرون[12]. كنت أستة الأتوبيس وأذهب حتى نهاية محطاته، وكنت لا أطالع أسماء الشوارع، فلق كنت أسعى كي أرى بقدر الإمكان الناس والمباني والمتاجر والميادين.

ثم أنني سرت في كل الأحياء التالية: الباستيل، فدرب شالييني لاشوسيه دانتن، الأوبرا، مدلاين، سباستبول، لاكونترسكرب، دنفيـ روشرو، سان جاك، سانت انتوان وسان بول؛ وكانت هناك أحياءُ بورجوازي أنيقة تنام في الثالثة من بعد الظهر، وكانت هناك أحياء شعبية ضوضائي لها حوائط طويلة قرمدية حمراء تشبه سور السجن، وسلالم ومطالع وساحات خالية، وحدائق ترابية تكتظ بأناس شواذ، وميادين في ساعة تناول أطفا المدارس لطعامهم، ومعابر طرق حديدية، وفنادق مريبة تكتظ بفتيات ترتدي الجلد الأسود، ومتاجر فخمة تعرض ساعات ومجوهرات وحقائب يد وعطور وعندما وصلت إلى باريس، كنت أنتعل صندلا من الجلد، وفي فصل الخريف

---

(11) محطة مترو وقطار شهيرة بباريس. (المترجم)

(12) محطة مترو بالدائرة الثالثة عشرة بباريس. (المترجم)

تمزق إربا، فابتعت حذاءً رياضياً أبيضا بلاستيكيا حقيرا جداً من متجر بجوار بورت ديتالى[13]، ورغم ذلك فقد استطعت عن طريقه أن أسير لمدة كيلومترات.

كنت أسير دون أن أتحدث إلى أى شخص؛ ومن آن إلى آخر، كان هناك أناس ينظرون إلىّ ويتظاهرون أنهم يقتربون منى، ومنذ ما حدث فى مرحاض منطقة ريجانس، لم أعد أنظر إلى الناس فى أعينهم، وكنت أسير غائبة ، وكأني لا أعرف إلى أين أمضى، وعندما كنت ألحظ أن أحدا ما يتعقبني، كنت أدخل المباني وأنتظر في الظلام، وفي عمق ممر، أعد حتى مائة ثم أرحل.

كانت هناك مناطق غريبة، لاسيما بجوار محطات المترو: ففي شارع جان بوتون وعلى رصيف المحطة، كان هناك شباب يرتدون أقمصة عريضة للغاية، وفتيات نحيفات ترتدين الجينز والسترات القصيرة، شعورهن مغسولة بالكلور، وطالعهن مُدبب، ونظرتهن غائبة فارغة. ذات يوم، وأنا في طريق عودتي إلى المنزل، فوجئت بمشاجرة، كان الأمر غامضا وغير مفهوم؛ أولاً، كان هناك رجال ونساء يهرولون متدافعين ويطلقون صيحات أجشة، أظنهم أتراك أو روس، لا أعرف، ثم كانت هناك مجموعة صغيرة من الشباب الذين يرتدون أقمصة جلدية، وكانوا يمسكون في أيديهم بمطارق

(13) حي ومحطة مترو بباريس. (المترجم)

ومضارب لعبة البسبول[14]، فمروا جميعهم من أمامي، وعندما مكثت خائفة على طرف الرصيف، دفعني أحد الصبية بكلية يديه، ورأيت وجهه مقضباً، وفمه وعينيه التي تفحصتني لبرهة قاسية كانت جافة كأعين السَّحْلِيَّة، ثم رحلوا، وهويت على الأرض على ركبتي أمام مجرى الماء، ولم أتمكن من التحرك، وعندما سمعت سرينة الشرطة كان لدي فحسب الوقت الذى أهرول فيه إلى باب المبنى الذى تقع فيه شقة الآنسة ماير.

كانت حورية ترتعش في الشقة، عندما دخلت إلى الغرفة المظلمة، أشعلتُ الضوءَ ولم أعرف نظرتها، نظرة حيوان مُطارد، فأحدث ذلك الأمر فيَّ شيئاً ما، ذلك أنني عرفتها غير مبالية مرحة.

قلت لها: "ما بك؟"، فلم تجب، كانت تنظر إلى ساقي، ولاحظت أن ما تدقق النظر فيه هو بنطالي الممزق من على الركبة، وكانت هناك بقعة دم تتمدد على النسيج، فقلت لها: "وقعت على الأرض، زلتْ ساقي على درجة السلم "، ولكنني كنت أعلم أنها لاتنخدع بقولي، وقالت بصوت مختنق: "أريد أن أرحل عن هذا المكان، لم أعُدْ أقوى على ذلك"، فقلت لها قاطعة حديثها قبل أن تتحدث عن الرحيل: " إنه أمر مستحيل، لن يمكنك أن تعودى إلى بلادك، فأنت وأنا سنتعرض للسجن، وربما لاترين طفلك أبداً، فسوف يسلبونك إياه"؛ كنت أقول لها ذلك من أجل نفسي أيضاً، وحتي

---

(14) لعبة يتنافس فيها فريقان، يتشكل كلاهما من تسع لاعبين، ويشترط فيها إحراز أربعة أهداف لتكوين نقطة في صالح الفريق. (المترجم)

لا أنسى ما فعلوه بي حينما كنت طفلة وحينما أختطفت وعُلبت في حقيبة ثم تم بيعي، حتى لا انسى هذه الأيادي التي كانت تمر بي والحريق في بطني، فعادت لي الذكريات فجأة كحامض في حلقومي، واستطردت قائلة لها: " الأفضل أن نموت" قلت ذلك كما قالته هي عندما كنا في تبريكة، وهي تضعُ المديةَ على حلقها.

في نهاية فصل الصيف، تعرفت على الطبيبة فرومجا؛ أظن أنها على الأرجح قد رأتني عندما كنت أدفع أمامي عربة الغسيل في ممر المستشفى. كانت الطبيبة فرومجا تعمل كطبيبة أعصاب، كانت تفحص مرضاها في الطابق الثالث، ولكنها كانت تغدو وتعود من قسم إلى آخر بلا توقف. سألت عن اسمي من ماري هيلين وعن معلومات أخرى، وذات يوم، أخذتني ماري هيلين على انفراد في ساعة تناول الطعام، وكانت تتحدث إليَّ بنفس صوتها البطئ الغنائي، ولكن في عمق عينيها الذهبيتين، تمكنتُ من أن أطالع احساساتِها: القلق، شئ من السخرية أو الحذر، وقالت: "تعلمين يا ليلي، كما يطيب لك، ولكن أردت أن أبلغك أن شخصاً ما في وضع مرموق يهتم بك". فلما نظرت إليها دون أن يبدو على الفهم، قالت: " الطبيبة فرومجا التي تدير قطاع طب الأعصاب تريد أن تساعدك، إنها على استعداد أن تجد لك عملاً، إذا شئتِ، يمكنك أن تقابليها "، كنت متحفظة، ذلك أنني لم أكن أرغب في معرفة أحداً أيا كان، أو التقي بأحد من جديد مهما كان الأمر، وكنت أود أن أمضي بين الناس وبين الأشياء كسمكة تصعد سيلاً.

ثارت ماري هيلين وقالت لي: " ينبغي عليك أن تفكري في مستقبلك أيضاً. لا يمكنني أن أستمر في المجئ بك إلى هنا دون أن يكون لك مستندات شخصية، إنه أمر مخاطرٌ فيه، فأنا أخاطر بفقد موقعي في العمل ". كانت هذه هي المرة الأولى التي أفهمتني فيها أنها أدت إليَّ خدمة، ولو كان الأمر بيدي لتركت ببساطة المستشفى، ولكن حورية كانت مُعدمة ووحيدة وكنا في حاجة ملحة للنقود، فقلت: "ماذا يجب عليَّ أن أفعله؟"، فلطمتني ماري هيلين، وقالت: "نهايةً، ماذا تتصورين؟ هذه المرأة تعرض عليك أن تعملي لديها في التنظيف وفي القيام بالمشتريات فقط، هذا كل ما في الأمر، وستعملين كل يوم، وسيكون بوسعك أن تتناولي الطعام في الظهيرة لديها، سوف تنتظرك في منزلها غداً بعد الظهيرة ويمكنك أن تزاولي عملك لديها مباشرة، أليس ذلك ما تبحثين عنه؟ "، خفضت رأسي، ولم أرد أن أعارض ماري هيلين، فلقد فعلت الكثيرَ حقا من أجلي، لأنها كانت حنونة، ولأنها كانت تحب شعري وبشرتي السوداء وعيني اللتين كن كعينيها، فعيني كعيون غزالة كما كانت تقول سيدتي. عانقتني وقالت لي: " اسمعي، إذا أردتي، يمكنني أن أذهب معك حتى أقدّمَكِ لها، وأطلبُ من سيسيل أن تعمل بدلاً مني غداً في فترة ما بعد الظهيرة ".

فعلتُ مثلما قالت لي، ولا أظنُ أنها كانت سيئة النية، فكانت تعتقد أنها تمد لي يد العون، وربما كانت في الحقيقة حاسدة، وربما أرادت هي أيضاً أن تلفت نظر شخصاً ما في وضع مرموق. كانت ماري هيلين متواضعة

للغاية، مخدوعة كثيراً في الحياة بصحبة أبنتها والسنوات التي كان زوجها السابق يضربها خلالها كل مساء، فلقد افقدها أحد قواطع أسنانها ذات يوم حينما دفعها إلى الأمام في واجهة دولاب به مرآة، فأرادت أن تخلصني من حياة كهذه، وقالت لي: "انظري إليّ، حياتي لا تساوي شيئاً"، وأرادت أن أتركَ حورية، وأن أصبحَ آنذاك إنساناً ما.

كان منزل السيدة فرومجا يقع في ضاحيسة باسي في شارع صغير هادئ، وكان له بوابة كبيرة من الحديد وعمودين، وكان رقمه "8" مدون بالحديد، وكانت واجهته بيضاء وسقفه مدبب، ونافذته صغيرة على السطح الذي أحببته على الفور.

قدمتني ماري هيلين للطبيبة فرومجا، ولقد سمعت الحديث عنها بكثرة، وكنت أخشى لقائها، وظننت أنني التقي واحدة من سيدات المجتمع كالسيدة دلاهاي في الرباط بحليها الذهبية وثوبها الرمادي الرائع، وطالعها الشاحب وعينيها الباردتين. كنت قد هَيَأْتُ نفسي لفكرة أن أفر مع أول كلمة غير مناسبة توجهها إليّ، ولكن السيدة فرومجا كانت على النقيض من ذلك، فلقد كانت قصيرة ونشيطة، بشرتها سمراء للغاية، وعيناها براقتان من الدهاء، ومع ذلك، كانت ترتدي بشكل غريب بنطالا أصفر اللون يميل إلى السمرة، واسع للغاية، وقميص طويل لونه أزرق زرقة السماء وكأنه وشاح ريفي. عندما رأتني عانقتني، وقالت في تعجب: "ولكنها جذابة"، ثم أعَدَتْ لنا شايا وقدمت لنا الحلوى، ولم تبق في مكان ثابت، فلقد كانت تقفز في

الشقة كعصفور دوري، وقالت لي: " يا ليلي، عليك أن تهتمي بي، هل تريدين ذلك؟ ليس لدي أطفال فستكونين كابنتي، أنت التي ستنظمين كل شئ في هذا المنزل، ولقد قالت لي ماري هيلين أنكِ كنت تهتمين في السابق بسيدة عجوز قعيدة، حسناً، إنني في حاجة إلى أن تعامليني كما لو كنت كذلك، أتدركين ما أقوله لك ؟ ". احْتَسَيتُ الشاي، وقلت نعم، ووجدت صعوبة في الظن أنها تحدثت هكذا عن سيدتي كما لو كان ذلك بحق عملي أن أنشغل بسيدة عجوز قعيدة. وفي الواقع، أدركت أن ذلك الأمر كان أمراً حقيقياً، لقد كان ذلك بحق عملي منذ أن كنت صغيرة.

أحببتُ العملَ لدى السيدة فرومجا، فكنتُ أبقى لديها طيلة النهار، وكنتُ أقومُ بتنظيف المنزل، عدت للممارسات التي كنت أرتادها في السابق في منزل الملاح لدى لالا أسماء، فكنت أبدأ بمسح الفناء ثم الرواق، وكنت ألتقط أوراق أشجار الكستناء التي كانت تتساقط والزغف وحُثالاتِ المباني المجاورة، ثم كنت أغسلُ البلاط وأنفض السجاد، وكنت أنظف الموكيت بمكنسة ذات يد وجدتها في القبو. وذات يوم جاءت السيدة ورأتني فانطلقت في الضحك قائلة: "ولكن، كلا يا ليلي، عليك أن تستخدمي آلة التنظيف". كنت خائفة من هذه الآلة التي كانت تدوي وتصفر، والتي كانت تبتلعُ كل شئ حتى الأشياء التي كانت أسفل ستائر التول[15]، وانتهيت بالتعود عليها.

---

(15) التول هو قماش قطني أو صوفي شفاف يستخدم عادة في نسج الستائر والكلمة مأخوذة من أسم ريف فرنسي. (المترجم)

كنت أقوم ببعض المشتريات في الحي، وبما أن متاجر المنطقة كانت أسعارها مرتفعة، كنت أستقل الأتوبيس وأذهب إلى سوق "اليجر" حيث كنت أشترى البرتقال فى حزمة بها اثنين من الكيلوهات، وكنت أشترى الطماطم والقرع والشمام. كان المطبخ يمتلئ بالفاكهة، وكانت السيدة منبهرة بى. كانت تترك ورقة مالية فئة المائة فرنك على المنضدة الصغيرة فى حجرة الاستقبال، وكنت أضع النقود المعدنية القليلة فى صحن صغير، فلقد كنتُ أجاهد نفسى على إنفاق أقل شئ بقدر الإمكان. كنت أعد طبق السلطة بشكل مختلف كل يوم عن اليوم الآخر، بالزيتون التونسي، بالكرم الجاف والتين واليقطين الأقرع والكيبوى وثمرة المحامي والاوكرا والكرامبول، وأوراق الخلس البلدى وفريذيه وباتيفيا وخس النعجة وطرخشقون وقرع وشيوت وكرنب أحمر اللون. كنت أملئ طبقا كبير الحجم أبيض اللون ثم أضعه على المنضدة في منتصف مفرش السفرة الكبير الأبيض الفضى اللامع بجوار إبريق معبأ بالماء الطازج، ثم أنصرف. وعندما كنت أعود إلى شقة الآنسة ماير، كان كل شئ يبدو لى قاتماً، حزيناً، تعساً. كانت حورية تتمرغ على الأريكة، وتقرض الخبز، كانت حزينة فتقول لى: "أتتركيني، تتركيني وحيدة، فأمضى حياتى فى البكاء، هل لهذا السبب أتيت بك إلى هنا؟ "؛ كانت حورية غيورة حاسدة، وكانت تقول: "والآن ولم تعد لك حاجة إلىّ، والآن وقد وجدت من هو أفضل مني، فتذهبين، وتتناسيننى وأنا أموت فى هذا الثقب الأسود دون أن أجد من ينقذني ". فكنت أحاول أن أهدأ من روعها،

وعدتها أنني بمجرد أن أقتصد النقود الكافية سنذهب نحو الجنوب، إلى مارسيليا، إلى نيس، كنت أحدثها وكأني أتحدثُ إلى طفلة.

ربما كانت حورية على صواب، فقد كنت أرغب في الرحيل، وأريد أن أبتعد على قدر الإمكان عن شارع جان بوتن وعن الفنادق البائسة وعن متاجر الكوكاويين على الرصيف وعن عصابات الشباب التي كانت تهرول بعصيانها كي تضرب العرب والأفارقة لحظة مرورهم.

كنت أشعر بالسعادة حينما أدفع البوابة الحديدية للمنزل رقم "8" وأدخل إلى المنزل القديم الهادئ حيث رَتَّبْتُ كل شئ وزينت كل شئ، وكأن لالا أسماء كانت لا تزال حية وكأنها السيدة الحقيقية للمنزل.

أظن أنني منذ أن كنت طفلة لم يتوقف الناس عن وضعي في شباكهم، فكانوا يوقعونني في شباكهم، ويمدون إليّ شراكهم عن طريق عواطفهم وضعفهم، فلقد كانت هناك لالا أسماء، ثم كنتها زُهرة، والسيدة جميلة، وتغادير، والآن حورية؛ كان لدى شعور بأنني أختنق. ولم يكن بوسعي أن أفلت من حورية، كان عليّ أن أعود وأعيش من جديد في دوار تبريكة، سجينة في دار تغادير، كي أعيش في أفق وحدوي يشكله كل من طرف الزقاق المثقوب ومعبر الطريق الحديث السريع، والفئران التي تحدث أزيزا على السقف.

أتفق معكم على أن هذه الفكرة لم تكن طيبة من جانبي، ولكنني لم أعُد أقدر على العيش هنا، ولذا ففي الساعة التي كان ينبغي عليَّ فيها أن أعود

إلى منزلنا في شارع جان بوتن، كنت أمكثُ لدى السـيدة، وكنـت أستمر فـي تنسيق المطبخ،فأجلي الأواني، البلاط الصيني والصنابـير، وكنـت أفعـلُ ذلـك حتى لا أتأملَ في حياتي، وكي لا أفكرَ في أمري.

ذات يوم، عادت السيدة فرومجا مبكـرة عـن موعـد قدومـها قليـلاً؛ وعندما رأتني، فطنت كل شئ، فراحت تعانقني قبل أن تنزع واقي المطـر مـن على ملابسها، وقبل أن تنزع مفاتيحـها مـن بـاب المـنزل، قـالت: "إن ذلـك يسعدني يـا عزيزتـي، كنـت أنتظـر هـذا اليـوم، وكنـت علـى يقـين مـن أنـه سيأتي"، ولم أدرك كثيراً ما كانت تريد أن تقولـه لي، ثـم أشـارت إلى الغرفـة التي تقع في نهاية المنزل، إلى جانب المطبخ، تلك الغرفة التي كان لها مخرج إلى سلم الخدم؛ وفي هذا المكان، كنت قد وضعت حقيبتي ومذياعي القديم وكل ما أملك، ولم تطرح عليّ السيدة أسئلةً، فعلتُ كلّ ذلك على الفور كما لـو كـان ذلك أمراً متفقاً عليه بيننا، كما لو كنت أقيم لديـها منـذ أشـهر وأعـوام. كـان ذلك الأمر مريحاً لي من حورية؛ وحتى مـاري هيلـين كـانت مُضْنيـة، كـانت تريدُ أن تعرف كل شئ في حياتي وتتدخل فيـها؛ ولم أفكـر حتـى فـي نونـو آنذاك، فحتى هو كان يسجنني في شـبكة صيـده، كـان يـود أن نخـرج معـاً، ويريد أن اقْبَلَهُ خطيباً لي، وكان عطوفا عليّ ولـه بسـمة طيبـة، وكنـت أمـزح معه كثيراً، ولكنني كنت أخشى أن تلتقطـه الشـرطة لأنـه كـان كاميرونيـاً لا يحمل مستندات شخصية، وكان لدي إحساس أنه، إن آجلاً أو عاجلاً، سـوف يُقْبَض عليه فلم أرد أن يقبض عليّ معه.

وفي منزل هذه السيدة كانت السكينةُ، وهناك، كنت على يقين أنه لن يحدث شئ، فلقد كان منزلها يقع في حي هادئ، في شارع صغير منحني، به منازل صغيرة لها حدائق، وكانت المباني مباني أثرياء، وكان هناك أطفال شقرٌ يرتدون ملابس موحدة، فلم يكن للشرطة أن تأتي وتعسكر هنا. في البداية وبعد إقامتي في باسي، كنت أنام طول الوقت، وكان يبدو لي أنني لم أنم منذ سنوات، ذلك أنني كنت أعيش تحت وطأة الهروب، أو كنت أخشى أن تقبض علي شرطة زُهرة، وفي شارع جان بوتين، كانت مشاجرات السود، والآنسة ماير، والعصابات الملقبة "بالبانك"[16] والتي كانت تهرول في الأزقة مسلحة بالعصي كي تضرب العرب، وكانت هناك أيضاً صفارة البوليس التي كانت تنطلق غالباً، وصوت عربات الإسعاف المُحزن.

أما الآن فأنام حتى التاسعة أو العاشرة صباحاً، وفي بعض الأحيان، كانت السيدة تيقظني، كانت تجذبُ الستارةَ، لينزلق ضوء الشمس بين جفوني، وكنت أرى من خلال النافذةِ الكرمَ الأحمرَ، وأسمعُ العصافيرَ تُزقزقُ، فأجلس كالكُرة على الفراش حتى أؤاجل لحظة نهوضي، في حين أن السيدة كانت تجلس على طرف الفراش تمرر برفق راحة يدها على وجنتي كما لو كنت قطاً صغيراً. حتى صوتها أيضاً كان يداعبني، فكانت تلفظُ بكلماتٍ عذبةً جداً تتدحرج كالحلم، وتقول: " لا تتحركين يا عزيزتي، وظلي هكذا،

---

(16) هي مجموعة من الناس الذين يعرفون بمعارضتهم للنظام الاجتماعي بشكل ثوري استفزازي (المترجم)

هنا منزلك، دعيني آهدهدكِ، إنكِ ابنتي الصغيرة، أنتِ الابنة التي كنت أنتظرها، فدعيني أذودَ عنكِ، ومعي لن تخشي شيئاً، سوف أعتني بك، فأنتِ ابنتي، يا طفلتي الصغيرة...". كانت تقول كلمات كهذه بالقرب من جسدي، في أذني وأشياء أخرى بصوتها الأجش الحنون، وكانت يديها الدافئة الجافة تنزلق على وجهي وتداعب شعري في رقبتي، وكانت تخلل أناملها في قرطي؛ ولا أعرف إن كنت أحب ذلك، فلقد كان أمراً غريباً. كان بمثابة حلماً ينبسط، فيبدو لي أنني أتموجُ فوق غيوم، وكنت أرتعش وأشعر بموج يتجول في ظهري، ويصعد بطني، وأشعر بكل عصب في جلدي، من أقدامي حتى يدي، ولم يكن بوسعي أتحرك، فكنت أنام في هذه الحالة، وعندما كنت أفتح عيني ثانية، كنت أرى النهار ساطعاً تكون السيدة قد مضت إلى عملها؛ حينئذ كنت أنهض وأذهب إلى صالة الاستحمام وأخذ حماماً منعشاً لكي أستيقظ.

لم أعد أذهب بعيداً من أجل قضاء المشتريات، فالآن أخشى أن أفقد هذا الحي، وأخشى أن أبعد عن هذا الشارع الهادئ، فلا أرى علامة الرقم"8"، فكنت أذهب إلى متجر الخبز في طرف الشارع، وبالقرب من محطة المترو، كنت أشتري الفاكهة والخضر والجبن، ولهذا كانت النقود لا تكفي، وحتى لا أطلب من السيدة، كنت أنفق من مدخراتي الخاصة، فلقد كنت أظن أن السيدة فروماجا جعلتني أعمل لديها لأنني حاذقة وأنني أعرف الشراء، ولم أرد أن تعلم عني أنني أصبحت كسولة، وأنني لم أعُد أدخرُ لها؛

إلى حد أنني - ولمرات عديدة - لم يعد لدي النقود الكافية للشراء، فسرقتُ أشياء، علب سمك السيمون المحفوظ، وبسكويت ومساحيق غسيل للمنزل، فلم أفقد خفة يدي، وكنت ماهرة دوما، وكان تُجارُ الحي سُذَجُ، فلم يكونوا على حذر مني. مرة واحدة فحسب، تعرضتُ لمشكلة، لم أدرك على التو ماذا حدث، ولكن تَرَكَ هذا الأمر لديّ انطباعا غريباً كما لو كان هناك سراً أو مَعْنَاً سرياً لم أتوصل إلى فهمه: كانت هناك بائعة من بائعات المتجر الصغير، شابة عظمية الهيكل، شعرها مُصفرّ، عندما مررت من أمامها نظرت إلى بإمعان، وظننتُ أنها رأتني وباغتتني وأنا أهم بسرقة طفاءة تبغ، فأخرجتها من جيبي حتى أدفع ثمنها، ولكنها قالت وببطء شديد مركزة على كل كلمة: "إذا، أأنت الجديدة ؟ "، فتمتمت: " الجديدة ماذا؟ "، فأمعنتُ النظر فيّ بعينيها الشاحبتين الباردتين، وقالت: "نعم، نعم أيها القلب الجميل"، ووضَعَتْ كل شئ في الحقيبة ومدتها إلى دون أن تأخذ مني نقود، ففررت مهرولة لئلا تناديني.

وفي بعض الأحيان، كنت أهتف إلى حورية بعد الظهر، وحتى تمرر لها الآنسة ماير المكالمة التليفونية، كنت أقول لها أنني أهتف من مكان بعيد، من إنجلترا أو أمريكا، فكانت تقول " أحقا؟ " بصوتها المزماري المنخفض؛ وبعد لحظة كنت أسمع صوت حورية الخفيض الأجش، وكانت تحدثني بالعربية وأجيبها بالفرنسية.

– أين أنت؟

– في باريس وليس في أمريكا.

– متى ستعودين؟

– لا أعرف، اسمعي: أنني منهمكة في عملي.

– أواه.

– بلى، أؤكد لكِ ليس لدى مطلقاً الوقت، ثم أنني بعيدة في الطرف الآخر من المدينة.

– أواه، أواه.

– لماذا تقولين أواه، أواه، ألا تصدقينني، اسمعي سوف آتي كي أراك متى استطعت أن أفَرِّغ نفسي، أليس لديك حاجة إلى شئ؟ هل مازال لديك نقود؟

– حسنا، مازال هناك القليل.

– يجب أن أتركك الآن، سوف أحدثك ثانية.

– لماذا تكذبين علي ؟ لن تأتي حتى موتي.

– اسمعي أنا لا أكذب عليك، لن أستطيع أن آتي الآن. سوف أحدثك ثانية.

– حسناً.

– إلى اللقاء.

كُنتُ في خزى من نفسي، فلقد كانت نصف ساعة في المترو تكفي كي أكون هناك مع حورية، ولكن لم يكن هناك من سبب سوى أن فكرة

الدخول إلى شارع جان بوتن كانت تجعلني أتقيأ، فلقد كان ذلك بمثابة حائطاً يفصلني عن هذا المكان.

جاء نونو إليّ ذات صباح، لا أعرف كيف عرف المكان، أظنه قد انتزع الإجابه من أنف ماري هيلين، رغم أنها كانت قد حذرتني منه، أو يكون على الأرجح قد استفهم عن المكان من المستشفى، فعندما كنت ماضية لقضاء المشتريات، وجدته. على الأرجح أنه أنتظر لوقت طويل بزاوية باب مرتدياً قميصه الجلدي فحسب في برد الخريف، فكان ينخر، وكان مزكوماً، وبدت عليه السعادة حين رآني، ولم يكن بوسعي أن أصرفه، فلقد كان خائفاً.
قال: " لقد تغيرتي"

– أحقا ؟ إلى الأفضل؟

فضحك وقال: "يبدو عليك الآن أنك امرأة ".

كان ذلك بسبب الملابس التي كانت السيدة فروماجا قد ابتاعتها لي: بنطالاً لونه أسود، وقميصاً من الصوف على هيئة حرف فيه[17]، ووشاح أحمر طوقت به رقبتي.

أظن أنني كنت في هلع من مقابلة أحد من حياتي الأخرى، ولكنني كنتُ مندهشة لأنني في الواقع كنت فرحة بلقاء نونو.

---

(17) وهو ما نقول عنه في اللهجة المصرية وبعض اللهجات العربية على هيئة رقم 7. (المترجم)

اصطحبني أثناء إجرائي للمشتريات، وكان يحملُ العلبَ، فلقد كانت مناكبه عريضة ورقبته سميكة، وكان وجهه وجه طفولي، وكنت مندهشة من حجمي أمامه، فكان يبدو لي أكثر قصراً مني. رآه التجار لطيفاً، فكانوا يمزحون معه، وكان هناك من قال لي: "أهو أخ لك؟". وللمرة الأولى منذ عدة أسابيع، كنت أمزح، وكأنني أخرج من حلم.

قال لي نونو بعض الأخبار عن شارع جسان بوتن: الآنسة ماير في متاعب، فلقد دخلت الشرطة إلى منزلها، فلأنها لم تصرح بكل سكان الكوخ، هددتها الشرطة بدفع غرامة، وقال نونو: "كانت العجوز الشمطاء تبكي وتقول: إن ذلك ليس خطئي، هؤلاء السود يشبه بعضهم البعض الآخر، فأنا لا أعرفهم" وقلت له: "وخالتي".

كنت ألقب حورية كذلك، وكانت لا تقول شيئاً، كانت توارب غرفتها وتغلقها على الفور، فلقد كانت تخشى الشرطة، وتظن أنه سيتم القبض عليها وإرسالها إلى زوجها، بيد أن العسكر كان همهم الأفارقة، أما نونو فقد هرب من السقف، ولهذا السبب جاءَ إلى هنا. قلت لنونو:

"وأين تقيم الآن؟"

فالتفت نحو المدينة الأخرى، كما لو كان من الممكن رؤيتها من المكان الذي كنا فيه، وقال: "أعارني صديق مبيت سيارات، وهناك أنام فيه..."

– "وأين يكون ذلك؟"

فتأمل، وقال: "إنه أسم غريب، يسمى شارع جافلو"، ثم اظهر لى طرف ورقة حيث كان مدوناً على عجل: "28 شارع جافلو"، فاعتقدت أن ذلك اسم محارب كاميروني. وقال نونو: "في الليل، تمضي الأمور على ما يرام، أما في النهار فالأمر محزن جداً، فأذهب لأتدرب في المعهد الرياضي، لأنني سوف أشارك في بطولة الشهر المقبل، ويقول مدربى أنه سيكون بوسعى أن أمتهن لعبة الملاكمة، وسيعطيني كل الأوراق اللازمة للإقامة".

عندما عدنا إلى المنزل رقم "8"، أدخلت نونو حتى يحتسي القهوة، فكان معجباً بهيئة المنزل، وكان يسير برفق كما لو كان يخشى أن يفرقع أرضية البيت، عبرنا الصالون حتى المطبخ الضخم الأبيض، وكانت دهشته تسرني، فلقد عرفت منذ وقت طويل بيوت الأثرياء، فبعد فيلا السيدة دلاهاى، لم يبدو أى شئ خارقاً، أما نونو فقد كان كالطفل أمام اللعب الجديدة، فكان يتفحص ماكينة القهوة الكهربائية، وحماصة الخبز، ويشدُ الأدراج التي تسير على كرات، وكان يدور السلال الغير قابلة للصدأ، ويقول: "حقا هنا الثراءُ".

- "أيحق يعجبك ذلك؟"

فضحك ضحكته البراقة، وقال: "هذا أفضل من مبيت السيارات الذى أقيم فيه"

وضعت زراعى حول رقبته، وقلت له: "إذا ما غدوت ملاكماً شهيراً سيمكنك أن تشترى منزلاً مثله فتأمل وقال: "إذا ما حدث ذلك، سوف أتزوجك أنت".

كان يبدو عليه الجد إلى حد أنني انطلقت في الضحك، وقلت له: "توقف عن خداعك، عندما تصير ملاكماً شهيراً، ستفكر في أن تتزوج من عروس جميلة شقراء"، فنظر إليّ في عتاب، وقال: "لماذا تقولين ذلك، سوف أتزوج منك أنت".

اعتاد نونو أن يأتي كل صباح تقريباً عدا أيام عطلة نهاية الأسبوع، ذلك أن السيدة فروماجا كانت تبقى في المنزل، وكان يساعدني في حمل المشتريات وكنت أعد له وجبة إفطار بالبيض ومزبدات محمصة وأكواب كبيرة من الحليب الساخن.

لم تكن السيدة فروماجا تقول شيء، ولكن على الأرجح أن شخصاً ما قال لها ذات يوم عن شيء ما، ذلك أن وجهها تبدلَ وأصبحت عنيفة وشريرة معي، فكانت تزجرني إذا ما قلت لها نعم أو لا، وكانت تعود فجأة فيبدو عليها الغضب كما لو كانت قد نسيت شيء، حزمة مفاتيح أو ملف أو أي شيء؛ ولكنها كانت تفعل ذلك حتى تعرف إن كنت مع نونو في المنزل، فأدركتُ ذلك الأمر على الفور، وقلت لنونو ألا يأتي إلى المنزل وأن ينتظرني في الشارع، فسخر مني قائلاً: "إن سيدتك غيورة".

ضايقني ذلك الأمر، بالرغم من أنه أصبح كذلك، وكان لدي إحساس أن شيئاً ما يتمُ تدبيَره، ولم أكن أعرف ما هو. وفي غضون هذه الفترة، سلمتني السيدة فروماجا خطاباً غامضاً. كان مدوناً في أعلاه: "الشرطة القومية. مكتب شرطة الدائرة السادسة عشرة"، وكان ذلك استدعاء لي بغرض

تسوية حالتي، وكانت السيدة فرومجا تعرف ذلك الأمر، فدبرت كل شئ، إذ كانت صديقة لمدير مكتب الشرطة، فقدمت شهادات الإقامة وإقرارات على الشرف، وكان كل شئ مُعد. تظاهرت بأنها تحاولُ أن تُدركَ الأمر، فقالت: "أظن أنهم سيقبلون طلب تسوية حالتك، ثم سيكون بإمكانك الحصول على الجنسية"، فكنت كالمصعوقة، ولم أقدر على قول: "ولكنني لم أطلب شئ"، ثم تذكرتُ زُهرة وزوجها وشقتهم، حيث كانوا يسجنونني على مدار أشهر، ودوار تبريكة، والفئران التي كانت تعدو على السقف وتحدثُ صوتاً بمخالبها على الصفيح، فقلت شكراً" لسيدتي، فعانقتني.

عندما عدت من مكتب الشرطة، بشرتي محمرة، بداية بسبب الطقس الذي كان حاراً، ولأن المُستخدم في مكتب الشرطة كان ملاطفا كثيراً تجاهي، فاستوجب الأمر أن أقص عليها كل شئ، الأوراق التي وقعتها والبصمات الإصبعية، والإملاء[18] وقصة اسمي الذي كان قد أختارهُ لي المستخدم: ليز هنريت، فلقد رأى أن ذلك الاسم يناسبني. ضحكت السيدة فروماجا وضربت يديها، وكانت متحمسة وكأن كل ذلك كان لها هي. وبالطبع، لم أقص عليها حكاية المُستخدم الذى مال إليّ، واضعاً يده فوق عنقي، ثم سألني برفق: " كيف تقول كلمة أحبُكِ بالعربية؟ "، فأجبته "كفي..[19]"، وهي أغلظ كلمة كنت

---

(18) من بين شروط الحصول على الجنسية الفرنسية إجادة الإملاء. (المترجم)

(19) الكلمة التي وردت في النص الفرنسي هي saafi وهي كلمة دارجة تُستخدم في العربية المغربية (صافي) لحث المحاور على التوقف عن حديثه. (المترجم)

أعرفها، لأنها كانت الكلمة التى تصيح بها حورية فى وجه الرجال الذين كانوا يضايقونها فى تبريكة. ولم أقص عليها ذلك لأنه لم يكن بوسعها أن تدرك ما أقول، وكانت لن تدرك كم كان الأمر سيان بالنسبة لى، فلقد حدث فى وقت متأخر للغاية، وأنه ما كان لى أن أمنح هذه الأوراق، بل كانت هذه الأوراق ينبغى أن تُعطى لحورية.

رقت السيدة قليلاً وقالت لى: "لا ترحلى ؟ قولى لى أنك لن تتركينى أقع على الأرض"، كانت تتحدث كحورية وتغادير، الناس كلهم متشابهون.

كان من الممكن أن أمكثُ معها كثيراً، وكان من الممكن أن أبقى معها حتى هذه اللحظة، لو لم يحدث ما حدث تلك الليلة، وأعتقد أنه حتى لو أننى لم أصير فى هذا الوضع الجديد، وحتى لو لم يحدث هذا الشئ، كنت سأمضى أيضا الليل معها. وجدت صعوبة في فهم كيف تم ذلك الأمر؛ وبعد العشاء تحدثنا سوياً. منذ وقت قليل وأنا أشعل معها السجائر الأمريكية ونحن نتحدث، كنا نشاهد قليلاً التلفاز بطرف أعيننا دون أن نوليه اهتماماً حقيقياً، وكان الطقس لايزال حاراً، كان ذلك فى نهاية سبتمبر، وكانت نوافذُ المنزل منفرجة على أشدها، وكان هناك قليلٌ من المطر يتساقط على أوراق الأشجار، وكان كل شئ هادئا فى شارع مريوتيه، ولم يكن يتصور إنسان أن أشياء مخيفة تحدث فى مدينة كبيرة جداً مثل هذه.

أعدت السيدة فروماجا كوب شايها المسائى، واضعة فيه أوراق وزهور بمذاق القلفل والفانليا المُنفرة قليلاً، واستلقيت على الأريكة، وكان

لدى إحساس بأنني أتموج، كلا لم أكن نائمة، ولكنني شعرت بجسدى خفيف جداً، ولم يكن بوسعي أن أحرك ذراعي ولا ساقي، وكان يبدو لي أن وجه السيدة دانٍ مني، براقاً كالنجم، وضحكتها غريبة، وكانت عينيها السوداويين الممتدتين تشبهان عين قطة؛ كانت تتحدث وتكرر بعذوبة: "يا طفلتي الصغيرة !، يا طفلتي الصغيرة!" كما لو كانت تموء. أحسست بيدها الجافة والحارة تتدحرج على جلدى من خلال قميصي المفتوح، وأخذت تعبث في أزرة ثديي، فكان قلبي يدق ويتحطم، وكنت أنصتُ إلى صوتها الذى كان يخرخر قائلا: "يا طفلتي الصغيرة!"، وأردت أن تتوقف وأن تصمت وأن تختفي، أردت أن أعود إلى مكان لا يكون فيه أحد، كنت أبغى دار المقابر التي كنت أذهب إليها أمام البحر، عندما كانت الشمس تبرق في النصب التذكاري، في العشب، النصب التذكاريسة التي لاتحمل اسماً، والعصافير الملقة في الريح بأجنحتها الحادة المشابهة للمناجل الكبيرة.

عندما استيقظت في الصباح، كان فمي جافاً وكنت أشعر بألم في وجهي، ولم أتذكر جيداً ما حدث، فلقد نمت على أريكة الصالون وتدثرتُ بقميص حمام السيدة المصنوع من الحرير الياباني وما أزعجني بداية، هو رائحة الجلد الروسى التى كانت تصدعُ رأسي، فجلت هنا وهناك عبر المنزل الخالي مصطدمةً بالأثاث، ولم أكن أعرف عما أبحث، فلم يكن بوسعي أن أفكر في شئ. أعددت الماء الساخن لقهوتي، ثم دخلت الشمس إلى المطبخ، وفي

الخارج كان الجو رائعاً، فالكرمة الخالية من الثمر أخذت تصهب من خلال إطار النافذة، وكانت هناك مجموعة مؤلفة من عصافير الدوري تعقمق.

وفجأة، وبينما كنت أحتسي قهوتي، أصبح كل شئ واضحاً أمامي: ينبغي عليَّ أن أرحل عن هذا المكان، وكنت أشعر بقلبي يدق بشدة، وكان ألم جبهتي يشتد، وعدت للخلف فقلبت مقاعد، وكنت أردد: "العجوز الشمطاء ! العجوز الشمطاء ! " مثلما كانت تقول ماري هيلين عندما كانت تتحدث عن الآنسة ماير.

الآن أتذكر ما كانت تقصه عليّ لالا أسماء، فلقد كانت تقول: لاتشربي من شاي شخص لا تعرفيه لأنك بهذا تشربين شيئا لاتريديه"، وكانت تحدثني عن رجل كان يدعو الفتيات لاحتساء القهوة ويجعلهن تشربن دواء حيوانات، وعندما كن ينمن، كان يحملهن لديه ويغتصبهن ويقطع رقابهن.

وتذكرت الشاي الذي كانت السيدة تعده لي وعينيها السوداوين اللتين كانتا تبرقان بينما كنت أترنح برأسي. بالأمس، على الأرجح، أنها أكثرت من دواء الروهيبنول ففقدتُ الذاكرة، كنت أمقتها، فلقد خدعتني، ولم تكن صديقتي، بل كانت شخصاً ما كالآخرين، مثل زُهرة والسيد دلاهاى ومثل المُستخدم في مكتب الشرطة، فكنتُ أبغضها، وكان من المفترض أن أقتلها، " الغبية، الغبية العجوز".

ارتديت ملابسى، الجينز والقميص الصوفى الذى جئت به، ثم ألقيت بلا تريث كل ما ابتاعته لى السيدة فروماجا: السلسلة الذهبية الصغيرة مع الشارة التى حُفر فيها اسمى، وألقيتها فى المرحاض وجذبت طرادة الماء، ولكن نفير المياه لم يفلح فى ابتلاعها، ثم بحثت عما يجب أن أفعله كى أنتقم لنفسى، ولم أرد أن أسرق شئ، لم أرد أن أخذ أى شئ من عندها، وأردت فحسب أن أمحوها من ذاكرتى، هى وروائحها. ذهبت إلى مكتبها، وشرعت فى إلقاء كل كتبها على الأرض، وكنت أخذ الكتاب من على المكتبة، وأنظر فى العنوان، ثم ألقيه فى وسط الغرفة، ثم أصابنى جنون، فمضيت فى تطيير الكتب تدريجياً بسرعة، فأحدث ذلك ضوضاء شديدة، ضوضاء أوراق تتمزق، وكانت الكتب تصطدم بالحوائط. فعلت نفس الشئ فى صورها وفى خطاباتها وفى أوراقها، وأظن أننى كنت أتلفظ بكلمات فى ذات الوقت، كنت أصرخ وأسبها بالعربية، وبالفرنسية وبكل ما أعرف، فجعلنى ذلك على ما يرام.

عندما فرغت من هذا الأمر، أصبح مكتب وصالون السيدة يشبهان حقلاً بعد إعصار، وحينئذ أخذت حقيبتى ومذياعى القديم ورحلت.



28 شارع جافلو

كان شارع جافلو بمثابة المكان الأكثر غرابة في مدينة باريس؛ ففي البداية لم أصدق أنه موجود؛ وعندما جاء نونو يستقل دراجته النارية ليبحث عني (أو بالأحرى بالدراجة التي استعارها) ثم دخلنا تحت الأرض، ظننت أنه يأخذ طريقاً مختصراً وأننا نعبر نفق، ولكن الشارع كان مستديراً تحت الأرض في رواق مبني بالخرسان، تقع على جانبيه أبواب مبيت السيارات، وكان صوت الدراجة يدق كالجحيم؛ وكانت هناك سيارات تسير فيه مشعلة فوانيسها مستخدمة منبهاتها. وبسبب ما حدث، كنت منهكة، فالتصقت في قميص نونو، وانتابني إحساس بأنني مشردة، فلم أعد أعرف إلى أين أذهب وماذا سيحدث لي، و أظن أن دواء الروهيبنول لم ينتهي تأثيره بعد حتى هذه اللحظة.

بعد ذلك، هويت طريحة الفراش؛ وكانت شقة نونو الكائنة أسفل الأرض صغيرة، ولم يكن بها ضوء على الإطلاق، اللهم إلا شعاع يمر من خلال جُب فيصل حتى المطبخ؛ وفي الواقع لم تكن بشقة، إنما كان مبيتاً للسيارات أو قبواً تم تهيئة مرحاض فيه لكل الدور تحت الأرضي وكذلك مطبخ. أما بقية المساحة، فكانت موزعة إلى خلايا من الأسمنت بها أبواب ثقيلة من الحديد المخطط بالخدش وأسقف من القُبب، ولكن ذلك كان شيئاً حسناً بالنسبة لنا، لأننا لم نكن نستمع إلى الضوضاء، إلا صوت شبكة المجاري من آن إلى آخر، أو صوت مراوح التهوية. لم أكن أدرك ماذا ألم بي، فظللت راقدة طول الوقت تقريبا على الفراش الذي وضعه نونو في غرفته من أجلي وحدي؛ أما هو فكان ينام في الصالة. كان ذلك بالأحرى مبيتاً للسيارات، أرضيته الأسمنتية مطلية بلون رمادي، وعليه باب كبير بمصراعين. فضلاً على ذلك، كان يودع فيه دراجته، وكان ينام على الأرض على فراش من الكرتون الورقي.كان نونو عطوفاً، فلقد أعطاني غرفته، وكان يأسف لرؤيتي في حالتي هذه جامدة على الفراش؛ وكنت أشعل الغليون، ثم أسعل. كنت خائرة القوة، ولم أكن أقدر حتى على تحريك ذراعي أو على أن أدير رأسي؛ و لم أعد أتناول الطعام، فلم أكن أشعر بالجوع على الإطلاق. في بعض الأحيان كان الرعب يملأ فمي، فكان عليّ أن أميل إلى جانبي حتى أبصق، ولم تكن الدورة الشهرية قد أتتني بعد، ولقد حدث كل ذلك وكأن كل شئ توقف في داخلي.

كان نونو يقول إن ذلك قدرٌ، كان يبدو عليه أنه يدرك أمرى، قال لى ما يجب فعله: إلقاء الملح فى النار، وضع ريش أو قـذاة، رسم علامات على الأرض، النفخ فى الدخان؛ فكنت أستجيب لكلامه، وأصدق أى كلام يقوله وأى ضحكة يطلقها، فلقد كان هـو الشخص الوحيد الذى يربطنى بالعالم. عندما كان يعود من التدريب، كان يشتم الشارع، العرق وغاز الدراجات، فكنت أمسك بيده، يده المربعة بأناملها القاسية وجلد كلية يده الناعم كالأكرة المتنفذة وأقول له: "قص علىَّ كل ما رأيته بالخارج، وكل ما يحدث فى الشوارع"، فكان يقـول لى أنه رأى حادثة، أو أن شاحنة اصطدمت بسيارة بالية فاقتلعت جناحها، وكان يقص أنـه رأى اسكوتلنديين يعزفون مزمار القربة، وأنه رأى مارى هيلين، وكان يأتينى بأخبار عن شارع جان بوتن، وكنت أسأله: "وخالتى حورية؟"، فكان يهز رأسه ويقول: "لم أراها، ولكن يبدو أن السيدة فرو..." و لم يكن يقدر على ذكر الاسم، فلقد كان ذلك يضحكه، ويستطرد: "ربة عملك، يبدو أنها تبحث عنك، إنها تحنق عليك حتى الموت، إنها هى العجوز الشمطاء التى ألقت اللعنة عليك، سوف أقتلها". لم يقل نونو لأى شخص حتى لمارى هيلين أننى أقيم لديه. ولو أن السيدة كانت قد عثرت علىّ لألقتنى من باب فرنسا وكأنى مجرمة، رغم أننى لم أسرق منها أى شئ، بل هى التى سلبتنى شيئاً ما وكذبت علىّ.

كانت تأتينى كوابيس فى نومى، ولا أعلم إن كانت تأتى فى الليل أو فى النهار، فكنت أرى أننى فى بطن حيوان كبير يهضمنى ببطئ، وذات

يوم، صحت وجاء نونو، فداعب طالعي، وكان يحدثني برقة كأنه يحدث طفلة، وعندما أراد أن يعود إلى كراتينه، مسكته وضممته إلى بقدر ما استطعت، فشعرت بعضلات ظهره كأنسها أحبال، اتجه إليّ وأطفأ المصباح، وكنت أطوق كل جسده، وكان يرتعش ولم أعرف لماذا، فبدا لى ذلك الأمر غريباً، فهو يرتعش ولست أنا التي ينتابها خوف، ولم نفعل شيئاً هذه المرة، رقدت فقط وجهي إلى وجهه؛ و لم يكن نونو يتحرك، فلقد طوقني بذراعه وراح يتنفس في رقبتي. وذات مساء، ضاجعني برفق، ثم اعتذر لى وقال: "هل آلمتك؟ "، وكانت هذه هي المرة الأولى بالنسبة لى، ومع ذلك لم يدهشني ذلك الأمر، فلقد كان لدي إحساس بأنني أعرف ذلك منذ وقت طويل جداً.

ثم مضى كل شئ يتحسن قليلاً في حياتي، فأخذت في التحرك من فراشي، وذهبت إلى المطبخ، ثم سألت نونو ساعة الإفطار: "هل الطقس جيد؟" فرد: "انتظرى سوف أذهب كي أرى "، ثم دفع المنضدة الصغيرة، وفتح كوة الباب، وتمكن ثانياً جسده من إخراج نصفه حتى الجُسب الذى كان يجلب شعاع الضوء، ثم عاد والعرق على قميصه وقال: "السماء كلها زرقاء "، وأراد أن أصعد معه فوق دراجته كي نمضي لنقوم بجولة.

عندما عاودت الخروج إلى الشارع للمرة الأولى، صعدت السلم الواقع بجوار باب مبيت السيارات، ثم المصعد الكهربائي وصعدت حتى أعلى المبنى. كان ذلك في الصباح، فلقد مضى نونو إلى صالة التدريب، وكان كل شئ ساكناً، اللهم إلا الهزة في كل طابق من المبنى، وصعدت عالياً حتى الطابق الرابع

عشر، كان هناك مكاتب و شركات تأمين و محامون وشركات سفن، أو شئ من هذا القبيل، دخلت إلى المكاتب، ودون أن أتوقف، سرت حتى الزجاج الكبير، فرأت الكاتبات هذه الفتاة السوداء في كومة شعرها وفي بنطالها الجينز البالي ونظراتها المصوبة إليهن، فانتابهن خوف شديد، وأظن أنه للمرة الأولى أدركت أنه بوسعي أن أخيف إنساناً .

اتكأت إلى الزجاج ونظرت؛ ولمدة لحظة، ظللت متجمدة من الدوار الذى انتابني، فلم أكن قد رأيت في حياتي قط مدينة أعلى من هذه المدينة: فلقد كانت هناك أسقف ومباني وشوارع عريضة لايدركها البصر، وميادين وحدائق، وأبعد من ذلك التلال، وحتى تعرج النهر الذى يتلألأ في الشمس؛ كان ذلك مشابه لأعلى الشلال في دار المقابر أمام البحر مع طيور النورس التي تحلق في واجهة السماء. كان هناك دخان وهياكل سيارات تتلألأ صغيرة كالجمران. أحدثت فيَّ الضوضاء دواراً، دوى صامت ومستمر يصعد كل شئ في آن واحد تخترقه أجراس تنبيه سيارات وصفارات إنذار الشرطة وعواء الإسعاف. كانت يدى موضوعة على الزجاج السميك، ولم أستطع أن أبعد نظرى عما أراه. كانت السماء تعبرها سحابة كبيرة سوداء، وكانت هناك أشعة الشمس في جانب وقطرات المطر في جانب آخر، وأقسم لكم أنني لم أر منظراً أبدع من ذلك.

سمعت صوتاً خلفي، صوت آن قليلاً، فكانت هناك امرأة تقول لى برقة: " آنستى، آنستى، ألا تشعرين أنك على ما يرام ؟"، ولكنني لم أفهمها

على الفور، التفتُ، ونظرتُ إليها ضاحكة، وكانت هناك دموع في عيني لأنني أحسست أنني سعيدة فجأة، وقلت لها: "كلا تمضي الأمور بخير، تمضي الأمور بشكل حسن للغاية، أنا، أنا أردت أن أستمتع بالمنظر"، ولم تسكن من روعها ابتسامتي، على ما أظن، ذلك أنها تباعدت. كانت شابة، شاحبة، شعرها طويل أشقر، وعيناها خضراوين. كان بصحبتها نساء أخريات، إحداهن بدينة قليلاً وأخرى تشبه السيدة فروماجا، ومن المحتمل أنهن قد استدعوا الأمن لأنني عندما خرجت من المكتب نحو المصعد الكهربائي، فتحت الأبواب المعدنية، فخرج رجل يتفحصني بتمعن، كان يرتدي زياً أزرق اللون، ويحمل أصفاداً على زناره، ثم دخلت المصعد وأغلق بابه. كنت متعبة، ثملة قليلاً، وعندما بلغت مبيت السيارات في الطابق تحت الأرضي، تمددت على الفراش، ونمت قسطاً كبيراً من النهار، حتى أن نونو، عندما عاد من صالة الملاكمة، لم يوقظني. نظر إليّ وأنا نائمة، جلس وظهره متكأ إلى الحائط دون أن يحدث ضوضاء كما لو كان أخي الأكبر.

بعد ذلك، عاودت الخروج، ولم أنتبه إلى أنني كنت سجينة طوال هذا الوقت. في الخارج، كانت السماء شاحبة وكانت الشمس تدلف أسفل الغيوم، وكان الطقس بارداً حتى الأشجار على حافة نهر السين تغيرت، فأوراقها الصفراء كانت تسقط مع الريح.

فكرت في حورية، و ما إن تمكنت من السير، ذهبت سيراً على الأقدام في اتجاه جار دي ليون[1]، وكنت أشعر بالبرد، فأعارني نونو قميصه الجلدي العريض كثيراً من على المنكبين، وكنت أحب كثيراً هذا القميص، فكنت أشتم فيه رائحة نونو، وكان بالياً من على الأكواع، وكان لدي إحساس أنه يحميني كنوع من الآلات الواقية.

كان شارع جان بوتن على حالته المعهودة عنه دوما، حتى أنه كان يخيل لي أنني رحلت عنه بالأمس فقط: الفنادق البائسة، أكياس القمامة، العصابات، وفي نهاية الشارع، قبل الطريق المسدود، يقع باب المبنى في حديده الأسود وزجاجه القذر. طرقت الباب، ثم جاء رجلٌ أسودُ لا أعرفه ليفتح لي الباب، كان قصيراً ونحيفاً، به لحية صغيرة، و نظر إليّ دون أن يقول شيئاً، ثم أتجه نحو المطبخ حيث كان يغسل الأواني. كانت ماري هيلين تحتفظ برجال في خدمتها، وكان باب الآنسة ماير مواربا والضوء مشعلاً، فعبرت الممر دون أن أحدث صوت وطرقت باب الغرفة.

عندما جاءت حورية نحوي، وجدت صعوبة في التعرف عليها، فأصبحت بدينة جداً، وكان هناك ازرقاق دائري أسفل عينيها، ولكن طالعها توهج لرؤيتي، وقالت لي: " كنت أنتظرك، رأيت في نومي أنك ستعودين اليوم"، كان ذلك هو ما تردده دوما، فقلت لها: "أترين، ها أنا أتيت إليك".

---

(1) من كبرى محطات القطار في باريس. (المترجم)

لم تسألني عن شئ، ماذا فعلت، وأين ذهبت، فربما بالنسبة لها، هي المَروعة في أعماق هذه الشقة، الوقت لم يكن يمر بها بسرعة، وقالت: "كنت أتألم كل يوم، وأقول لنفسي كل يوم: هل ستأتي اليوم، هل ستهتف لي؟"

في خلال بضعة دقائق، جمعت كل الأشياء، وضعت الغسيل في الأكياس، الأدوية، علب الخرطال، وكل شئ؛ وكانت حورية متوجسة كثيراً من الخروج لأنها منذ شهور لم تُسدد الإيجار، أما أنا، فلم أعد أخشى الآنسة مايو، ولا أي إنسان. حينما خرجت، قرعت الباب بشدة حتى أن قطعة جبس من السقف هوت في السلالم، و كنتُ سعيدة، وانتابني إحساس أن حياة جديدة في طريقها للبدء. وضعت يدى على بطن حورية وقلت لها: "أيتحرك جنينك؟"، فمشت ببطئ متذمرة: "نعم إنه لايتوقف، إنه شيطان صغير".

في الأيام الأولى بشارع جافلو، كان الأمر بالنسبة لي بمثابة عيد، فلقد كنت سعيدة للغاية للعثور على حورية التي لم أعد أتركها. أحضر نونو آلة صوتية كبيرة وكل مايلزم وتلفاز ملون له شاشة كبيرة، وعندما سألته أين وجد كل ذلك، تحاشي السؤال بضحكته، ثم ملئت الموسيقى حوائط مبيت السيارات. ثم دعا أصدقاء أفارقة، وأخذنا نرقص على صوت الشرائط، على إيقاع الموسيقى الأفريقية، الراى والرجاج والروك، ثم أخرج أصدقائه طبولهم المعروفة باسم دجون – دجون وشرعوا في دقها، وكانت هناك أيضا آلة موسيقية غريبة، السانزا التي حملها حكيم، رفيق نونو، في خُرج، وكانت

على هيئة قيثارة منمنمة تحدث صوتاً متدحرجاً عذباً يبدو وكأنه يأتي من كل الاتجاهات في ذات الوقت.

شربنا الكوكا مع عرق قصب السكر والفودكا والبيرة، وكانت حورية تشعل سيجارة من سيجارة وهي تجلس على الأريكة في وضع إنسان متعب، ثم حاولت أن ترقص كما تعرف وهي تقرع الأرض بأخمص قدميها، متواركة، لكن بطنها المكتنز وثديها المنتفخ كانا يمنعاها؛ وللمرة الأولى منذ وصولها إلى هذا المكان، كانت تضحك، فلقد نسيت كل شئ، شارع جان بوتين والعجوز الشمطاء. كانت الموسيقى تصعد من الأرض، وتهز كل حوائط المبنى، وتدق في أعلى واحد وثلاثين طابقاً، حتى الشوارع المجاورة، شارع شاتو دي رانتيه، تولبياك، جان دارك، حتى مستشفى السالبتريير وجسار دي ليون. كانت الموسيقى تضع لوناً رملياً أحمر على الجدار من أرض أفريقيا، وكان حكيم يعزف، جالساً في ثوبه، مائلاً إلى السانزا، والعرق يتصبب على وجنتيه ولحيته الصغيرة، فكان يبدو عليه أنه ساحر. أما نونو، فكان عارياً تقريباً، لامعاً من العرق، وكان يقرع بأطراف أصابعه على الطبول، وحورية كانت تفرقع بأخمص أقدامها العارية على الأسمنت مع دقات أسورتها النحاسية.

كان المصعد الكهربائي معطلا، فأمسكت بحورية على السلالم إلى أعلى المبنى حتى الباب الذي يؤدي إلى الأسقف عن طريق سلم الإطفاء الصغير، وكان نونو قد كسر القفل. كان الليل قد جاء، ولكن، في باريس

لايخيم الليل تماماً، فلقد كان هناك ضوء أحمر يشبه الفقاعة فوق المدينة؛ ثم جاء حكيم ونونو يلحقون بنا، وجلسنا على حصى السقف بالقرب من منافذ التهوية، وأخذ نونو يدق الطبل، بينما كان حكيم يعزف على آلة السنازا. كنا نغني ونقول: آه، اوه، اهو، اهيه، اهيه، ياوه، يا.. فقط، وبعذوبة شديدة، فلقد كنا في مقتبل العمر، ولم يكن لدينا نقود، ولم يكن لدينا مستقبل، وكنا نشعل الغليون باستمرار؛ ومع ذلك فكل هذا، السقف، السماء الحمراء، نخير المدينة، الحشيش، وكل ذلك، وهي أشياء لم تكن ملكا لأحد، لكنها كانت في حوزتنا.

ثم كنا نفعل هكذا كل مساء، فلقد كان ذلك بمثابة دار عرضنا المرئية. وفي النهار، كنا نظل مختبئين تحت الأرض كالصراصير، وفي الليل، نخرج من جحورنا، ونذهب في كل مكان، في ممرات المترو، في محطة تولبياك، أو أبعد من ذلك، حتى محطة أوستيرليتز. كان حكيم، رفيق نونو، يبيع بضائع من أفريقيا السوداء: حلي، وعقود وأدوات زينة، وكان يسخر من ذلك الأمر، فكان يقوم به ليسدد مصاريف دراسته في الكلية في جامعة باريس السابعة، وكان يقيم في المدينة الجامعية بانطوني[2]. كان يحدثني عن جده الحاج مافوبا الذى كان يعمل قناصاً في الجيش الفرنسي، والذى شارك في الحرب ضد الألمان. وفي ممرات المترو، كل الطنطن يدق كل

(2) إحدى الضواحي الباريسية. (المترجم)

مساء في محطة بلاس ديتالي، وفي محطة اوسترليتز، والباستي، واوتيل دي فيل، وكان ذلك يُحدث دوراناً في الممرات، صاخباً حيناً كهبوب عاصفة، وحيناً آخر رقيقاً ومنتظماً كقلب يدق.

كنت أعرف كل الموسيقيين، فكنت أنتقل من محطة إلى أخرى، وأجلس متكئة إلى جدار ثم أنصت إليهم. وفي محطة اوسترليتز، كانت هناك مجموعة من الولفز[3]، وفي سان بول، كان هناك عازفون من مالي ومن الرأس الأخضر[4]، وفي محطة توليبياك، كان هناك الأنتيين والأفارقة، وكان كل هؤلاء يعرفونني، فعندما كنت آتي إليهم، كانوا يشيرون لي، و يتوقفون عن العزف حتى يصافحوني بأيديهم، وكانوا يعتقدون أنني أفريقية أو أنتيية، وأنني صديقة نونو الصغيرة، وربما هو الذي كان يفخر بأن يقول لهم ذلك.

وفي هذه الفترة أخذت أخرج مع حكيم، فكنت أذهب كي ألقاه في محطة توليبياك أو في اوسترليتز، وكنا نسير في الليل على غير هدى، في الريح الباردة، فنذهب نحو النهر، وكان حكيم يتحدث عن نهر السنغال الكبير، و لم يكن قد رآه البتة، غير أن والده كان قد حكى له عندما كان حكيم طفلاً عن ماء النهر البطيء جداً، وقطارات الرمال التي تنزلق نحو البحر. أما جده الحاج، المكفوف، فكان يحدثه أحياناً عن النهر في كلمات

---

(3) قبائل يتميز أفرادها بشدة سواد البشرة ويعيشون أساساً في الشمال الغربي من السنغال، ويتحدثون لغة تسمى لغة الولوف. (المترجم)

(4) دولة أفريقية صغيرة تقع غرب السنغال، ولغتها هي البرتغالية. (المترجم)

دقيقة جداً وواقعية جداً وكأن الماء الوحل الأصفر يمر من أمام عينيه وبه زوارق محملة بالنساء والأطفال تحلق أمام مقدمتها طيور القُبَّر[5]؛ وكنت أتحدث بدوري عن مصب نهر بو رجرج، كما لو كان ذلك مشابهاً للنهر الذي يحكي لي عنه، لأنه كان النهر الوحيد الذي أعرفه، وهو الذي رأيته لأول مرة عندما غادرت منزل لالا أسماء، وكنت أعبره كل يوم كي أعود لدوار تبريكة.

كنا نجلس في المقاهي ونتحدث؛ كان حكيم طويلا ونحيفاً، أنيقاً دوما في حلته السوداء؛ كان يقص عليَّ أشياء غريبة. وذات يوم، حمل إليَّ كتاباً يبدو بالياً وطَالَعَتهُ أعدادٌ من الأيادي المتسخة بالدهون، وكان عنوانه المعذبون في الأرض، وكان مؤلفه يدعى فرانتز فانون[6]؛ وقدمه حكيم إليَّ وقال في غموض: "طالعيه، ستدركين كثيراً من الأشياء"، و لم يسرد أن يقول لي ما هي هذه الأشياء، ووضع الكتاب على منضدة المقهى أمامي، ثم قال: "عندما تتمين مطالعته، يمكنك إعطائه إلى شخص آخر"، فوضعت الكتاب في حقيبتي دون أن أسعى لمعرفة المزيد منه.

---

(5) جمع قبرة، والتي تعرف أيضا بالقنبرة. (المترجم)

(6) فرانتز فانون Frantz Fanon كاتب مارتينيكي الأصل ولد عام 1925 وتوفي عام 1961، عُرفت كتاباته بنزعتها الثورية المناهضة لفكرة الاستعمار، ومن أهم مؤلفاته: "المعذبون في الأرض" 1961 و "البشرة السوداء" 1952 و "أقنعة بيضاء" 1952 وكتابه "من أجل الثورة الإفريقية" الذي نُشر بعد مماته 1964 . (المترجم)

لم يكن حكيم يحب نونو، وكان يقول أنه كالعصفور، يحجل ويلهو ويتمطر، وهذا كل ما يمكنه عمله، ولم يكن يحترم حتى مهنة الملاكمة، وكان حكيم يقول أن نونو مختل عقلياً، حجسر في يد الفرنجة أو لُعبة، وعندما يُكسر سوف يلقى به الفرنجة في سلة القمامة. كان حكيم يلقبه بالطُفيلي لأنه سمح لنفسه أن يقيم عن طريق صديق له، بغضت حكيم، ذلك لأن نونو لايستحق أن يقال عنه السوء، وكان هناك شئ لم يرد حكيم أن يقوله لى، شئ ما فى حياة نونو؛ ولمرات عديدة حاول أن يحذرني منه، فبداية قال لى: " أتعلمين ماذا يعني أن يكون المرء معتوهاً؟ "، فقلت له: "عندما يكون مجنوناً، أليس كذلك؟ "، فأطلق حكيم بسمته الساخرة الشهيرة قائلا: "إنه جواب ردئ ولكن ربما جوهره ينطبق عليه"، و لم يُرد أن يستمر فى الحديث عن هذا الأمر.

ذات يوم من أيسام الأحد، بينما كانت السماء تمطر، اصطحبني حكيم إلى بورت دوريه[7] حتى نشاهد متحف الفنون الأفريقية، وأظن أنني لم أذهب من ذى قبل إلى متحف.

وفى المتحف، كان حكيم منفصلاً، إلى درجة الهوس، ولم أكن قد شاهدته كذلك مطلقاً. مسك يدى وقال: "أنظرى إلى الأقنعة المزيفة"، وكان يتحدث بصوت خفيض قليلاً، ومختنق، ثم استطرد: " أنظرى يا ليلى، إنهم

---

(7) على أطراف مدينة باريس. (المترجم)

نسخوا وسرقوا كل شئ: سرقوا التماثيل والأقنعة، وسرقوا الأرواح وسجنوها هنا في هذه الحوائط، كما لو أن كل ذلك لم يكن سوى أدوات زينة، ومجموعة أسلحة، كما لو كانت أشياء تُباع في مترو تولبيساك، ورسوم ساخرة، ومواد بديلة"، فلم أدرك جيداً ما كان يقول، وأحسست بيده التي كانت تطبق على يدي كما لو كان يخشى أن أفر منه، وقال: "انظري إلى الأقنعة، يا ليلى، إنها تشبهنا، إنها سجينة وليس بوسعها أن تعبر عن نفسها، إنها منزوعة الإرادة، مع أنها في ذات الوقت هي أصل كل ما يوجد في العالم، إنها محفورة في التاريخ عبر الزمن، كان لها وجود بينما كان سكان هذه البلاد يعيشون في الجحور تحت الأرض، وجوههم مسودة من السناج[8]، وأسنانهم مهشمة نظراً لنقص الغذاء"، ثم اقترب من الواجهات الزجاجية وأسند قبضة يده عليها، ومضى يقول: "آه يا ليلى، ينبغي إطلاق سراحهم، يجب حملهم بعيداً عن هنا، ينبغي حملهم إلى المكان الذي سُلبوا منه، في ارو شيكو، في ابوميه، في بورجوز، في كونج، في الغابات، في الصحارى، في الأنهار". فجأة، اقترب الحارس منا، مرتاباً من رنين صوت حكيم، ولقبضة يده التي كانت تدق على الواجهة الزجاجية، فاصطحبني حكيم بعيداً عنه، ثم توقف أمام دولاب خشبي معروض فيه أطراف فخار مكسور، أعواد حفر، شئ من مجرفة مصنوعة من الخشب، وقال: "انظري يا ليلى: أقلُ شئ من بلادنا يساوي كنز أو جوهرة رائعة"، ورأيت قناعاً له فم ثائر، قناعاً سونجيا يشبه

(8) السناج هو سود الدخان. (المترجم)

الموت مثقوب ببثر، ورأيت الدمى الأشنتي منتصبة كجيش من الأشباح، ورأيت وجه الإله فانج المريض بعينيه المغلقتين وكأنه يحلم. كنتُ أشاهدُ الشقق وأطرافَ الخشبِ المسودة و المستنفذة من جراء الأيدى التى سلخها الزمان. لم أعرف ماذا كانت تقول اللافتة الموضوعة بجوار هذه الأشياء، شئ يتعلق بالأشنتي على ما أعتقد. انطلق حكيم يقول: "ها هي عظامنا وأسناننا، أترين، ها هي قطع من أجسادنا، إنها تحمل نفس لون جلدنا، إنها تلمع ليلاً كأكواب براقة"، و ربما كان حكيم أيضاً مجنون. ولكن ما كان يتفوه به كان يجعلني أرتعش، فلقد كان قوله عميقاً كالحقيقة. دلفنا أيضاً في المتحف، أمام التروس والطبول و الأصنام، وكان هناك أيضاً زورق مصنوع من الخشب أكلته ديدان الخشب، وكأنه وضع هنا بعد حادث غرق، عندما تم نزح مياه النهر المجهول.

لكن صوت خطوات الحارس الخفيض كان يضايق حكيم، فخرجنا على عجل من المتحف؛ كان حكيم يختنق من الحنق، و قال لي: "هل رأيتني؟ إن الحارس يراقبني كي لا أسرقَ شئ، ولكي لا أخطف مهرولاً عظام أجدادي". كان يبدو عليه التعب، ويبدو شيخاً كبيراً ؛ وقال ثانية: "هل رأيتي ؟ هذا الحديد المطروق وأعمدة الدرابزين في شكل..، لا أعرف ماذا، الرماح أو السهام أو ملابس بانتيا".

بعد ذلك، استقلينا القطار حتى إيفري – كوركورن لكي نعودَ جدّةً.

كان الحاج مافوبا يعيش بمفرده في مبنى كبير أبيض في اتجاه منطقة فيلابيه[9] بالقرب من الطريق السريع، وكان المصعد الكهربائي معطلاً، وكان باب المدخل مهشماً، وبلاط السلم كان مذوداً بصفائح معدنية، وكان هناك أطفال في كل مكان من المبنى؛ وبينما كنا نصعد السلم، رأينا طفلاً شديد البدانة أبيض البشرة يهبط أربع درجات من السلم بعد أربع، وسمعت صوتاً أجشاً للغاية قادم من امرأة كانت تنادي: "سلفادور ادوشد فاس؟"، كما كان هناك شباب عرب يشعلون الغليون جالسين على درجات السلم، وإلى أعلى قليلاً، كان هناك فتاتان تهبطان السلم، وطفل أشقر يضع نظارة وكان يصيح: "تبا لكم ! انتظروني، أنا الذى أخرجتكم"، بينما كانت الفتيات يرددن عليه قائلين: "بسببك أنت، أيها الغبي الصغير، لم نخرج إلا الساعة السادسة".

كان العجوز يجلس في غرفته وحيداً، يجلس على مقعد من الحديد أمام النافذة وكأنه يمكنه أن يرى الخارج. قال حكيم: "صباح الخير ياجدى"، فوضع الحاج يديه على وجه حفيده، وابتسم ثم مد رأسه وقال: "هل أحضرت شخصاً ما معك ؟"

ضحك حكيم. "إنَ أذنك دقيقة ياجدى، لا يمكن للمرءِ أن يخدعك، ياجدى"، فقال الحاج: "من هذا؟"

---

(9) ضاحية من ضواحي باريس الجنوبية. (المترجم)

اقتادني حكيم إليه، ووضع الحاج يديه على طالعي مزحلجاً إياها برفق على طول وجنتي ولَمَسَتْ أصابعهُ المنفرجة جفوني وأنفي وشفاهي، ثم تمتم: "إنها تشبه ماريما، فمن هي؟"

تمتمت باسمي، وكان حلقي مشدوداً، فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التي التقي فيها برجل مثير مثله، كان جميلاً للغاية بوجهه ذي لون الحجر الأسود والشبيه بوجه الرقيق، وبشعره الأبيض المجعد والذي يخط تاجاً فوق رأسه. لم يكن هناك مقعداً آخر في الغرفة، ولذا جلست على الأرض أمام الجدار بينما كان حكيم يغلي الماء لإعداد الشاي.

كان الحاج يتحدث برقة وهدوء، في صوت أجش قليلاً، متكئاً على الكلمات التي كان ينتقيها بعناية، و لم يكن يتوجه بكلماته إليَّ بصفة خاصة ولا إلى حفيده، بل كان يتأمل ملياً كما لو كان ينتزع الذكريات من ذهنه، أو كما لو أنه كان يخترع حكاية؛ ثم تحدث ببساطة وهو يرتشف الشاي عما كنت أنتظر منه: نهر السنغال الكبير، الذي يجري فيه الماء الأحمر بصحبة الأشجار المبتورة والتماسيح. كنت أنصت إلى صوته الحنجري تارة والغنائي تارة أخرى، وكان يتحدث عن قريته مسقط رأسه، التي تسمى يامبا، وهي قرية حوائطها من الطين حيث تَخُطُّ النساء عليه وأناملهن مبللة شكل نبات القطيفة[10]. حدثني عن أبيه وعن أمه وعن عشرة أطفال أنجبهم، وعن ضوضاء الأصوات في الصباح، وعنه حينما كان أكثر شباباً، عندما كان يسير لمدة

(10) نباتات ذات فلقتين. (المترجم)

ساعتين حتى يصل إلى مدرسة النهر ويرتل القرآن حتى المساء. وحينما كان يتحدث إلىّ، كان ينغم كلماته ويهز أعلى جسده كما كان يفعل وهو في الثامنة من عمره، فغدا صوته حاداً وواضحاً كصوت طفل.

قال حكيم: "توقف ياجدى، سترهق ليلى..."، وهو واقف بالقرب من الباب كما لو كان سيرحل، فرد عليه الحاج: " كيف أرهقها، إنك أنت الذى لا يريد أن يستمع "، فكان يتوجه إلىّ، ووجهه ملتفت إلى جانب بضيئه الضوء المار عبر النافذة، قائلا: "إنه لايريد أن يقرأ الكتاب المقدس، إنه لايريد سماع الحديث عن الرسول، و لايحب إلا ... ما أسمه؟ كاتبه فانو..."، فقلت: فانو.

– نعم فانو، أعترف أنه يقول أشياء طيبة، لكنه ينسى المهم منها والأكثر أهمية.

ثم صمت كثيرا قبل أن يقول: "وما هو الشئ المهم ياحاج؟"

– أنه حتى الإنسان التافه جداً كنز في عين الله.

وعندما غضب حكيم، صوب العجوز من عبارته بدهاء قائلا: "ولكن دعنا من كل ذلك، إنه لا يعتقد في الله، وأنتِ يا ليلي هل تعتقدى في الله ؟"

– لا أعرف.

– ولكن... كاتبه المفضل فانون يقول أشياء مضبوطة جداً، حقاً يأكل الأثرياء جلد الفقراء، فعندما جاء الفرنسيون إلى بلادنا، أخذوا شبابا

ليسخروهم في العمل في الحقول، وأخذوا فتيات لخدمة مآدبهم ولطهي أطعمتهم وليضاجعونهن في فراشهم لأنهم كانوا قد تركوا نسائهم في فرنسا، ولكي يخيفوا الأطفال السود، جعلوهم يعتقدون أنه بوسعهم أن يأكلوهم. فقال حكيم: "وأرسلوهم إلى المجزرة بفرنسا على ساحات الحرب في تربيول"

فغضب الحاج قائلاً: "ولكن ذلك لم يكن نفس الشئ، فلقد كنا نحارب ضد أعداء البشرية".

- وكنتم تعرفون لماذا ستموتون ؟

- كنا نعرف...

كان هناك صمت بينما كان الحاج يشعل الغليون وهو شارد أمام النافذة المنفرجة، وكان المطر يتساقط في سكينة، وكان الحاج يرتدي قميصاً أفريقياً فضفاضاً أزرقاً شاحباً أطرافه من اللون الأبيض، ولم يكن به رقبة، وبنطالاً أسود اللون، وكان ينتعل حذاءاً ضخماً من الجلد مبرنق باللون الأسود وجوارب من الصوف؛ وكان يجلس صامتاً مستقيماً على مقعده والسيجارة بين أنامله الطويلة.

عندما رحلنا، تحسس الحاج طالعي مرة ثانية، وتحسس عيني وشفتي، ثم قال ببطئ: "عندما تكونين شابة، ياليلى، ستكتشفين العالم، سترين، هناك جوانب كثيرة طيبة في العالم، وسوف تمضين بعيداً كي تجديها"، وقال لي ذلك كما لو كان يباركني، فأحسست برعشة وقشعريرة وحب.

بينما كنا نخرج من المبنى والليل يسقط، رأيت للمرة الأول معسكر البوهيمين على السهل الطيني بين ممرات الطريق السريع، كانوا يشبهون الغرقى في جزيرة.

هكذا اعتدت أن أقوم بزيارة الحاج، فكنت أذهب إليه مرة من كل أسبوع، أكثر من ذلك قليلاً أو أقل منه قليلاً؛ ولحسن الحظ أنه كان لايرقب قدومي أو على الأقل لم يكن يُظهر لي أنه كان في انتظاري. عندما كنا ندخل إلى غرفته الصغيرة، لم يكن يتوجه بحديثه إلى حكيم، وكان يدرك أنني قد وصلت، فيدير رأسه ويقول: "ليلى؟"، ولذلك كان حكيم يقول أن المكفوفين هكذا، لديهم حاسة أخرى، يشتمون الروائح أكثر من الآخرين كالكلاب.

في القطار المتجه إلى إيفري، كانت هناك عصابة من الفتيان والفتيات، تتراوح أعمارهم بين أثني عشر أو ثلاث عشر عاماً بالكاد، وكان بينهم أيضاً أطفال، رثو الثياب، سفهاء، مزعجين، ومع ذلك سعدت كثيراً لرؤيتهم، فكانوا يسلُّونني، وكنت أراهم يتناقلون سيجارة فيما بينهم، و يتقززون، و يلفظون بصوت عالٍ كلاماً بذيئاً ناظرين بطرف أعينهم إلى وقع ذلك على سكان الضواحي الذين كانوا يتذمرون؛ وقبل محطة أيفري بقليل، جاء اثنان من رجال الضبط لإيقافهم، فلاذت عصابة الأطفال بنفسها بالقفز من النافذة على منحدر قبل المحطة بقليل، وتعلقوا في خارج القطار ممسكين بالنافذة من الخارج، ثم فروا وهم يضحكون.

وفي هذه الأثناء التقيت بجيانيكو.

كنت أترك مبكراً "سجن" جافلو وأمضي أعمل لمدة ساعة أو ساعتين في الحي، فلقد كنت أقوم بأعمال النظافة لدى بياتريس التي كانت تعمل محررة في جريدة في الدائرة الخامسة[11] وكنت أعمل أيضاً لدى زوجين محالين للمعاش بشارع جان دارك، وكانت حورية تبقى في المنزل كي تقوم بطهي الطعام، كانت تخرج قليلاً في وقت الظهيرة تقريباً، لتتنزه بمفردها يصاحبها بطنها المنتفخ في حديقة المباني التي تقام فوق المنزل الذي تقيم فيه، وأثناء ذلك تعرفت على السيد ڤي، وهو فيتنامي كان يدير مطعماً في حينها.

ولم أكن أرى نونو كثيراً، فعندما كنت أترك المنزل، كان لا يزال نائماً في صالة مبيت السيارات على أوراق الكرتون؛ ومنذ المرة التي احتضنني فيها بعد قدومي إلى مبيت السيارات، لم أدعوه كي ينام أمامي، فلم أكن أرغب في ذلك، كما أنني خشيت أن يغدو هذا الأمر قصة بيننا، إذا ما تبينتم ماذا أريد أن أقول؛ وأظن أن هذا الأمر جعله حزيناً للغاية، لكنه ظل عطوفاً عليَّ وكأن شيئاً لم يكن.

بعد الظهر كنت أمضي للقاء حكيم في مقهى بجوار جامعة السربون؛ كان حكيم يلقبها بمقهى "اليأس"، وكان يقول إنها تشبه مدخل الجحيم؛ كان يحمل الكتب والكراسات وكنت أشرع في القراءة، فلقد رأى أن

---

(11) الدائرة الخامسة من باريس هي الدائرة التي تنتشر فيها أكبر الجامعات والمدارس الفرنسية وأهمها جامعة السربون وكوليج دي فرانس. (المترجم)

أجد في خطواتي وأتقدم للثانوية كطالبة حرة أو إلى دراسة القانون إذا ما استطعت؛ وفي مجال اللغة الفرنسية والتاريخ والفلسفة لم يكن لدى أى صعوبات، فلقد كانت دروس لالا أسماء لاتُقارن في هذا الصدد، إذ علمتني في العمر الذى كان فيه أقراني يلعبون بالدمى أو يظلون لساعات طويلة أمام الرسوم المتحركة. كان حكيم يجعلني أقرأ مقتطفات من نيتشه، من هوم، من لوك، من بوتي[12]، كما كان يحمل إلىّ أوراق مصورة، وكان يعنى بهذا الموضوع عناية فائقة؛ وأظن أن الأمر كان بالنسبة له أن أجتاز اختباراته الخاصة. اطلع حكيم جده على أمرى، فعندما ذهبت إلى إيفرى – كوركورن، سألني الحاج: "أين أنتِ في الفلسفة الآن؟"، وتحاورنا حول مشكلات الأخلاق والعنف والتعليم والأفكار الاجتماعية والحرية،... الخ؛ و كان يقول لى دوما أفكاراً رائعة كما لو كانت تنبع من أعماق الزمان وأنه عثر عليها بكراً في ذاكرته.

قال لى: "الله يخلق الحب والنوى، يخرج الحي من الميت والميت من الحي"؛ وكان يقول: "أتدرين ما الفاجعة؟ إنه اليوم الذى يكون فيه الناس كالفراش المنثور والجبال كالعهن المنفوش"، وكان يقول: "أعوذ برب الفلق من شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد"؛

---

(12) اتين دى لا بوتي Etienne de la Boétie أديب فرنسي ولد عام 1530، وكان صديقا للأديب الشهير مونتني، ومن أشهر مؤلفاته "خطاب حول العبودية التطوعية". (المترجم)

وكان يدير وجهه للنافذة ثم يتحدث فكانت الكلمات تأتي من أعماقه عذبةً ورنانةً.

كان يتحدث عن النبي وعن خادمه بلال، الذى كان أول من آذن للصلاة، والذى عاد – بعد الهجرة، عندما لفظ النبى أنفاسه الأخيرة بين ذراعي عائشة – إلى أفريقيا وجاب كل الغابات حتى النهر الكبير الذى قاده إلى شاطئ المحيط. كان الحاج يتحدث عن ذلك الأمر كما لو كان يعرف بلال، كما لو كان هذا الأمر قد دب في عائلته هو؛ ورأيت حكيم جالساً على الأرض يرتشف كلماته، ولم أنس قط قصة بلال، فبالنسبة لى كانت هذه القصة قصتي أنا الخاصة.

دعاني حكيم كي أذهب إليه في مدينة أنطوني الجامعية[13]، وهناك كان عالماً آخر، فلم يكن كشارع جافلو، ولا كمحطات المترو، وكنا بعيداً عن كوركورن. كان الفضاء رحباً محاطاً بالحدائق الجميلة الخضراء كالريف الذى تحلق فوقه طيور العقعق والشحرور، وكان هناك طلاب من كل بلاد العالم، أمريكيون، إيطاليون، يونانيون، يابانيون، بلجيكيون، وحتى أتراك ومكسيكيون. ودعاني حكيم إلى مطعم المدينة الجامعية، فقام بتسديد ثمن وجبتي بالبطاقات التي كانت معه؛ تناولت رافيولي[14] وشريطية[15] وأطباق

---

(13) مدينة أنطوني الجامعية هي من أشهر وأقدم المدن الجامعية بفرنسا. (المترجم)

(14) نوع من العجين المطهي المحشو باللحوم. (المترجم)

(15) نوع من العجين المطهي على شكل شريط. (المترجم)

لم أكن أعرفها، ومن الحلوى، أكلت مثلثات من القشدة، النافعة[16]، بشراهة، ضحك، فأما هو فقد كان كعادته يأكل قليلاً، فأكل طرف حلوى، ثم ما لبس أن وجد كل شئ مقززاً.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام، أراد حكيم أن أصعد معه إلى غرفته، وقال إنه يريد أن يريني كتبه. لم أكن أرغب في خصومته، فلقد كنت أعلم أنه يريد أن يفعل بي، هذا كل ما في الأمر، ولم تكن لدى رغبة في أن يصير الأمر معه كذلك، إضافة إلى أنني كنت أريد أن نظل أصدقاء، وأن نستمر في الذهاب إلى الحاج لننصت إليه وهو يتحدث عن النبي.

وكنت أدرك أن ذلك الأمر يضايقه، وكان غيوراً لاعتقاده أن نونو صديقي، ولكنه لم يكن يجسر على أن يقول شيئ من هذا القبيل. مضينا إلى الصالة، ثم جلسنا على الأريكة وأخرجت من حقيبتي كتاب "وراء الخير والشر"، ثم قلت له: "فسر لي لماذا يتحدث نيتشه عن العقد ؟ "، فنظر إلى من خلف زجاج نظارته، وكانت تبدو عليه علامات رجل قاسٍ في لحيته الصغيرة ونظاراته الفولاذية، وأعتقد أنه أراد أن يشبه في هيئته هذه ملكولم اكس، ولهذا السبب لم يكن يخرج البتة دون كي قمصانه البيضاء وانتقاء رباط عنقه. لم يكن يرغب في أن يبدو مشابهاً لأفارقة نانتير أو أنتيبيسه سول في ملابسم البيجتي والدريدلوكس، وكان يبغض كل ذلك وفي نفس الوقت كان

(16) ضرب من الحلوى كثيرة السكر. (المترجم)

يشفق عليهم، فلقد قال لي ذات يوم: "أتعرفين ما أكثر الأشياء التي تؤلمني؟ إنه النظر إليهم والظن بأن حتى نصفهم لن يصل إلى سن الرشد، وكأنهم في طريقهم للموت".

كان يتحدث إليّ أيضاً عن أفريقيا، عن لوائح الحساب، عن مرتزقة بيافرا[17]، عن الأطفال الذين يموتون من الجوع، عن السيدا[18]، عن الكوليرا.

كان يحب نيتشه كثيرا، ويؤثر فانو أيضاً، وكان قد قرأ على مقتطفات من" سادة وعبيد" لربورتو فراير؛ ومع ذلك لم يكن يحب الروايات، ولا الشعر، إلا محمود درويش وتيماجن هوات، فكان يقول: "الروايات مثل الغائط، ليس فيها أي شئ، فليست هي من الحقيقة، ولا من الكذب، إنما هي زوبعة فحسب"؛ وكان يقبل على مضض الشاعر رامبو وجون دون، ويأخذ على رامبو حديثه بالسوء عن السود ونشاطه في التجارة الغير مشروعة. وذات يوم قلت له: " إنك تعتقد في الأساس مثل جدك، بأن كل شئ جاء في القرآن "، وأظن أنه غضب، ولكنه بعد تأمل أجاب: "هذا حق، لا يمكن أن يكون هناك شعر أعظم من القرآن، الإعجاز أن هذا الكلام ذُكر منذ أكثر من ألف عام وأننا نعلم أنه ليس بوسعنا أن نأتي بأفضل منه"، فقلت له حينئذ: "إذا ربما يمكن الإتيان بأسوأ منه؟"، فنظر إليّ في دهشة، وأظن أنه لم يدرك ما أردت أن أقوله له.

---

(17) بيافرا Biafra هي جزء من جنوب شرق نيجريا. (المترجم)

(18) تقابل الأيدز في الإنجليزية وهو مرض فقدان المناعة الجسمية. (المترجم)

كانت لي حياتين: أشطر النهار بقساتي مع حورية والنظافة لدى محررة الجريدة، وأقوم بإجراء المشتريات في الحي الصيني حيث كان كل الناس في هذا الحي يرون أنني طيبة، وكنت أمضي أشاهد نونو وهو يتدرب في صالة الملاكمة في باربس[19]، ثم كانت هناك مواعيد الدراسة في السربون مع حكيم، أو بالقرب من شارع أساس[20]، وكان حكيم فخوراً بتقديمي إلى زملائه الطلاب، وكان يقول لهم: " هذه ليلى، طالبة حرة تتقدم للثانوية هذا العام بالقسم الأدبي".

في الليل، كان كل شئ يتبدل في حياتي: كنت أغدو كالصرصار، وكنت أذهب حتى ألحق بالصراصير الأخرى في محطة توليبياك أو محطة اوسترليتز أو ريمير سباستوبول، وعندما كنت أصل إليهم عبر أنبوبة ممر المترو وأسمع دقات الطبول، كنت أرتعش، فلقد كان شيئاً رائعاً، و لم يكن بوسعي أن أقاومه، كان يحدث لي ذلك وكأني أعبر البحر والصحراء مشدودة بحبل هذه الموسيقى.

كان الأفارقة يرتادون على الأرجح محطة الباستي أو سان بول، أما الأنتيليون فقد كانوا يذهبون إلى محطة ريمور سباستوبول، حيث تكون بصحبتهم سيمون أحياناً، والتي عرفتها عن طريق نونو، في المرة الأولى التي التقيت بها. في الغالب، كانت ممرات محطة المترو مكتظة بالناس، ولكنني

---

(19) حي يقع في شمال باريس. (المترجم)

(20) شارع بجوار جامعة السربون بباريس. (المترجم)

كنت أفلح في التغلغل إلى الصف الأول، كانت سيمون فارعة الطول، شديدة السواد، وجهها عريض إلى حد ما، وعيناها محدبتان، كانت تصفف شعرها على طريقة التكوير بربطه بخرق حمراء، وكانت ترتدى ثوباً طويلاً أحمراً داكناً. ظننت أنها تشبه إحدى المصريات القدماء، فقال لى نونو: "هذه سيمون، من هاييتي"، كان صوتها خشناً متذبذباً ساخناً يدخل إلى أعماقي و إلى أحشائي. كانت تغني بلغة المستعمرات الفرنسية، في كلمات أفريقية، كانت تغني عن سفر العودة عبر البحر وماذا يفعل إنسان الجزيرة عندما يموتون. كانت تغني وهي واقفة، دون أن تتحرك تقريباً، ثم تأخذ فجأة في الدوران حول نفسها هازة أردافها، فينفرج ثوبها الفضفاض حول جسدها، وكانت جميلة إلى حد أنها كانت تدهشني.

تحدثت معي ذات مساء؛ وكان هناك هجوم مباغت للشرطة، فتبعثر كل الناس، و وجدنا أنفسنا وحيدتين في المحطة في طرف ممر طويل، وكان ينبغي علينا أن ننصرف، فأعطيتها بطاقة مترو، واستقلينا المترو إلى محطة بلاس دى ايتالى، وكانت تجلس على مقعد من المقاعد التي بجوار الباب وأنا أجلس بجوارها، وفي العربة الرثة، كانت تبدو كأميرة بأهدابها الكثيفة، وشفتها السفلى التي تقيم هدب، ووجنتيها العريضتين الناصعتين؛ و سألتني عما كنت ومن أين أتيت، لا أعرف لماذا قلت لها ما لم أسرى به إلى أحد، ولا حتى إلى نونو، ولا لمارى هيلين، ولا حكيم، قائلة أنني لم أعرف ماذا كنت أو من أين أتيت، وأنه تم بيعي ذات ليل من الليالى

وأنا أحمل قرطي الذى يمثل الهلال الأول للقمر، فنظـرت إليّ لحظـة طويلـة، وابتسمت إذ كانت متـأثرة، أعتقد ذلك، وطبقـت علـى يـدى، كـانت يداهـا عريضتين ودافئتين ومفعمتين بـالقوة، وقـالت: "أنـت مثلـى، يـاليلى، نحـن لانعلم من نحن، و لم يعد جسدنا معنا"، وكان أمراً غريباً أن أسمعها تتحدث هكذا مع اهتزاز عربة المترو وبريق ضوء المحطات الذى كان يمر على وجهها ويضئ قزحية عينيها فتصبح في لون بني شفاف كحجر كريم.

اصطحبتني إلى منزلها، وكانت تقيـم فـى منـزل صغـير بـه حديقـة صغيرة، فى شارع صغير له أسم عجيب، لابيت اؤكاي، وكانت تعيش فيه مع صديقها، طبيب هاييتي، فـارع جداً ونحيـف وأنيـق، وأنـاس آخريـن، مـن هايتي وأيضاً من الدوميكان، وكانوا يتحدثون معا هذه اللغة العذبـة السـريعة التي لم أفهمها، ولو لم تكن سيمون معي، أظن أنني كنت سأرحل على الفـور لأن هؤلاء الناس كانوا يرعبونني ولاسيما ماريتـال جوابيسه، صديـق سـيمون الذى كان ينظر إليّ بعين ثابتة كما لو كان يريد أن يطالع روحي، وكـان هنـاك بينهم أيضاً بعض البيض، رجل متقدم فى العمـر يزعـم أنـه نـاقد فنـي وكـان يشبه السيد دلاهاى إلى حد ما، وكـانت هنـاك نسـاء ترتديـن ملابسـهن علـى الطريقة الأفريقية، وتحملن عقـود ثقيلـة وأدوات زينـة مثـل تلـك التـى كـان يبيعها حكيم. كان دخان السجائر والحشيش يشكل نفثات كثيفة تدور حـول شعاع البقع المضاءة تابعة مدونات الموسيقى الهادئة التى تبدو وكأنها تنبعـث من كل جوانب الأرض حتى من النوافذ.

لم يكن هناك مَن يهتم بـأمري، كنت واقفة أمـام مدخـل الصالـة، وأدخن الفليون محاولة أن أرى سيمون، من تكويرة شعرها القرمزية وقرطـها الذهبي.

قدم الناقد الفني تجاهي، وقال لي شيئاً ما في صوت منخفض، وبمـا أنني لم أفهم، مال إلى أذني كي يكرر : "إنها رائعة"، أعتقد أن هذا ما قاله، ثم استطرد: "إنها كل روح السنكسار[21]"، فلـم أقُل نعم أو لا، و ربمـا ظـن أنني لم أدرك ما قاله، ونظرت في وجهه بامتنان ورددت بقوة طالما أنه يسمع هذه الأبيات لاميه سيذار[22]: إليَّ رقصاتي

رقصاتي رقصات زنجية رديئة

إليَّ رقصاتي

رقص آخذة الغل

رقصة الإفلات من السجن

رقصة مفادها أنه من الحسن والطيبة والشرعية أن أكون زنجية.

نظر إليَّ الناقد الفني دون أن يتحرك ثم أنطلق في التصفيق، وصاح: "أنصتوا، أنصتوا، هذه الفتاة الشابة لديها شئ تقوله لكم"، ثم أخذت سيمون

---

(21) السنسكار هو كتاب يضم أسماء الشهداء والقديسين. (المترجم)

(22) أديب فرنسي ولد في جزر المارتينيك عام 1913، وعُرف بنزعته المناهضة للفكر التقليدي الاستعماري، كما حاول في مؤلفه أن يبرز دوره المساند للزنوج. (المترجم)

تغني لا من أجل أحد سواي، وكنت أعرف أنها تغني لي لأنها كانت تقف في نهاية البهو ولأنها كان تمد يدها نحوي، وصوتها كان يدندن بكلمات فرنسية عذبة جداً تتوافق مع موسيقى الدف.

ثم أخذت أشعل سجائر مختلطة بالحشيش، وكنت قد شاهدت في الماضي أماكن يتم فيها فعل ذلك، ففي الفندق مثلا، كانت الأميرات تتجمعن من آن إلى آخر في إحدى الغرف، ثم تشعلن الغليون معطية إحداهن السيجارة إلى أخرى، وكانت تخرج آنذاك رائحة ورقة فظة قليلاً، مسكرة قليلاً، فكان ذلك يثملني ويجعلني أنام .

وهنا لم يكن الأمر كذلك، كان هناك رجل هايتيي يعطينا السيجارة، وكذلك كانت هناك الموسيقى وصوت سيمون يدور في المكان بعذوبة، فاشتممت الدخان بقوة كما لو أنني أردت أن يعبرني من جهة إلى أخرى، وشربت أيضاً الكحول و الويسكي و البيرة وعرق قصب السكر؛ وأتذكر أنه لم يكن بمقدرتي أن أتوقف عن ذلك. وبالطبع، غدوت بعد ذلك ثملة تماماً، غير مدركة لما حولي، ثملة بحق، كما نرى أحياناً في دار العرض المرئية. كنت واقفة أمام سيمون وغنيت أنا أيضاً، كنت أكرر كلماتها، وأنا أرقص في نفس الوقت؛ كنت ثملة ولكنني على العكس من ذلك، لم أفقد صوابي، فكل شئ أصبح صافياً أمامي، كنت أكرر كلمات أغنية بالتدريج على نغمة الدف الصغير تقول: أنصت إلى المدينة التي تنبض

في قلبي، في دمي

نحن الآخرين

البحر مفقود بعيد

...

كان الناس يتمايلون كما يحدث وقت الزلزال، رأيت الحوائط تتموج وظِلُّ الناس يتنسل واللون القرمزي لتكويرة رأس سيمون يتضخم ويملأ كل البهو، فأخذني الطبيب جوبيه، ثم طرحني على الأريكة، ومسحت سيمون وجهي بمنشفة مبللة بالماء البارد، وكانت حركاتها رقيقة جداً وأمومية للغاية، فكانت تتحدث ببطئ، وكان لدي إحساس أنها سوف تمضي لتغني لا من أجل شئ إلا لي بصوتها الخشن الأجش قليلاً، ولكن لم يكن الأمر بالنسبة لي دق الدف العذب، إنما كان صوت فؤادي في أذني.

رحل الناس البعض تلو البعض الآخر، ربما خشوا أن أسبب لهم مشكلة ما، فهم إناس مشهورون، من بينهم نقاد فن و رجال سينما و سياسيون، و لذا فهم ينصرفون دوما قبل الآخرين.

فضلا على ذلك، كان صديق سيمون يتشاجر معها، وكان ذلك أمراً غريباً بالنسبة لي، وكنت أنصت إليهما من بعيد، كما لو كنت طفوت فوق جسدي، وكما لو كانوا يتحدثون أمام شخص آخر، ثم تركوني على الأريكة ومضيا إلى غرفتهما، فسمعت صوت الطبيب الخشن وصيحات سيمون، وظننت أنه يضربها، أو يعذبها، ثم أخذت تتأوه بشكل منتظم، فأدركت أنهما يتضاجعان.

كنت أرتعش من الحمى على الأريكة، وفي لحظة ما، مضيت أتقيأ في المطبخ، كنت أترنح، فقلبت مقاعداً، وكان هناك اثنان من الهايتيين لا يزالان يشربون، وعندما شاهداني في حالتي هذه، مضيا يبحثان عن الطبيب، وسمعتهم يتحدثون عني بلغة المستعمرات، وقال مارتيال جوبيه: "ربما هي غير راشدة، من الأفضل حملها إلى منزلها"، وأظن أنه قد هتف إلى كل مكان حتى عثر على حكيم، فحصل على عنوان مبيت السيارات بشارع جافلو، فبدأت أدرك أن الدنيا ضيقة، وعندما نحسن البحث، نبلغ كل ما نريد، أي أن هؤلاء الناس الذين يتمتعون بقيمة ما، مرتبطون بعضهم بالبعض الآخر، ويصطحبون معهم الآخرين، الذين لا يساوون شئ مثل نونو ومثلي. فكرت في كل ذلك بينما كان صديق سيمون يستخدم الهاتف؛ وكان عقلي يغلي، ورأيت في نفس الوقت وجه سيمون، عينيها الكبيرتين الشبيهتين ببقرة مصرية واللتين كانتا تُعبران عن ضيق عميق، وفجأة أدركت لماذا قالت لي إننا متماثلتان وإن أجسادنا لم تعد ملكاً لنا، لأننا لم نرغب في أي شئ مطلقاً، وأن الآخرين هم الذين يقررون مصيرنا دوما.

ظلت سيمون في المنزل، بينما حملني مارتيال وأحد رفاقه إلى السيارة. كانت السماء تمطر في خارج المنزل، وكانت مستنقعات المياه الصغيرة الحجم ترتعش على البلاط الأسود في الشارع، وكانت السيارة تمر في الشوارع الصامتة والخالية؛ وأظن أنهما كانا يبحثان عن صيدلية ليلية، وهبط الطبيب كي يشتري دواء لي، قطرات من برمبران، أو شيئاً من هذا

القبيل، ثم تركاني في الشارع أمام الباب، بباب مبيت السيارات، ونظر إليَّ مارتيال جوبيه في صمت، ثم لفظ رفيق الطبيب جملة بلغة المستعمرات لم أكترث بها، ربما قالها على الأرجح بلغة الجاوة[23]، ثم رحلا، وعندما تبدلت الإشارتان الحمراوتان، اختفيا.

بعد ذلك، كان فصل الشتاء، و لم أشعر ببرد مثل هذا البرد مطلقاً، وكانت تغادير قد قصت عليَّ من ذي قبل كل ما يحدث في فرنسا في فصل الشتاء: السماء رمادية سوداء، الأنوار مشعلة في الشوارع اعتباراً من الساعة الرابعة من بعد الظهر، والثلج، رقاق الجليد، والأشجار العارية تماماً والمفتولة كالأشباح. ولكن فصل الشتاء هذا كان أكثر سوءً مما قالت.

جاءت طفلة حورية إلى الدنيا في شهر فبراير، ويوم وُلدت الطفلة، ظننت أنها ربما هذه هي المرة الأولى التي يحدث شئ مثل ذلك: أن يولد طفل تحت الأرض، بعيداً عن ضوء النهار كما لو كان في أعماق مغارة.

وربما لهذا السبب بدأت أفكر في الجنوب الفرنسي وأن أعود إلى الشمس، حتى تسطع الشمس على جلد الرضيعة، وحتى تتخلص من تنفس الهواء العفن في هذا الشارع الذي لا تُرى منه السماء.

كنا نخطط لهذا الأمر مع نونو، قلنا أنه سيفوز بمباراته بسهولة، وسيمكنه آنذاك شراء سيارة، ثم نهبط جميعاً مع حورية والرضيعة نحو

---

(23) الجاوة لغة اصطلاحية لمجموعة من الأندونيسيين. (المترجم)

الجنوب متخذين الطريق الشاسع الذى يمر بإيفرى كوركورن، فى ممراته الثمانية التي تشبه نهر، وخططنا أن نمضى إلى مدينة كَانْ وإلى مدينة نِيسْ وإلى مونت كارلو وحتى إلى روما أيضا فى إيطاليا، وسننتظر قدوم أبريل أو مايو حتى تكون الرضيعة قد كبرت وتستطيع حينئذ تحمل مشقة السفر، أو حتى شهر يونيو طالما أنني سوف أتقدم لاختبار الثانوية؛ ولكننا لن نذهب أبعد من ذلك، لأن ذلك السفر سيكون طويلاً جداً، وسيكون الوقت قد فات للمضي إلى أبعد من ذلك. كان يونيو شهراً سعيداً، فلقد أجريت مباراة الاختيار في الثامن من يونيو، وكان نونو يتدرب طوال الوقت، فحينما كان غير متواجد في صالة التدريب بشارع باربس العريض، كان يتمرن على الملاكمة في مبيت السيارات، فلقد صنع لنفسه كرة ملاكمة من جوال بطاطا حشاه بالخرق البالية.

كان الطقس بارداً في شارع جافلو، ولحسن الحظ أن نونو كان قد أحضر مدفأة كهربائية، كانت حينما تعمل تحدث صوتاً كصوت طائرة، وترشيدا للاستهلاك، أرانى نونو كيف أنه زور فى عداد الكهرباء ثاقباً بالشنيور على جانب غطاء العداد ثقباً صغيراً حتى يوقف عجلة العداد عن طريق إبرة حياكة، ولحظة مرور مفتش الكهرباء، كنا ننزع الإبرة من العداد ونخفي الثقب عن طريق قطعة صغيرة من العجين الملون باللون الأزرق. كانت تنقصنا النقود، فكان نونو يتدرب، ولم يكن لديه الوقت كي يعمل، فكانت النقود تسد عوزنا بالكاد؛ وعندما كان يعود للمنزل في المساء، كان يضمحل

من التعب، وكان أحد الأعضاء الاشتراكيين قد وعده ببطاقة إقامة لو أحرز النصر في المباراة، ولذلك لم يرد أن تفوته هذه الفرصة. أما حورية فلقد كانت تشبه في الآونة الأخيرة - أكثر فأكثر - ملكة النحل، فكانت تظل راقدة على الفراش، بالقرب من المدفئة التي كانت تموء، ضخمة ومتبلدة، ووجهها منتفخ من الحمل، و لم تكن ترغب في أن تعتني بها مساعفة اجتماعية، و لم تكن ترغب في أن تُعرض على طبيب أيضاً، فلقد كانت تخشى أن يتم إخطار الشرطة عنها وأن يرسلوها آنذاك إلى زوجها، إضافة إلى أنها كانت في مأمن تحت الأرض، كالعنكبوت في شقه، يصنع طفلة؛ و ما من أحد يمكنه العثور عليها هنا، والخطر الوحيد كان يتمثل في صديق نونو، ولكن من الأخبار الأخيرة، علمنا أن جزيرة بورا بورا[24] تعجبه، ولم يكن هناك خطر كبير من أن يمضي إلى باريس وسط المطر وحبات الجليد.

عندما جاءت لحظة الولادة، طلبت حورية مولدة وليس طبيب، وكان نونو مذعوراً، فكان يجري في كل الإتجاهات، وكان يفقد صوابه؛ وبما أنني لم أكن أعرف إلى أين أذهب، فقد استقليت القطار حتى إيفري كوركورون وذهبت إلى المعسكر البوهيمي، ووجدت جيانيكو المولدة، ثم تفاوض معها باللغة المانوشية[25]، وقبلت أن تأتي في مقابل خمس مائة فرنك. كانت تدعى جوزيفا، كانت فارعة الطول، مسترجلة قليلاً، وجهها عريض بارز التقاطيع

---

(24) جزيرة فرنسية في المحيط الهادى. (المترجم)

(25) لغة البدو الرحالة. (المترجم)

ويداها قوية، ولم تكن تتحدث بالفرنسية تقريباً، ولكنها اطمأنت إلينا عندما سمعتني أحدثها بالأسبانية، وكانت لديها لكنة الجاليسيين[26] القاسية.

اصطحبتُها بالقطار، وقبل أن تمضي إلى شارع جسافلو، أرادت القيام ببعض المشتريات لها ولحورية، فاشترت قطناً ولصقة مشمعة ودواء البيتادين وكمادات وأمور من هذا القبيل، وأيضاً أعشاب من عند الصينيين: زعتر وقويسة، ومرهم في علبة مستديرة مزخرفة بصورة نمر؛ واشترت أيضا كوكا وحلوى وسجائر.

بلغت مبيت السيارات، فعلقت ملاءة عبر الحجرة التي كانت ترقد فيها حورية حتى لا يزعجها أحد؛ وظلت هكذا ثلاثة أيام كاملة دون أن تخرج تقريباً ودون أن تتحدث. كانت تقول أن هناك رائحة سيئة في المكان، وكانت تطلق البخور وتشعل السجائر. وفي خلال هذه الأيام، لم نكن أنا ونونو بوسعنا أن نمكث في المكان، كنا طوال الوقت في الخارج، فكنت بعدما أفرغ من عملي في منزل بياتريس، أمضي كي ألحق بنونو في صالة التدريب في باربس، وكنت أراه يلاكم ظله، وكان يقفز الحبل، فكنت أجلس في ركن من الصالة وأشاهده يتحرك؛ وكان كل الناس يعتقدون أنني صديقته، حتى أن العضو الاشتراكي جاء ليتحدث معي، ولم يكن يلقبه بنونو أو ليون، إنما كان يتحدث عنه ذاكراً اسمه العائلي "اديجسو"، فكان يقول: "ينبغي على

---

(26) مدينة وميناء في سيرلانكا. (المترجم)

اديدجو أن يجتهد، ولا ينبغي عليه أن يرتكب الحماقات، قولي له ذلك"، وأعتقد أنه كان يلمح بممارسات نونو، وللأشخاص الذين كانوا يكسرون المنازل والسيارات وللشرائط التي يجلبها من وقت إلى آخر ويقوم ببيعها. كان العضو الاشتراكي قصيراً، وشعره منتفش، وكان يبدو أنه رجل رياضي أو رجل شرطة؛ ولم أكن أحب أن يأتي ليتحدث معي، ولم أكن أحب أن يقول "اديدجو" هكذا كما لو كانت له حقوق على نونو وكما لو كان من نصرائه. ولمرة أو اثنتين، حاول أن يعرف موقفي من القانون أو هل لدي بطاقة إقامة، و لم أكن أحب أن يطرح علي أسئلة، ولم أكن أحب أن يخاطب كل الناس بصيغة المفرد، كما لو لم يكن هناك اختلاف بينه وبيننا، ولكنه ربما كان ببساطة لطيفاً. كان ذراعه الأيسر مبتور وربما كان هذا الأمر وراء ذلك، فكان يدلف نحو الناس، ويقول لهم بصوت عالٍ: " أمسك هذا، عاونني في ارتداء قميصي الصوف، هل لك أن تفعل؟" كان إحساسه بالصداقة عنيف إلى حد ما، فكان يقول دوما لنونو: "لا عليك، بطاقة إقامتك مسألة محلولة"، كما لو كان بوسعه أن يسوى هذا الأمر مهما كان.

وضعت حورية أنثى، فعندما عدت من منزل باتريس المحررة، كانت الرضيعة قد خرجت إلى الدنيا، ملتصقة بصدر حورية، وكانت المولدة متعبة، فلقد احتست عددا من كؤوس الخمر ثم نامت بعمق على الأريكة، حتى أن ضوء النيون لم يوقظها.

كان يبدو على حورية النعاس هي أيضا، وكانت الغرفة تفوح برائحة مقززة: بول، عرق، رائحة حامضة، ولو كانت هناك نافذة في أي مكان، لفتحتها على آخرها حتى أدخل الهواء والشمس. فكرت في أنه ينبغي أن يرحل الطفل بسرعة وإلا فلن يقو على العيش تحت الأرض.

وفي الأيام التالية، أصابتنا الحمى، وكنا جميعاً منهكين، كما لو كان كل منا أنجب الطفلة، فكنا ننام بالتناوب تبعاً لنظام الرضاعة؛ وكانت أطراف ثدى حورية مشققة، ولذا كانت تجد مشقة في الرضاعة، وكانت هناك بقع من الدم على فراشها، فقدمت المولدة وأسقت حورية لبناً ويانسوناً ودلكت ثدييها بمرهم. كانت حورية ترتعش من الحمى، وكانت الرضيعة تعوى، وفي النهاية، أرسلت بياتريس المحررة صديقة لها كانت تعمل معاونة بمستشفى، فحملت حورية ورضيعها إلى قسم الولادة بالمستشفى، وكانت متوعكة للغاية ذلك أنها تركت نفسها تُحمل على نقالة دون أن تقول شئ.

كنت أذهب كي أراها كل يوم بعد الظهيرة، وكانت تقيم مع أمهات مثلها، في غرفة جميلة بيضاء في الطابق الأرضي؛ ومن خلال نافذة الغرفة، كانت تُرى أشجار السرو، وأشجار جنبة الرباط، وعصافير الدورى وهي تحلق في الهواء، وحتى السماء رمادية اللون كانت رائعة. كنت أحمل إليها حلوى جافة وشاى في كظيمة[27]، وحتى أمزح مع حورية، كنت أقص عليها

---

(27) الكظيمة هي الجهاز الذى يحتفظ بحرارة الشاى لمدة من الوقت، ويطلق عليه في بعض البلاد العربية التي تبنت في لهجتها العامية المصطلح الغربي "ترموس". (المترجم)

أي شيء، فكنت أقول لها أنهم سوف يعطون اسماً لرضيعتها، وسيسمونها باسكال لأنها ولدت في اللحظة المناسبة قبل أن يطبق قانون الدم الجديد[28]، وكانت حورية توافق على ذلك، ولكنها كانت ترغب في أن يُضاف اسم "مليكة" إلى اسم الطفلة، لأن "مليكة" هو اسم أمها هي؛ وهكذا سُميت الرضيعة "باسكال مليكة"، وفي سجل الأحوال الشخصية، أرادت حورية أن تكتب الاسم الحقيقي للأب "محمد"، حتى لا تكون الفتاة من أب مجهول. وحتى حكيم جاء في زيارة حورية، ونظر إلى هذا الكائن الصغير أحمر البشرة، الذي يقتله النعاس في المهد بجوار حورية، قائلاً: "يبدو عليها أنها فرنسية صغيرة".

فجأة صارت حورية قلقة، فقالت لي: "ولكن إذا أردت أن أعود لبيتي، ألا يأخذوها مني؟" هدأت من روعها على قدر استطاعتي، وقلت لها: "ما من أحد بوسعه أن يأخذها منك، هي أبنتك، وليست ملكاً لأحد سواك"؛ وأظن أن هذه هي المرة الأولى التي كان لحورية شيئاً تملكه؛ وعلى الرغم من كل ما عانت منه، وعدم الثقة في مستقبلها، إلا أنها كانت محظوظة.

غَيّرَ قُدوم باسكال مَليكَة كل شئ بحق في شارع جافلو، فلقد أدركت أن ما من شئ سيبقى كما كان من ذي قبل، وكان ذلك شئ طيب، فبداية، لم

---

(28) قانون الدم هو القانون الفرنسي الذي كان لا يمنح الجنسية إلا لمن كان أبويه فرنسيين. وعلى العكس منه، هناك قانون الأرض -وهو قانون يعمل به حتى اليوم- وهو منح الجنسية لمن ولد على الأراضي الفرنسية بعد مرور عمر معين. وكان قانون الدم يحتم على من يحصلون على الجنسية أن يكون له اسما فرنسياً. (المترجم)

تعد حورية تفكر في الرحيل، و لم تعد ترغب في أن تعود إلى بلدها، فالآن بعد أن أصبحت تمتلك الرضيعة، تشعر بأنها قوية، والمدينة والناس لم يعودوا يرعبونها؛ وكل صباح، تلف الطفلة في خمار صوفي، ثم تمضي إلى الخارج، في الحدائق، في الشوارع أو تعود صديقتها، السيد في؛ وحتى يكون لها عملاً، طلبت من بياتريس أن تعينها بدلاً مني، فاشترت بياتريس مهداً للرضيع؛ وكانت حورية تمضي كل صباح لتعمل لديها. ولم يكن بوسع بياتريس وزوجها أن ينجبا أطفال، ولهذا كانوا متأثرين من وجود هذه الطفلة التي تنام في منزلهم؛ ثم اعتادت حورية أن تتركها وقتاً طويلاً أثناء ما كانت تمضي للقيام بالمشتريات، أو عندما كانت تمضي تتابع دروس محو الأمية. كان لبسكال مليكة حجرة أنيقة، فلقد أزاحت بياتريس وزوجها المكتب والأرفف المليئة بالكتب، وفرشوا الحجرة بالسجاد ذي اللون الوردي، وكان ذلك يشكل منظراً هادئاً مع الضوء والشمس. عندما كانت حورية تعود إلى الجحر الأسود في شارع جافلو في المساء، كانت الطفلة تبكي وتصرخ ولا ترغب في النوم. وظننت منذ بداية الأمر أن بياتريس وزوجها قد فكرا في تبني باسكال مليكة، ولكنهما لم يصرحا بذلك الأمر.

رأيت سيمون مرة ثانية، فذات مساء، عدت إلى محطة ريومير - سيباستوبول، وكان يبدو لي أنني منذ سنوات لم أذهب إليها، وعندما سمعت ضربات الدف تدق في الممر من بعيد، ارتعش جسدي، ولم أكن أعلم إلى أي حد كنت أفتقد ذلك الأمر، إضافة إلى أن كل ما حدث مع ميلاد الطفلة غير

مني وربما كبر من عمري، كما لو أنني أصبحت أدرك الآن ما كان وراء هؤلاء الناس، وكل هذه المشاهد والمعني الخفي من هذه الموسيقى.

في الممر، في تقاطع الأنفاق، كان العازفون يجلسون ويدقون الطبل، وكان هناك هؤلاء الذين أعرفهم، الأنتيين و الأفارقة، وعازفين لم أراهم من قبل قط: صبي شعره طويل، بشرته صفراء ذهبية، من جزيرة سان دومينيك على ما أعتقد، ولم تكن سيمون تغني، بل كانت جالسة وظهرها للحائط، ووجهها مقنع بنظارات سوداء، فمكثت بجوارها، وعندما تعرفت عليَّ ابتسمت، ولكنني رأيت وجنتها اليمنى متورمة، فقلت لها: "ماذا حدث لك؟"

هزت منكبيسها ولم تجب، وكانت موسيقى الجامبيه والديجون ديجون تنطلق في إيقاع هادئ، وكانت بطيئة، هادئة تماماً. وكان كل ذلك يحدث تحت الأرض، ويصل حتى الطرف الآخر من العالم وكأن هدفها هو إطلاق موسيقى الجانب الآخر خلف المياه، كأغنية و كلمة. كنت في حاجة إلى هذه الموسيقى، وكان ذلك يسعدني، فلقد كانت مشابهة لصوت المؤذن الذي كان يعبر فوق الأسقف ويدخل فناء لالا أسماء، ومشابهة لصوت أجدادي في بلد الهلاليين.

وفي لحظة، انطلقت إشارة تدل على أن الشرطة جاءت، ففر الجميع بسرعة، داقو الطبول والجمهور، فوجدت نفسي وحيدة مع سيمون كالمرة التي ذهبت فيها إلى منزلها، ولكنها سألتني هذه المرة وكان صوتها مخنوق

ومتكدر: "ليلى، هل يمكنني أن أمضي إلى منزلك هذه الليلة؟"، وكانت تعرف أين أقيم منذ ذلك المساء الذي وضعني فيه مارتيال أمام باب مبيت السيارات، و لم أسألها لماذا تريد أن تأتي معي؛ و عدنا سيراً على الأقدام عبر باريس وسط رذاذ المطر.

أمضت سيمون يومين في مسكننا، ومكثت دون أن تتحرك، راقدة على فراش أحضره نونو، وكانت ترتشف قليلاً من الكوكا، ثم تعاود النوم. كان المخدر يملئها، وقصت عليَّ قليلاً مما حدث لها، فلقد أصبح صديقها مجنوناً، أتهمها أنها تخونه، ضربها، ثم اغتصابها ومعه شخص آخر؛ و لم ترد أن أقوم بإبلاغ الشرطة، فكانت تقول أن ذلك لن يفيد في شيء، وأن الطبيب جوابيه رجل مهم، وله أصدقاء في كل مكان، يعمل في هوتيل دي دييه[29]، ولن يصدق أحد عنه ذلك.

ذات ليلة، جاء صديقها يبحث عنها، وسمعت السيارة تتوقف خلف باب مبيت السيارات. لا أعرف كيف خمن أن سيمون مختبئة لدي، كان له جواسيس في كل مكان. لم يحدث أي صخب، فلقد طرق برفق باب الحريق، فأحدث صوتاً خفيفاً كنت أسمعه في نومي، و عندما أضأت المصباح، وجدت سيمون جالسة على فراشها، وعينيها منفرجتين على أشدهما كما لو كانت تنصت إليه؛ وكان يحدثها بهدوء من خلف الباب بلغته، لغة

---

(29) مستشفى شهير في باريس يقع على نهر السين. (المترجم)

المستعمرات المنغمة والعذبة، فقلت لسيمون: "أتريديسن أن أقـول لـه أن يمضي؟"، وكانت لها نظرة غريبة، مخلوبة اللب، خائفة ومجذوبة، و رأيت وجنتها متورمة، والدم الذى جف على قوس حاجبها، فشعرت بالغضب والخزى، وقلت لها: "لا تنصتى إليه، لاتجيبيه، سينتهى بالرحيل عن هذا المكان"، ولكن الأمر كان أقوى منها، فأخذت تحدثه عبر الباب، فلم ترد أن تستيقظ الطفلة، كانت تهمهم في صوت منخفض، في البداية بالفرنسية، بالشتائم، ثم بلغة المستعمرات.

انتهيت إلى فتح البـاب؛ وفي الغبش، كانت السيارة المرسيدس واقفة، فوانيسها مضاءة، ولم يكن هناك سوى صوت غطيط فتحات التهوية التي كانت تنطلق رويداً رويداً ؛ وظلا يتحدثان طوال الليل، وفي لحظة، استيقظت، وكنت أشعر بالبرد، فلقد جعل باب مبيت السيارات الموارب الهواء المبلل يمر إليّ، ورأيت المرسيدس، وكانت أنوارها هذه المرة غير مشعلة، وكانت سيمون وصديقها يتحدثان وهما جالسان على مقعد السيارة الخلفي. ومع مطلع الصباح، رحلت معه دون أن تقول لى أى كلمة، فوجدت مشقة في إدراك كيف أن امرأة مثل هذه تتعلق إلى هذا الحد بمثل هذا الرجل.

اعتدت أن أذهب إلى منزل سيمون في فترة ما بعد الظهر، عندما كان ماتريال جوبيه خارج المنزل، كي أتعلم العزف والغناء بمفردى في المنزل الصغير ببيت دى كاى، وكانت مصارع النوافذ مغلقة، فكانت سيمون تخط مثلثاً بالشمع المشتعل في آخر البهو، وفي المنتصف كانت تضع ما كانت

تحب من فواكه السوق، المانجو، الأناناس، العنب الهندى. لم أجسر على سؤالها لماذا. لم أطلب منها شيئاً على الإطلاق ولهذا كانت تحبني كثيراً. كانت ساحرة، كانت تتعاطى العقاقير أيضاً وتدخن الكوكايين عن طريق بيبة[30] صغيرة في لون الأرض السوداء. كانت جميلة في عينيها الواسعتين كعيني امرأة مصرية، وجبهتها المحدبة التي كانت تلمع كرخام أسود.

كانت تعزف على بيانو إلكتروني متصل بعلبتين تكبير صوت، وكانت تجعل الصوت منخفضاً للغاية، خشناً جداً حتى أسمعها بشكل أفضل، وقالت لى أنني يجب أن أتعلم عزف الموسيقى لأن إحدى أذنى لا أسمع بها وأن كل الموسيقيين كانت لديهم معضلة، فكانوا أصماء، أو مكفوفين أو ببساطة مخبولين.

كان الدكتور جوبيه لا يعود إلى المنزل خلال فترة النهار، وكان طوال الوقت في مستشفى لاسالبترير، يعالج أصحاب الأمراض العقلية، وكان هو أيضاً مجنون.

لم يكن ليحب ما تفعله سيمون بشمعها وقرابينها، فكان سيغضب إن عرف ذلك. ولكن سيمون كانت تخفي كل شئ قبل أن يصل، وكانت ترتب الشمع والبخور، وتضع السجادة في موضعها والمقاعد المريحة في أماكنها.

وضعت في ذهنها أن تعلمني الغناء، وكنت أجلس على الأرض بجوارها في ثوبي، أما هي فكانت تمد ثوبها الطويل على ساقيها كتاج

---

(30) الأنبوبة التي يوضع فيها التبغ والكلمة فرنسية وعربية. (المترجم)

قرمزي، وكانت تعزف بيدها اليسرى على لوحة المفاتيح، يدها المريضة والخفيفة التي تهرول على النوتات، فقط ثلاث، أربع، خمسة نغمات أو ائتلاف ممتد، وكان عليّ أن أتابع الصوت؛ ولهذا السبب كانت تعزف بيدها اليسرى حتى تتمكن من الغناء على الجانب السليم بالقرب من أذني السليمة، ولم أقل لها شيئاً ولكنها كانت تعرف أنني نصف بكماء؛ و كان أمراً لا يصدق أن تنتابها فكرة تعليمي الموسيقى كما لو أنها كانت قد أدركت أن هذا الأمر يشغلني وأنني أعيش لهذا السبب.

كنا نمضي معا فترات بعد ظهر في منزل لابيت اوكي، وكنا نعزف الموسيقى، ونحتسي الشاي، وندخن الغليون، ونثرثر، ونضحك دون أن نعرف لماذا. كان لدي إحساس أنني ليس لي من صديقة كسيمون، تذكرت زمن الفندق، الأميرات اللواتي كنت أرقص لهن واللواتي كن يحملنني للحمام أو في مقاهيهن على شاطئ البحر؛ ولقد كانت كل تصرفات سيمون تصرفات أميرة منهن، إلا أن جزءاً من حياتها كان مأسوياً ولم أفهمه جيداً وسيظل سراً، وهو جزء من الجنون.

علمتني الغناء على موسيقى جيمي هاندريكس، "محترقاً مع مصباح منتصف الليل"، "أيتها المرأة الماكرة"، "ضباب بنفسجي"، "الحجرة مليئة بالمرايا"، "شمس حبك"، " فودو الطفل"، وموسيقى نانا سيمون، "الأسود هو اللون الحقيقي لبشرة حبيبي "، "كنت أضع سحراً عليك"، ومودي وترز وبيليه هوليداي، " أيتها السيدة المتكلفة"، ولكنني لم أكن أغني الكلمات،

كنت أحدث أصواتاً فقط، ليس فحسب من شفاهي وحلقي، إنما من أقصى أعماقي، من أعماق رئتي، من أمعائي. فقط أربعة أو ستة مقاييس، وكانت توقفني، ثم أكثر فأكثر. كانت يدها ترقص على لوحة المفاتيح وكان لزاما على أن أفعل مثلها مجموعة من ثماني وحدات أو كانت تغني بصوت خفيض وكان على أن أتابع وأغني: "بابليبو، باباﻟﻮﻻﻯ، لاليالولا.."

كانت تتحدث أحياناً عن جزيرتها في الطرف الآخر من العالم وعن الموسيقى التي تتجاوز البحر حتى الأرض القديمة التي أنتشل منها أجدادها وبيعوا. كانت تلفظ أسماء الأمم، وكانت هذه الأسماء ترن بطريقة غريبة، وكأنها كلمات موسيقية: "ايبو، موكو، تم، ماندنكا، شامبا، غانا، كيومانتي، أشانتي، فون..."

كأسماء آبائي الذين نسيتهم.

كانت تتحدث عن الفقر، وتقول: "إن الهاييتي هو الإنسان الأكثر قسوة في العالم"، وكانت تقول: "إن الأسود يخون الأسود كزمن ديسالين[31]"، وكانت تقول: "عندما ينتابنا الجوع نوجه أعيننا نحو الداخل"، وكانت تتحدث عن شارع سيزار، عن بورت او برنس، كانت

---

(31) جان جاك ديسالين Jean Jacques Dessalines هو إمبراطور هاييتي ولد في غينيا وعاش بين 1758–1806. كان عبداً أسوداً، ثار ضد روشـلمبو وطرده من الجزيرة ثم أعلن نفسه إمبراطوراً على هاييتي عام 1804 بعد أن أمر بمذبحة ضد البيض أقتيل على أيدي خصومه. (المترجم)

تتحدث عن القلب الذى يدق وسط الزحام، عن أمها روز كارول التي كانت تنشد فوتو[32] فيما مضى حتى تحضر الموتى، كانت تدق الدف، وكانت هناك عين مفتوحة في منتصف زاوية كبرى في فناء منزلها كتلك التي صممتها سيمون بالشمع. كانت تحكي، كانت تغني، كانت تتحدث مع الدف، كانت ترى قدوم الاوس حتى هنا، حتى شارعها. كانت تردد أسمائهم، أسماء النباتات، السلاح الحقيقي، فواكه الروح الحقيقة، العنب الهندى والعملاق الداكن الذى يغطي الجزيرة بظله. وكنت أنصت إليها، وكانت هذه الأشياء مسلية لحد أنني كنت أنام من سماعي لها. ومن أجلي، كانت تعزف على لوحة المفاتيح، والنوتات التي كانت تكررها دوما، كانت نوتات خفيضة، أو كانت تقرع بأطراف أصابعها الدف الذى كان يتحدث، على السوادا، على الديجون ديجون وكان الصوت يتغلغلني كما في ممرات محطة ريومير – سيباستوليول، كان يصعدني ويملأني تماماً وكنت شبيهة بثعبان يتراقص أمام المروض، شبيهة بعيساوة[33] الأعياد، وكنت أدور حول نفسي حتى الدواخ.

لم نعد نتحدث. فقط هي جالسة القرفصاء في وسط ثوبها، تهز نصف جسدها الأسفل، وتعزف الموسيقى وتغنى أغنيتها الأفريقية التي تأتي

---

(32) الفوتو vaulou عبادة روحية أعتادها زنوج الأنتي وزنوج هاييتي. (المترجم)

(33) العيساوة Aissaouas هى فرقة دينية مسلمة نشأت في شمال أفريقيا في القرن السادس عشر. (المترجم)

من الشاطئ الآخر من البحر وأنا كنت أردد حركاتها وجملها، حتى حركات عينيها وإشارات يدها دون أن أدرك، كما لو كانت هناك قوة مغناطيسية تقيدني إليها. كانت تفعل ذلك إلى أن تغرق شعل الشمع في الجص.

وعندما تنتهي، كنا نصير منهكتين، فكنا ننام على الأرض، على الوسادات المتناثرة في رائحة الدخان. وفي خارج المنزل، كانت الناس تتحرك، وربما المترو، القطارات، السيارات، الناس يهرولون كالحشرات المجنونة، الناس الذين كانوا يشترون، يبيعون، يحسبون، يضربون، يخزنون، يستثمرون. نسيت كل شئ، حورية، باسكال مليكة، بياتريس وريمون، ماري هيلين، نونو، الآنسة ماير، السيدة فروماجا. كل ذلك تزحلج وسار. الصورة الوحيدة التي كانت تأتي، ثم تستغرقني، هي نهر السنغال الكبير، ومصب الفاليميه[34]، وحافة الطريق المنشطرة في الأرض الحمراء في بلد الحاج، و إلى هناك كانت تحملني موسيقى سيمون.

ذات مساء، عاد مارتيال جوبيه مبكراً عما هو متوقع، وفتح باب البهو، ثم جلس على العتبة لحظة طويلة ينظر. في خارج المنزل، كان الليل. كان الشمع المحتضر يصدر ضوءاً واهناً، وخمنت نظرة الطبيب الذي كان يفتش في الظلام؛ ولم يقل شيئاً، عبر البهو مصطدما بدف سيمون، ثم مضى مستقيماً نحو صالة الاستحمام. من المفترض أنه غضب بشدة بسبب عبوره

---

(34) الفاليميه Falémé مصب يفصل السنغال عن مالي وتبلغ مساحته 650كيلو متر مربع. (المترجم)

بصمت عبر هذه الأشياء. أوقفتني سيمون ودفعتني نحو الباب قائلة لي: "اذهبي، اذهبي، من فضلك"، وكان يبدو عليها الرعب، فقلت لها: "تعالي، أنت أيضاً، لا تبقي هنا". كنت على يقين من أنها إن كانت قد شاءت أن تأتي معي هذه اللحظة، لكانت طليقة، ولكنها لم تفكر حتى في هذا الأمر. وضعت نقوداً في جيبي، وقالت لي: "هيا، استقلي سيارة أجرة كي تعودي للمنزل، فالطقس بارد"، ولا أعلم لماذا فكرت في هذه اللحظة أنني لن أراها ثانية. كانت لا تستطيع أن تقرر مصيرها، ولهذا كانت كالرقيق، فلو قررت مصيرها، لمرة واحدة فقط، لما عادت تخشى مارتيال، ولا تخشى أن تكون بمفردها، ولن تكون في حاجة إلى أن تخدر نفسها، أو تأخذ أقراص التميستا، كانت ستغدو حرة.

أما على مستوى الحاج، فلم تكن الأمور تمضي على ما يرام أيضاً، فلقد كان المحارب القديم يخشى الشتاء، وكنت أذهب إليه متى استطعت، بالقطار أو بالأتوبيس، إلى كوركورن حتى طريق فيلابيه. كان الريف مثلجاً، وكانت هناك طبقات جليدية خفيفة على المنحدرات، وكانت هناك حقول رمادية شاسعة حيث تحجل طيور الزاغ[35]، وفي الشقة الصغيرة في البرج *B* كان الحاج يجلس أمام النافذة مرتدياً قميصاً من الصوف السميك فوق قميصه الأزرق، وكان يضع قلنسوة مُتلبدة حتى عند النوم. كان يحلم عالياً بالنهر الكبير الذي يسري ببطء شديد عبر الصحراء حيث يسطع الضوء حتى

(35) الزاغ هو نوع من الغربان. (المترجم)

الكبير الذى يسرى ببطئ شديد عبر الصحراء حيث يسطع الضوء حتى فى الليل، و ربما لهذا السبب كنت أمضي لرؤيته حتى يحدثني عن النهر، وكان يحكي لى أيضا عن نهر فاليميه والمدن: كيـه[36]، المدينـة[37]، ماتسام، ويامبيا قريته، كما لو أنه مازال يستقل زورقا كبيرا مصنوعا من جذع شجرة مع النساء والأطفال ناظراً للبيوت الملتصقة بالشاطئ وهي تمر، وطيور الكُركى[38] التي تحلق في السماء، وطيور الفاقـة[39]. حدثني عن مريما للمرة الأولى، حفيدته، أخت حكيم، وقال أنها ماتت هناك ذات صيف وهي تمضي لترى أمها، فلقد أصيبت بداء إبيضاض الدم في أثناء فصل الأمطار، ودخلها البرد، وجمدها يوما بعد يوم ثم قتلها. ولم يريني الحاج صوراً لها، ربما كان ذلك لا يفيده في شئ. أراني فحسب كتابها المدرسي، لأنه كان فخوراً بنتائجها، فلقد كانت في السنة الأخيرة من الثانوية في مدرسة سان لوى.

وكان ينسي أحيانا أنها ماتت، فكان يحدثني كما لو كنتُ أنا ماريما، ماريما الجديدة. وكان هناك شقاً في داخله، عميقاً جداً كعظمة مكسورة لا تتوقف عن إيلامه. ولم يرد أن يعود إلى هناك مطلقاً، فكان يقول: "لقد هدموا كل شئ، هناك طرق في كل مكان، أترين، معابر، مطارات، وكل

---

(36) Kayes مدينة بمالى تقع بالقرب من السنغال. (المترجم)

(37) Médine قرية في مالى تقع بالقرب من السنغال. (المترجم)

(38) طيور طويلة الساق. (المترجم)

(39) طيور من الفصيلة البجعية. (المترجم)

الزوارق قطعت مؤخرتها حتي يوضع محرك، فعجوز مثلي ماذا يفعل هناك؟ ولكن عندما أموت، أريد أن تحمليني إلى بلدى، حتى يتم دفنى فى الأرض بجوار أبي وأمي، في يامبا، على شاطئ نهر الفاليميسه، فهناك ولدت وإلى هناك يجب أن أعود". عاهدته على أنني سوف أمضى معه رغم علمي بأن هذا الأمر على الأرجح مستحيل... وأنا أيضاً، لدى دار مقابر أود أن أدفن فيها.

وأيضا، كان يتحدث عما رآه في العربية السعودية ريثما قَبَّلَ الحجر الأسود للملك جبرائيل، وماء منبع زمزم والذى جلبه فى زجاجة بلاستيكية صغيرة، وجبل عرفات حيث تحرق رياح الصحراء أعين المسافرين. كان وجهه مداراً إلى النافذة، وكنت أرى الجدار الكبير للمباني المجاورة، كنا نسمع غطيط ليس من بعيد، من هناك حيث توجد جزيرة البوهيميين، ولكن ذهنه لم يكن هنا، لقد كان في مكان آخر، في صوته. ظللت مع الحاج حتى هبط الليل، وأعددت لنفسي الشاى، وغسلت الأوانى، ثم رتبت أشيائه، وربما كنت أعرف في داخلي أنني لن أراه ثانية، كاليوم الذى وقعت فيه لالا أسماء في المطبخ وأدركت أنها ستتوفي.

كان الشتاء هو الذى أهلكه، فكان يشعر دوماً بالبرد، وكان حكيم قد أشترى له مدفأة تعمل بالزيت، وتدور فى النهار والليل، فكان الطقس حاراً فى الغرفة الصغيرة حتى أن العرق كان يسيل على البلاط، وكان الحاج يتوقف عن الكلام كي يسعل سعلة ثقيلة كانت تحدث صوت كمطرقة الحدادة في جرف رئتيه، وهذا ما كان يؤلمني. وكان حكيم قد قال لى أنه يعانى من

الاستسقاء الوضعي، وهو مرض كان يمنعه من التنفس، ولكنني كنت أعتقد أنه البرد فحسب، الرياح والمطر والسماء التي تمضي في الغيوم الرمادية والشمس الشاحبة، وأنه لكل هذه الأسباب كان يستنفذ قواه.

عندما أحسست أنه متعب للغاية، انصرفت، وقبلت يده فأسند راحة يده للحظة علي جبيني، ثم هبط بها علي عينيي، علي أنفي، وجنتي، شفتي. وقال: "إلى اللقاء، يا ابنتي" كما لو كنت بحق ماريما، وربما كان يظن أنني بحق هي، وربما كان قد نسي، وربما غدوت شبيهة بها من فرط المجيء إلى جدها، من فرط سماعه يقص عليَّ ما عاشه هناك على شاطئ النهر، وأنا لا أعرف جيداً من كنتُ.

بينما كنت أمضي نحو محطة كوركورن، عبرت جزيرة البوهيميين، وتحولت عن الطريق المباشر حتي أرى جيانيكو، فذات مساء، جاء نحوى كما لو كان يرقبني. كانت تبدو عليه الغرابة، وطلب مني سيجارة، وقال لي بصوت مختنق قليلاً "برونا باعت طفلها "، وعندما بدا عليَّ أنني لم أفهم، كرر وبدا صبره ينفذ: "حقيقي ما أقوله لك، برونا باعت طفلها". هبط الليل، وكانت المصابيح تضئ نجوم صفراء على طوال الطريق وليس بعيداً، علي حافة الركام الأسمنتي، وكان مبنى المتجر الكبير مضاءً كقصر أسطوري.

كان قلبي يدق بشدة، وسرت خلف جيانيكو، على طول درب الكلاب المؤدى إلى معسكر البوهيميين، وكنت أسير بسرعة، ولم أصدق ما قاله

لى جيانيكو، فلقد كان يبدو لى أن ما قصه علىّ هو قصتى أنا، عندما القانى أشخاص مجهولون فى حقيبة كبيرة وحملوني وباعوني من يد إلى يد حتى وصلت إلى لالا أسماء .

قادنى جيانيكو إلى كوخ خشبى سقفه من الصفيح يتكأ إلى عمود أبيض، رأيت بعض الأطفال عن طريق مصباح غازى موضوع على الأرض. وحول الكهف، كانت هناك أكوام من الفضلات، كراتين، علب صدئة، عربة مشتريات مستنفذة، وكان هناك أناس فى العربة الكبيرة التى يسكنها الرحالة، نساء ورجال يأكلون، ضوضاء تلفاز، و كلاب مربوطة فى سلاسل، شعرها أسود مُنتفش. فتح جيانيكو باب الكوخ، وكانت برونا تجلس على فراش من المعسكر، على مرتبة بلاستيكية ترتفع من كل طرف، وبجوارها، كان هناك طفلان، صبية عمرها ست أعوام تقريباً، وصبى عمره أثنى عشرة عاماً، كانت نظرته حادة وكان حاذقاً. كانوا يتحدثون اللغة الرومانية، وطرح جيانيكو بعض الأسئلة على المرأة؛ كان طالعها رقيقاً، شعرها لونه أشقر نحاسى قليلاً، عيناها شديدتا الخضرة، صغيرتان، حيويتان كعينى حيوان. كانت تنصت إلى ما كان يقوله جيانيكو وكان نظرها يمضى منه إلىّ، كما لو كانت تحاول أن تتبين الحقيقة.

ثم نهضت، وذهبت نحو نهاية الحجرة، وسحبت ستارة، وفى مخدع النوم، كانت هناك عربة طفل سوداء، وفى العربة كان هناك رضيع نائم. قال جيانيكو: "إنها أنثى"، وأضاف بصوت منخفض وبسرية: "إننى

قلت لها أنك تعرفين إناس أغنياء، أطباء، محامين، وبدون ذلك، لم يكن لها أن تريك طفلها "، ولم أعرف بماذا أجيب، و نظرت إلى الرضيعة النائمة و المخفية كلها تقريباً بالثياب المسردة والملابس، وتساءلت: "ما اسمها؟ "

هزت بورنا رأسها، وصار وجهها قاسياً وصلباً، وأجاب جيانيكو بعد صمت طويل: "ليس لها من اسم، من سيشترونها سيمنحونها اسماً".

ولكن عندما خرجت من المنزل، قال لي جيانيكو بصوت منخفض: "أتعلمين، هذا غير حقيقي، هذه الطفلة لها اسم، إنها تُدعى ماجدة "، وفكرت في بياتريس المحررة، ما كانت قد قالته بشأن طفلة حورية من أنه إذا لم تستطع أمها أن تتولى أمرها، فإنها تحب أن تتبناها. قلت لجيانيكو: "لو كان حقا أن هذه المرأة تريد بحق أن تبيع أبنتها فأنني أعرف شخصاً ما يشتريها"؛ قلت ذلك وحلقي مشدود، لأنني فكرت في ذات الوقت أن شخصاً ما كان قد قال نفس الشئ في السابق عندما أختطفت وأنه من المفترض أن لالا أسماء أجابت هي أيضاً: " أستطيع أن أشتريها أنا". كان الطقس مظلماً ورمادياً هذا المساء، وكانت السيارات تمر من جانب جزيرة البوهيميين محدثة غطيط كنهر في فيضانه. اصطحبني جيانيكو حتى موقف الأتوبيس، ثم عدت إلى باريس.

بعد ذلك بثلاثة أيام، مات الحاج، وأخطرني حكيم بذلك عن طريق صديق له؛ وكنت أعد نفسي "تلقي درس الفلسفة في مقهى لا ديسيسبرانس عندما علمت هذا الخبر، فاستقليت على الفور القطار حتى إيفري -

كوركورن، وكانت السماء كعادتها دوما رمادية ومنخفضة، وكأن الأيام لا تمر، بينما كانوا يتحدثون في المذياع عن الثلج.

كان باب الشقة الصغيرة مواربا، فدخلت في هدوء كما لو كان الحاج لا يزال على قيد الحياة، ولم أرد أن أفزعه. كان المطبخ الذى عادة ما كان يمكث فيه خاليا، وفى غرفة نومه، كانت الستائر منخفضة إلى النصف. رأيت في البداية حكيم من ظهره، بالقرب من الفراش، ثم أناس آخرين لم أكن أعرفهم، جيران بلا شك، رجال مسنين، ، امرأة، فارعة وقوية، ظننت أنها على الأرجح أم حكيم، ولكنها كانت في مقتبل عمرها، وكان نمطها على الأحرى عربيا، بشرتها بيضاء، وشعرها مموج ومصبوغ بالحناء، ربما كانت هذه السيدة خادمة أو بوابة المبنى. كان الحاج راقدا على السرير، مرتديا ملابسه على أكمل وجه، دوما في قميصه الطويل الأزرق دون الرقبة وبنطاله الرمادى ذى الثنية المكوية الرائعة، وكان ينتعل حذائه الثقيل الأسود المصقل، كما لو كان يعد نفسه للرحيل في سفر، و لم أراه أبدا هكذا من ذى قبل: كان شكله متصلبا كقبضة اليد، وكانت عيناه منتفخة الجفون، وكان فمه وأنفه مغلقين ومشدودين، وكان يبدو على وجهه تعبير عن الحزن والضيق، وتذكرت ما قاله عن نهر السنغال، عن قريته يامبا وعن نهر الفاليميه، كل ما كان يحبه في الدنيا، وفي أنه مات بعيدا جدا، وحيدا في غرفته، في الطابق الثامن من السبرج *B* الواقع في طريق فيلابيه.

الآن الكل صامت، كان حكيم ينظر إليَّ بينما كنت أتلمس جبهة جده، لبرهة فحسب، فلمست جلده البارد المحبب بأطراف أناملي؛ وكان الجو شديد الهدوء، شديد الصمت، فوددت أن يكون هناك صخب، كما يحدث في الأفلام عندما نسمع النسوة تبكين في تنهدات طويلة مشجية مبالغ فيها، ويكون هناك جلبة من أصوات الرجال وهم يحتسون قهوة الميت، أو كما يحدث لدى المسيحيين في ضمغمات الصلوات. كان هناك كلب يموي في الفناء، وكان عواءه عواء حزن، ولكن لم يكن هناك أي شئ آخر، فقط ضوء تلفاز في مكان ما في أعلى المبنى، وكان القادمون ينسحبون واجمون متحاشون أن ينظرون إليَّ. وتمنيت أن يكون هناك عازفو التم تم بمحطة المترو حتى يعزفوا دون توقف موسيقى كصوت الرعد عبر الغابة، تحيط بهم ورود، وتغنى سيمون بصوتها الخفيض، "الأسود هو اللون الحقيقي لبشرة حبيبي". خرجت المرأة البدينة بهدوء، وتبينت أنها تشبه لالا أسماء، كانت لها نفس النظرة الشاردة المتأملة قليلاً خلف عدساتها، و لا أعلم لماذا مسكتها من قبضة يدها واقتدتها نحو الفراش قائلة لها: "من فضلك، امكثي قليلاً، لا ترحلين"، فهزت رأسها، وكان صوتها أجشاً، مختنقاً حينما قالت: "لقد كان طيباً". قالت ذلك كما لو كانت تعتذر، انسحبت ببطئ، ودفعت أناملي، فكتها واحدة تلو الأخرى، وكان عليها تعبير بالخوف في عينيها الخضراوتين، وكان يبدو لي أن حدقتيها السوداوين تسبحان في منتصف قزحيتها.

نهاية، خلصها حكيم مني، ثم مسكني من كتفي، كما يجري مع مجنونة بالهستيريا، فقد كان حكيم بمثابة أخي، وكنت بالنسبة له كماريما. أحسست على وجهي وكأن أنامل الحاج الهرمة تمر برقة على عيني، على وجنتي، على شفتي، فلم أعد افلح في التنفس، وكان هناك شئ ما ينتفخ فيَّ، في صدري، يكظم حلقي، وتمتمت: "كان لي جداً، ذلك حق، أما الآن فماذا أكون؟"، وكنت أتمتم بكلام غير مترابط، وكان الكلام يخنقني. ظن حكيم أنني أبكي ولكن لم تكن بي دموع، إنما الغضب، ووددت لو أن أهشم كل شئ في هذا المبنى، وددت لو أشق السماء الكثيفة التي كانت قد منعت الحاج من الرؤية، أهشم الزجاج والستائر، أهشم عربات القطارات والأتوبيسات، قضبان السكك الحديدية، السفينة التي تنتظر وقتاً كبيراً كي تشارف شواطئ نهر السنغال ويامبا على نهر الفلاميه.

شدني حكيم بسرعة لدرجة أنني انهرت على الأرض بجوار الفراش ورأيت كل ما نزع الحياة عن الحاج، المبولة، زجاجات الكُرتزون[40]، وكل ما سقط منه على الأرض والذي لم يكن هناك وقت كي ينظفه أحد ضمني حكيم للحظة طويلة في صدره، وأظن أنه هو أيضاً كان في حاجة للمواساة؛ وفي لحظة ما، قَبّلَني، وشعرت بالدموع تنساب على وجنتيه، ثم انتهى ذلك. نهضت وانصرفت، لم أنظر إلى جسد العجوز كامل

---

(40) الكرتزون cortisone هو هرمون ذو فعالية في معالجة التهاب المفاصل الرثياني.

(المترجم)

الثياب على فراشه. اعتقدت أنه لن يعود إلى بلاده على شاطئ النــهر، سيظل في فيلابيه في دار الموتى حيث سيجدون له موقعاً صغيراً؛ وبدلاً من النــهر، سيسمع ضوضاء السيارات على الطرق السريع، وهل لهذه الأشياء أهمية ؟. في القطار، المشابه للصحراء في هذه الساعة، رأيت الليل يسهبط عبر الزجاج القذر، أظن أنني كنت أفكر في ماجدة أكثر من الحاج، وكان القئ على شفتي، ولم أكن قد تناولت أو شربت شيئاً في الصباح.

قبل أن أدخل باريس، تركت نفسي أقع في شراك مفتشي القطــار؛ وعادة كنت أراقبهم جيداً، فكنت أهبط لحظــة صعودهــم؛ ولكــن هذا اليــوم، نسيت نفسي، وكنت في حلم، فاترة الهمــة، كمــا يحــدث لإنســان علــى أثــر الإصابة بألم شديد. ربما كانوا قد شاهدوني من ذى قبل، وعندما نظرت إليهم كانوا أمامي، وجاءوا تجاهي مباشرة متجاهلين الركاب الآخرين؛ وكان هناك الأطفال البوهيميون – الذين رأيتهم لأول مــرة مــع جينــاكو –، فأســرعوا فــي الفرار مظهرين لهم أصابعهم، ولكن رجال التفتيش كانوا يبغونني أنا؛ وفــي البداية، كانوا مهذبين معي ورسميين تقريباً.

قال أحدهم: "آنستي، مــا معــك مــن بطاقــة سـفر، تفضلــي بــإخراج بطاقتك الشخصية لنا"، وعندما قلت لهم أنني ليــس معــي بطاقــة شــخصية، ومن ناحية أخرى، حتى لو كانت معي، ما كان لكــم الحــق فــي طلبــها منــي. أصبحــوا أقل أدباً وقــال أحدهـــم: "فــي هــذه الحالــة، تمضــين معنــا إلى المركز".

كانوا عبارة عن زوج من الرجال متناقضين في الشكل، أحدهم فارع وقوي، ذقنه ثنائي وشاربه صغير ولونه أشهب، أما الآخر فقصير وأسمر البشرة ويبدو عليه الانفعال، وهو يتكلم بلهجة مدينة تولوز[41]. أخذاني، كل واحد منهم من ذراع، ومروا بي في القطار من عربة إلى عربة حتى القاطرة، ثم أجلساني بينهما على مقعد صلب بجوار الباب، وقلت لهما إنهما يتعسفون في استخدام القوة وإنه لم يكن لهما أن يلجأ إلى العنف معي، ولكنهما ظلا غير مكترثين بما أقول. استمر القطار في السير نحو باريس، ثم هبط الليل، وكان حارسي يتحدثان فوق رأسي كما لو أنني لم أكن بينهما، كانا يتبادلان أخبار مكتبيهما، ويقصان حكاياتهما؛ وكان بوسعي أن أثير شفقتهما بأن أقص عليهما أن جدي مات وأنه لهذا السبب افلحا في مباغتتي في القطار، ولكنني لم تكن لدى الرغبة في أن يشفقا عليّ في أي شئ، ولا من أجل أي شئ في الدنيا، و لم أرد أن استخدام الحاج في الحصول على ميزة من مثل هؤلاء المرتزقة.

في محطة اورسترليتز، حملاني إلى مكتب صغير خلف منافذ التذاكر، ثم تركاني أنتظر ساعة كاملة، وفي خلال كل هذا الوقت، ظلا أمام الباب يشعلان السجائر ويتبادلان نكاتهما، فظننت أنني سمكة صغيرة في يد رجلين قويين للغاية يرتديان زياً موحداً، ويحملان أصفادهما ومسدسيهما

(41) إحدى مدن الجنوب الفرنسية وتتميز بلكنتها المختلفة في تنغيم الأصوات عن اللهجة الباريسية. (المترجم)

الأوتوماتيكيين، ولكن ربما كانا يعتقدان أن ما من شئ عديم المغزى في الحياة، وأن هناك أناس يحبون الاعتقاد في ذلك.

وصل رئيسهما، أراد أن يستجوبني، فجلس بالقرب من وجهي، وقال: "ما اسمك؟"

– ليلى.

– هل أنت بالغة؟

– لا أعرف، نعم، لا، ربما.

– أين أبوك؟

– في أفريقيا.

وهنا ساءت الأمور، وكان رئيس المكتب قصير لا شأن له، يدعى كاستور، وكان ذلك على الأرجح اسمه الذى فككت رموزه من على مظروف وضع مقلوباً على مكتبه.

– أليس معك مستندات شخصية ؟

كانت المخاطبة بصيغة أنت علامة على الانفعال؛ وحتى أهدأ الموقف، طرأت عليّ فكرة طيبة، فقلت له: "يمكنك أن تستدعي محاميتي"

– أتريدن أن أصفعك صفعة؟

لم يكن ذلك بمثابة الوسيلة المثلى لتهدئتهم، فقلت: "حسناً، هي ليست بحق محاميتي، إنها السيدة التي تهتم بأمري، وهي تعمل محررة ".

أعجبهم قولي، فأمليت عليهم اسم ورقم هاتف بياتريس، على أنها محررة أو معلمة، فلم يكن ذلك مختلف كثيراً، ولم أرد أن يذهبوا حتى شارع جافلو، حيث كانت هناك مضايقات كافية تواجه كل من نونو وحورية، ولحسن الحظ، أنني منذ أن دخلت إلى باريس، فعلت كالفدائيين في أفلام الحرب، نزعت عني كل ما يمكن أن يفيد في التعرف على هويتي.

قَدمت بياتريس على الفور في سياراتها الصغيرة الإنجليزية، فسددت كل شئ، التذكرة والغرامة، وحتى أنها تلقت منهم وعظاً .

كانت السماء تمطر رذاذاً، وكانت ماسحة زجاج السيارة تحدث صريراً على الواقية من الريح، كما لو كانت السماء تمطر رمالاً، وقلت لبياتريس: "لن أستطيع أن أعود إلى منزلي".

نظرت إلىّ للحظة، وبحثت عن شئ تجيبني به، ثم قالت: "إذا شئتِ، يمكنك أن تأتي لتنامين في منزلي، ريمون لن يقول شيئاً ".

ولم يكن هناك من شئ أكثر من ذلك يسعدني، وضعت رأسي على كتفها، فلقد كنت في هذا المساء في حاجة إلى أن أومن أن لي شخصا ما في الحياة، صديقة أو أخت كبرى.

مكثت وقتاً طويلاً في منزل ريمون وبياتريس، وأظن أنني كنت متعبة للغاية، ولم ألحظ ذلك، لأنني كنت أغدو وأعود، ومر بي الكثير من الأحداث: رضيعة حورية ونونو والدروس والمشتريات وسيمون التي كانت

لدينا، والحاج الذي رحل عن الدنيا، وفجـأة، لم تعد لـدي القـوة، كاللحظـة التي تركت فيها منزل السيدة وحملني نونو إلى شارع جافلو.

مكثت عشرة أيام في منزل بياتريس، أو ربما شهر، لا أسـتطيع أن أجزم بذلك. في خـارج المنزل، كـان الطقـس بـارداً، داكنـاً، أو لربمـا كـانت السـماء تثلـج، فظللـت راقـدة علـى الفـراش الموضـوع فـي جـزء مـن الصـالون يستخدم كمكتـب، بينمـا ظلـت بيـاتريس تنـام فـي حجـرة نومهـا، وكـانت هناك كتب في كل مكان، في كراتين وعلى الأرفف، فكنت أمضـي وقتـي فـي قراءة الروايات أو كتب التاريخ وأيضـا الأشـعار. كنـت أطـالع مـالابرت[42]، كامي[43]، أندرية جيد[44]، فولتير، دانتي، براندلـو[45]، جيليـا كريسـتفا،

---

(42) Malaparte كاتب إيطالي عاش بين 1898و 1957. من أشهر رواياته " الجلد " La peau 1949. (المترجم)

(43) Albert Camus روائي فرنسـي عاش بـين 1913 و 1960 مـن أهـم أعمالـه الروائيـة "الغريب" L'étranger 1942 "والطاعون" La peste 1947 . حصـل علـى جـائزة نوبل للآداب عام 1957. (المترجم)

(44) André Gide روائي فرنسي عاش بين 1869 وعام 1951. من أهم أعماله "الأطعمـة الأرضية" nourritures terrestres 1902، "والبـاب الضيـق" La porte étroite 1906 "وعندما لاتموت الحبة" Si le grain ne meurt 1920-1924. حصل علـى جائزة نوبل للآداب عام 1947. (المترجم)

(45) Pirandello كاتب إيطالي عاش بين 1867 و 1936. من أهم أعماله "لكل حقيقتـه" 1917 و "ستة أشـخاص تبحـث عـن مؤلـف" 1921. حصـل علـى جـائزة نوبـل عـام 1934.(المترجم)

ايفان اليش[46]. فوجدت أنهم جميعاً يستخدمون نفس الكلمات ونفس الصفات، ولم يكن ذلك أمراً مؤثراً، ولم يكن مؤلماً، فلقد كان ينقصني فرانز فانون. حاولت أن أتخيل ما يمكن أن يقوله، وكيف كان يمكن له أن يتحدث عن الدين، وضحكته الساخرة أمام مثل هذه السخافات. كان الشعر الذي طالعته غريباً، كما لو كان ليس لمثلي ولا يخاطبني؛ ومع ذلك، كنت أحسب أن أنتقي هذه الكلمات لكي أغنيها، لكي أطلقها في الغرفة، ثم أسمعها ترتد، تتحطم إلى ألف قطعة، أو على العكس تسقط مفلطحة على الأرض كفاكهة زابلة؛ وكنت أمسك بكراس أسطر فيها الكلمات التي كنت أعثر عليها وكذلك أطراف جمل:

طقس

ظلال

طائر القيثارة[47]

مصقلة الفجر

يحرف

الأمواج ترتطم

طرقعة السماء.

---

(46) Ivan Illich كاتب من أصل نمساوي ولد في فينا عام 1926 أنشأ جامعة حرة في المكسيك. عُرف بمهاجمته القاسية لأنظمة التعليم. (المترجم)

(47) طائر القيثارة هو طائر به ريشتان طويلتان تجعله يبدو كالقيثارة. (المترجم)

وكان ذلك لا يعني شئ. كانت بياتريس تعود حوالى الساعة السادسة، كانت تفتح الباب وتُدخل تحمل معها نسمة من المدينة، من الضوضاء، من الدخان؛ وكان ريمون يأتي بعد ذلك، فكان يحمل الخمر، وكنا نتناول نحن الثلاثة في المطهي، فطائر حبقية و جبن، وكنت أحب أن أظل معهما، فلقد كانا أناس أمناء جداً وواضحين جداً وطيبين جداً.

أجلت لحظة التحدث إليهما عن ماجدة، فلقد قلت لنفسي أنني ما إن أتلفظ باسمها، حتى لا يكون أمامي إلا أن أنصرف، وسيعود من جديد الشارع المفتوح والناس الذين يدفعونني و ضوء السيارات ومدخل شارع جافلو المشابه لدهليز يؤدى إلى مركز الأرض.

كانا يتحدثان عن مهنتهما، فكانت بياتريس تقص ما يحدث في يومها: صرخات رئيس عملها، المحادثات الهاتفية، مشكلات لم أفهم منها شئ، كما لو كان كل هذا العالم مشفر، أما ريمون فكان يتحدث بكلمات أحادية المقطع، وكان يتدرب في مكتب محاماة بعيداً في منطقة سارسيل أو في منطقة فلرى – موراجيس، وكان مكلف بشئون الآخرين.

حاولت أن أتخيل حياة ماجدة لديهما: ماجدة في الغرفة المدهونة باللون الوردى، لها فراش بهي كله أبيض، والبلور الذى تنبعث منه موسيقي والذى يعلق في هذا البلد فوق الرضع لتعليمهم الصبر، و ماجدة مهرولة نحو المطبخ مادةً ساعديها الصغيرين نحو ريمون صائحة: "دادا"، فيقول لها: "جولى " أو "رومى". وعلى أية حال، لم تكن القضية أن يعرفا

اسمها الحقيقي، فربما ذات يوم، عندما تكبر، سأكون بالنسبة لها بمثابة خالتها، ويمكنني حينئذ أن أخبرها بالحقيقة قائلة لها: "سوف أقول لك اليوم اسمك الحقيقي، الاسم الذى ولدت به"، وربما سيقول لها ذلك جيانيكو، فقد تقابله ماجدة مصادفة في ممر مترو، في محطة ريمويير – سيباستوبول، و يناديها حينئذ صائحاً: "ماجدة، ابنة خالتي".

سماها كلير، لأن ذلك الاسم كان اسم أم ريمون، وسماها جوهانا، ذلك أن بياتريس كانت تحب هذا الاسم، وكانت تغني لها: "هيا ياجوهانا"، وكانت في الخامسة عشرة من عمرها أثناء حرب فيتنام كالكثير من الصبية الآخرين.

لم أعرف كم دفعا فيها، فلقد ظللت بالخارج، في الريح، أسمع صوت السيارات المتدفقة حول الجزيرة، كانت هناك غربان في السماء، كما حدث في يوم ميلادى، ولكن الغربان لم تكن تصيح صيحات الهلع.

حدث كل ذلك في هذه الفترة، وربما فعلا ذلك بسبب رحيل حورية إلى منزل السيد في، وأصبحت أعيش بمفردى، ولكي أكسب قليلاً من النقود، عُينت من قبل هيئة للبكم الصم كي أضع بطاقة على مناضد المطاعم مع حاملة مفاتيح فأجمع القليل من النقود؛ وكنت أنتبه جيداً عندما كنت أمضي أضع حوامل المفاتيح في مطاعم المركز التجارى، أو عندما كنت أمضي أستمع للموسيقى في محطة ريومير، ولم أكن أمر مرتين من مكان واحد قط، وكنت أتحاشى الدهاليز المهجورة والبوابات الكبيرة و لم أكن أنظر إلى أى شخص في عينيه.

كنت أعرف العصابات من بعيد، حيث كانوا يشكلون مجموعات صغيرة في الشارع بجانب إيفري أو في جانب ميدان جان دارك، وما إن كنت ألمح مجموعة منهم، أسرع فأعبر الشوارع بين السيارات وأختفي في الجانب الآخر، كنت سريعة وماهرة جداً، وما من أحد كان بوسعه أن يلحق بي. وفي بعض الأحيان، كان ينتابني إحساس أن هذه هي الغابة، أو الصحراء، وأن هذه الشوارع عبارة عن أنهار، أنهار كبرى من الماء المغلي الذي تغرس فيه الصخور، وأنني التي بنفسي من صخرة إلى أخرى وأني أتراقص. كانت ضوضاء منبهات السيارات وغطيط المحركات تأتي من تحت الأرض وتصعد عبر ساقاي، ثم تملأ أحشائي. وبالرغم من ذلك لم أرى هذا الرجل وهو يتقدم إليَّ فعلى الساحة الكبرى التي مسحتها الرياح وأضاءتها الفوانيس، كان يبدو طبيعياً ككل الناس، في واقي المطر وقبعته العسكرية، وكانت يداه في جيوبه، وكان وجهه أشهب، وكنت آنذاك متهمكة في حصر النقود التي جمعتها من مطعم الفيتناميين، مائة أو مائة وخمسين فرنكاً، في بضعة دقائق، دون أن أفعل شئ سوى وضع حوامل المفاتيح على حافة كل منضدة مع بطاقة تدل على أنني صماء بكماء.

في اللحظة الأخيرة، رأيت نظرته لي، ثم انتابني خوف لأنني عرفت من قبل عيون هابيل القاسية الثاقبة حينما تبعني إلى مغسل الثياب، ولكن كان قد فات الآوان، فمسكني من قبضتي يدي وشدني بقوة هائلة دون أن يقول كلمة. على الأرجح أنه راقبني، ثم جاب المتاجر حتى يعود ويجدني في

المكان الذى كان يرغب أن يجدنى فيه، فى حائط التقوية، الواقع بين جدار البرج والمتاجر المغلقة.

أردت أن أصرخ، ولكنه دفع يده على جوفى ولكمنى كما لو كان يريد أن يكسرنى إلى جزأين، وفقدت النفس وانهرت وأصبح ساعدى وساقاى عديمى الحركة. كان هذا أمراً غريباً لأننى مع ذلك كنت أعلم ماذا سيحدث لى، كنت خائرة القوة كما يحدث للإنسان لحظة الكابوس. نزع أزرة بنطالى الجينز بإحدى يديه، فلقد كان قوياً وماهراً، وباليد الأخرى مسكنى من الخلف فى مواجهة حائط التقوية، وأتذكر أننى شممت البول، وكانت هناك رائحة مفزعة هاجمتنى، وجعلتنى أتقيأ، وأبان عن نفسه وحاول أن يفعل بى وهو يدفع كليتيه، وكان تنفسه يحدث صوتاً، فيرن فى زاوية المبنى.

لا أعلم كم من الوقت استغرق هذا الأمر، ولكنه بدا لى وكأنه أبدى: هذه اليد الموضوعة على صدرى، وهذه اللكمات الموجهة إلى جوفى، وأنا التى لم يكن بوسعها التفكير ولا التنفس. وكان يبدو لى أن هذا لن يبلغ نهايته مطلقاً. ثم انسحب الرجل، وأظن أنه لم يفلح لأننى كنت قصيرة بالنسبة له، أو لأن شخصا ما قد ضايقه، فرحل بسرعة، وظللت أنا فى الركن، وكنت مثلجة وواهنة، وكنت أنزف دما على الأسمنت. هبطت السلم حتى الشارع وعدت إلى الكهف، سخنت مقلاة ماء حتى أغتسل فى حمام رضيعة حورية؛ كان كل شئ ساكناً ومختنقاً، وكان يبدو لى أننى صماء تماما فى هذه اللحظة، ولم أكن أعلم أين كنت، و أعتقد أننى تقيأت فى الحمام فى نهاية الممر، وأظن

أنني صرخت، فتحت باب الإنقاذ وصحت في النفق، وأنا أزأر حتى يصعد ذلك إلى أعلى الأبراج ولكن لم يسمعني أحد، فلقد كانت هناك محركات تهوية، تنطلق الواحد بعد الآخر مع رجة كرجة طائرة، فابتلع ذلك كل صراخي. فكرت في سيمون، فلقد كانت لدى رغبة محمومة في رؤيتها وفي أن أكون بجوارها وهي تردد مقطعاً موسيقياً، ولكنني كنت أعرف أن ذلك أمراً مستحيلاً، وأظن أنني غدوت بالغة في هذه الليلة.

كان أمراً طيباً أن أكون نائية عن كل شئ في منزل بياتريس، فمنذ وقت طويل لم يحدث أن كنت في مأمن دون تفكير في الغد، ودون هموم، وكنت أفعل ما أريد أن أفعله في الشقة، في ترتيب الأشياء بهدوء، في مراقبة الرضيعة مثلما كنت أفعل عندما عادت حورية من المستشفى، مع وجود فارق وهو أنه في منزل بياتريس، كان هناك الضوء والشمس، وكان الطقس رائعاً ولم يكن هناك ما تُخشى عقباه؛ وكانت نافذة البهو تطل على فناء داخلي صغير حيث ينبت شجر الليلاب، وكان ورق الشجرة مليءً بعصافير الدوري، حتى أنني ذات صباح، وجدت دورياً على حافة النافذة، وكان مغشياً عليه، وكان ريشه مشعث، فأخذته وسميته هاري، ثم أخذت كرتونة أحذية من الدولاب الخشبي، ومن القطن صممت له عش أملس. ثم وضعته في غرفة الرضيعة بجوار فراشها ؛ وكان ذلك أمراً يدل على عذوبة وحنان، كما لو أنني لم أرى شيئاً رديئاً في الدنيا، وكما لو لم يكن هناك عصابات ولا عَسكر ولا فتيات مقهورات ولا شيوخ يموتون من الجوع في

أكواخهم القذرة ذات المصارع المغلقة. أعددت قارورة الرضاعة لكلير، أو لجوهانا - وكنت أفضل هذا الاسم الأخير - ثم أخذت بعض قطرات الحليب الساخن كي أمزجها بباطن الخبز.

في علبة الأحذية، كان هاري مبللاً، ولكن ريشه بدأ يجف من الماء، وكان ينظر إلى وأنا أضع كرات الخبز أمامه دون أن يتحرك، عدا عينه السوداء التي كانت تبرق، ثم أعطيت قارورة الرضاعة لماجدة - لم يكن بوسعي حتماً أن أنسى اسمها الحقيقي - وفي اللحظة التي انتهت فيها الرضيعة من تناول الحليب، بدأ العصفور يزقزق ويحمحم في العلبة.

لا أعرف إن كان قد أفلح في التهام قطعة الخبز الصغيرة أم لا، ولكن درجة الحرارة المناسبة في الغرفة الصغيرة أنعشته كلية، وبعد ذلك بلحظة طار، وأخذ يفرقع خشب النافذة ؛ ومن الجانب الآخر في أوراق الشجرة، كان رفاقه الصغار يطيرون في كل اتجاه وينادونه، مما جعلني أفتح النافذة ليفر على الفور؛ وفي خلال ثانية رأيته يختلط بعاصفير الدورى الأخرى، كانوا يتزوبعون كأوراق في الريح، وبعد مرور لحظة من ذلك، أختفى هاري معهم.

بينما كنت أمد قارورة الرضاعة إلى جوهانا، رأيت المفتشين في الأسفل في الشارع، كانوا يرتدون ملابساً على نهج كل الناس: وقاء مطر وسترة و أحذية تزحلج، ولكنني عرفتهم جيداً، فقد كان لدى حاسة تجاه هذا الصنف من الناس؛ وكانوا ينظرون نحو نوافذ المبنى كما لو كانوا يسعون

للرؤية من خلال الستائر، ثم دخلوا إلى المبنى، ومن الجائز أنهم طرحوا أسئلة على البواب البرتغالي الذي لا يحبني، ثم دقوا جرس الباب بشكل مستمر، فضَيَّحَ دقهم للباب جوهانا، وكان دقهم يرن في أعماق رأسي كصيحة حشرة.

لم أتحرك من مكاني حتى رحلوا، وكنت مضطربة، ولم يكن بوسعي أن أظل دقيقة واحدة أكثر من ذلك في المنزل، ومع ذلك لم يكن بوسعي أن أترك جوهانا بمفردها تصرخ في مهدها؛ حينئذ بحثت عن رقم هاتف بياتريس في جريدتها، وكنت مضطربة إلى حد أنني وضعت سماعة الهاتف على أذني الصماء، و لم أكن أسمع شيئاً مما يُقال، وكنت أكرر كلماتي كالببغاء: "بياتريس، من فضلك، عودي فوراً، من فضلك، عودي فوراً، الأمر عاجل، من فضلك يا بياتريس"؛ وفي اللحظة التي دلفت فيها أغلق الباب، دق جرس الهاتف، وبوضعي للسماعة على أذني السليمة سمعت بياتريس تقول لي: "ليلى، ماذا يحدث؟ "، فقلت لها أن تعود، لأنه ينبغي عليّ أن أرحل، وكنت في هذه اللحظة هادئة للغاية، فوضعت سماعة الهاتف قبل أن تطرح عليّ أسئلة أخرى؛ ثم نامت الرضيعة جوهانا، وحينئذ مشيت في الشوارع نحو محطة اوسترليتز.

عدت إلى شارع جافلو، وعندما سرت في النفق الطويل حتى باب مبيت السيارات حيث ظلي رقم *28*، كان قلبي مقبوضاً، فلقد بدا لي أنني لن يمكنني أن أعيش في هذا المكان، وأن حياتي لابد وأن تكون في مكان آخر،

لا يهم أين، بل أنه ينبغي أن أرحل وحسب؛ وكان جيانيكو يقول مثل قولي هذا "أتعلمين، في بعض الأحيان، ينبغي عليّ أن أفر، فالأمر أقوى مني، وبعد ذلك، ربما أعود، ولكنني إذا بقيت هنا، فسوف أقتلك وأقتل نفسي"، وفي هذه اللحظة، أدركت ما كان يعني أن يقوله.

في شقتنا، لم يتبدل شيء، كنا نختنق من جهاز التدفئة الذي كان يرهق شركة الكهرباء حتى الموت، و لاحظت أن نونو جلب أجهزة جديدة، أجهزة تلفاز، أجهزة عرض مرئية، تسجيل كبير، وكانت هناك أيضا دراجة نارية جديدة، حمراء اللون مقعدها في لون جلد الحمار الوحشي، ولم أدرك لماذا كان لدى إحساس أنني أدخل آنذاك إلى منزل أطفال، وأعطاني ذلك رغبة في أن أضحك وأبكي في آن واحد.

على الفراش وجدت مظروفاً يحمل اسمي، ولم أكن أعرف الكتابة الأنيقة الكلاسيكية، وكان مدوناً عليه: "إلى الآنسة ليلى، باريس"، فتحته ولم أدرك الأمر على الفور، وكان ذلك جواز سفر باسم ماريما مافوبا.

كان الكهف خالياً، فلم يعد هناك أى أثر لحورية ولا لبسكال ماليكة، ولم يكن مهدها هناك، فأحدث ذلك الأمر فيّ شيئاً ما، حتى ولو أنني أدركت في أعماقي أنها رحلت من أجل شئ أفضل من هذا المكان وأنها من الممكن ألا تعود.

في جواز السفر، في موضع الصورة، كان هناك خطاب، وتعرفت على خط حكيم الردئ، فلقد كنت أجد مشقة دوماً في مطالعة محاضراته.

ما كان يقوله في الخطاب كان سهل الفهم، ومع ذلك فلقد قرأته واعدت قراءته دون أن أفهم: "عزيزتي ليلي

قبل أن يرحل جدي، كان قد وضع جانباً جواز السفر لك، وكان يقول أنك كابنته، وأنك أنت التي تستحق جواز السفر هذا، حتى تذهبين إلى حيثما تريدين، كالفرنسيات، لأن ماريما لم يكن لديها الوقت لتستخدمه؛ ستفعلين ما تريدين، أما بالنسبة للصورة، فإنك تعلمين أنه بالنسبة للفرنسيين كل السود متشابهون.

أردت ان أراك قبل أن أرحل، فلقد قررت أن أحمل الحاج إلى بلده على الرغم من كل شئ، ولقد اقترضت من البنك من أجل دراستي، وهو ما يفيدني في ذلك الأمر، إن الأمر ينطوي على خسارة لأنك لست معنا حتى تذهب إلى منزل جدى في ياما ؛ ولكنك الآن وبحوزتك جواز السفر هذا، يمكنك أن تذهبي إليها في يوم ما، وسوف أشرح لك أين يوجد قبره. أعانقك.

حكيم".

******

عندما علمت الأمر، أحسست بالدموع في عيني، ولم يحدث ذلك منذ موت لالا أسماء، فلم يقدم لى أى إنسان هدية مماثلة، اسم وهوية. وكان ذلك بمثابة أمر يجعلني أفكر فيه، هذا العجوز المكفوف الذى كان يضع برفق أطرف أنامله المستهلكة على وجهي وعلى جفوني وعلى وجنتي. ولم يخطأ الحاج ولو لمرة واحدة، فإذا كان يلقبني بماريما، فلا يعني ذلك أنه فقد

صوابه، بل كان ذلك ما أراد أن يفعله أن يمنحني اسماً وجواز سفر وبالتالي حرية في السير.

أدركت أن فصل الربيع لم يكن ببعيد عندما أخذت أشجار المركز التجاري في الأزهار، فلقد كانت هناك أشجار غريبة صغيرة غرسها الفيتناميون، أشجار خوخ، أشجار كريز، أشجار دُراقن قذمية، تلك التي كانت تتدثر بزغب أبيض أو وردي، وكانت السماء دائماً شهباء وممطرة، ولكن النهار أصبح أكثر طولاً، وكانت كرات المطر الهشة تدخل السعادة على قلبي.

منذ أسابيع لم أعد أعرف أخباراً عن نونو ولا عن أي إنسان، ولم أعد أذهب إلى محطة ريومير – سبستوبول لكي أستمع إلى موسيقى الجامبيه. هتفت إلى سيمون، ولكنني لم أجد على آلة الرد الهاتفي سوى صوت الطبيب جوبيه، الصوت الأنيق المُحتقِر الذي كان يرعشني، فلم أترك اسمي على الآلة. وبمفردي في الكهف، كنت أسمع، أحياناً في الليل، طقطقات الديزل أمام الباب، فكان قلبي يدق بشدة لأنني كنت خائفة، ولكن خوفي كان في خيالي.

جاء نونو ذات ظهر يوم من الأيام، ولو كان قد جاء بعد ذلك بقليل، ما كان لي أن أتعرف عليه، فلقد كان حليق الرأس، وكانت له نظرة غريبة، قلقة، جانبية لم أكن أعهدها عليه. قدمت له الطعام، فطائر محشوة بالجبن والتي كان يحبها، وتفاح رمادي أحمر، وخبز من نوع نيتلا. ظننت أنه سوف يقص عليَّ ما فعله وأين كان، لكنه لم يقل شيء، فقد تناول الطعام على عجل،

وارتشف أكواب كبيرة الحجم من الكوكا؛ وكانت هـذه هـي المرة الأولى التي أراه فيها غير معتني بذقنه، فكـانت هنـاك شـعيرات تنتفش علـى وجنتيه وذقنه وشفته العليا. فقلت له: "أكنت في السجن؟"

فلم يجب، ثم أشار بنعم عن طريق رأسـه، وما إن فـرغ من تناول الطعام، رقد على فراشه، واضعاً رأسه بين زراعيه، ثم نام فجأة.

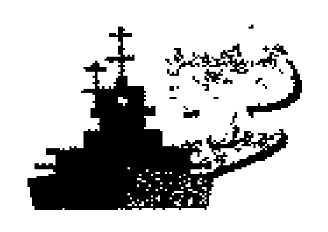
كنت في حاجـة إلى الإحسـاس بحرارتـه، منـذ أيـام وأنـا أعيـش بمفردى في الكهف، دون أن أتحدث إلى إنسان. كنت فقط أستمع إلى الموسيقى على مذياعي القديم ذى البطاريات. رقدت بجانبه، ووضعت زراعـي حولـه، ولكنـه لم يستيقظ، وظللنـا سـاعات هكـذا دون أن نتحـرك. كنـت أسمـع تنفسه؛ وحاولت أن أخمن أين ذهب أثناء كل هذا الوقت، ولا أفعل شئ سـوى أن كنت استنشق رائحته من عنقـه ومـن ظـهره؛ وعندمـا استيقظ، تضاجعنـا في هدوء، مثلما فعلنا المرة الأولى. وقبـل أن نفعـل، مضـى يبحـث عـن واقـي في جيب قميصه، وهو الذى أراد أن يضع هذا الواقي وليس أنـا، وأظـن أننـي لم أكن حتـى قـد فكـرت فيـه. ولا فـي المستقبل، ولا فـي الأطفـال، ولا فـي المرض.

ثم ذهبنا سويا على سقف البرج متخذيـن الطريـق السـرى: المصعـد حتى الدور الواحد والثلاثين، ثم باب إطفاء الحريق، ثـم السلم وسـلم رجـال الإطفاء الصغير. كانت السماء تقتطع مربعاً أزرقاً من الفولاذ فوقنا، كنافذة في فضاء لامتناهي، وفي هذه اللحظة، أدركت أنه علي أن أرحل.

على سطح الأرض، كانت الرياح تهب على كبلات الأعمدة وأعمدة التليفونات، فتحدث صوتاً غريباً هنا في وسط هذه المدينة النائية جداً عن البحر، على الرغم من سير السيارات البطئ للغاية أسفل المبنى في شارع إيفرى العريض باتجاه بلاس ديتالى، وإلى أبعد من ذلك على الأرصفة أو على الطريق المحيطى، والذى كان سيرها في أفواج رائعاً للغاية كمد البحر حين يصعد الجرف. وفجأة شعرت بالخواء الذى كان بمثابة رغبة تصعد فيَّ فتؤلمني، وكان ذلك بسبب البحر، فمنذ زمن بعيد لم أعد أسمعه، وكان ذلك شئ يدعو للدوار، سرت حتى حافة السقف، مائلة تجاه الريح، كما لو كان بوسعى أن أرمق البحر هناك، ولحق بي نونو، و لم يكن يدرك الأمر فقال: "ماذا تفعلين؟ أمجنونة أنت ؟ أتموتين؟"، فظننت حينئذ أنه ربما كان الأمر كذلك عندما يقفز الإنسان من النافذة لأنه يعتقد أنه سيجد البحر تحته. تعلقت بنونو قائلة له: "ضمنى إليك، ضمنى بقوة يانونو، إننى أشعر بالألم"، وأجلسنى أمام مربع محرك المصعد بعيداً عن الريح، وكنت أرتعش من البرد ومن الإضناء، فنزع نونو عنه قميصه الجلدى القدى ووضعه فوق ظهرى، وقال في بساطة: "هاكي ياليلى، سأعطيه لك، هكذا ستفكرين دائما فيَّ"، وكان وجهه أملسا ومنبسطاً، ورأسه كبيرة الحجم إلى حد ما، كرأس القزم، ولكن عيناه كانت رقيقة، سوداء جداً وحانية جداً. ظننت أنه أدرك أننى سأرحل، و ربما أدرك هذا الأمر قبلى، ولهذا السبب جاء إلىَّ.

كل شئ سيتغير الآن، كان ذلك بمثابة لحظة تُختتم، كنت على السقف في الطابق الثاني والثلاثين إلى أعلى، أعلى السلم الصغير، كنت أسمع الريح وعيناى تذرفان الدمع من كثرة زرقة السماء كالمرة الأولى التى وصلت فيها إلى هنا وحملني نونو إلى هذا المكان.

على المنضدة التى كنت أعمل عليها وإجابات الفلسفة للأستاذ حكيم، كان هناك خطاب وكيل الدائنين والذى جاء فيه أنهم اكتشفوا تزويراً في عداد الماء وكيلووتات مسروقة دون أى تبرير، وأن البحث جارى، وأن المجرمين سيُكتشف أمرهم وسيتم طردهم ومعاقبتهم كما ينبغى. تركت الخطاب فى مكان واضح حتى يكون نونو على علم به، وصفعت الباب الحديدى لرقم 28 بشدة حتى أن الصوت ارتفع إلى قمة البرج.



نيس

استقللنا القطار المتجه إلى مدينة نيس، واستخدم هنا ضمير الجمع، ولكنني في الواقع، كنت بمفردي التي كان معها بطاقة سفر.

صعد جيانيكو معي إلى عربة القطار، كما لو كان سيودعني، ثم تسلل في العربة، ومكث في حاملة الحقائب، فعل هذا ليمزح لأنه في الواقع لم يكن في حاجة إلى ذلك، فلقد كان يعرف كيف يراوغ مفتشي القطار وكان ذلك الأمر بمثابة مهنته.

لم يكن هناك سوى ثلاثة أشخاص في العربة، اثنان في الأسفل، وأنا في عربة النوم إلى أعلى، وبقيت للحظة طويلة في ممر العربة أشعل السيجارة بعد الأخرى، ناظرة إلى الأضواء تتراجع إلى الخلف، ثم هبط

جيانيكو من مجثمه، ولم يقل شيئاً. ولقد رأيت أن الصفعة التي تلقاها على وجنته تحول موضعها إلى اللون الأزرق – الأسود، وكنت قد فكرت أنه بإمكانه أن يرحل معي عندما علمتُ أن زوج أمه صفعه.

لم أعد أعرف من منا كان صاحب فكرة الرحيل في البداية، ربما كان هو، فمن فرط تكراره للجملة: "في يوم ما، سأهشم نفسي"، جاء هذا اليوم.

حدثني جيانيكو عن خاله في مدينة نيس، شقيق أمه، رجل يدعى رامون بورسي. ولكي يمكنه الصعود في القطار، كان ينبغي عليه أن يكون في صحبة شخص آخر، ومعي كان أمره يسيراً، ولكنه بأي وسيلة، كان سيسافر، فكان بوسعه أن يبحث عن شاحنة كبيرة في رنجيس[1] أو في محطة خدمة سيارات.

ولقد سبب رحيلي شيئاً ما في نفسي، فمنذ وقت طويل جداً وأنا أقيم في مدينة باريس، وكنت أشعر أنني أقيم بها منذ سنوات وسنوات، حتى أنني لم أعد أتذكر جيداً متى وصلت في محطة اوسترليتز مع حورية. ولقد مرت بي أحداث كثيرة، حتى أنني أشعر بنفسي عجوزة الآن، ليس عجوزة بحق، ولكنني مختلفة، أكثر ثقلاً من خبرتي. والآن لم أعد أخاف من

---

(1) Rungis منطقة بأحد ضواحي باريس مخصصة لتلقي وبيع البضائع بالجملة حيث تُحمل إليها شاحنات كبيرة من مختلف المدن الفرنسية ومن بعض البلاد الأوروبية. (المترجم)

نفس الأشياء التي كنت أخاف منها، فأستطيع أن أنظر إلى الناس مصوبة عيني إليهم وأستطيع أن أكذبهم وأواجههم أيضاً، وأستطيع أن أقرأ أفكارهم من أعينهم، واستبطن نواياهم وأجيب عليهم قبل أن يكون لديهم الوقت ليطرحون عليّ سؤالاً، وأستطيع أيضاً أن أعوى كما يعوون بإتقان.

ولكنني لم أعد أستطيع فعل ما كنت أقوم به في السابق على الأرجح، فلا أستطيع أن أسرق في متجر كبير، أو امضي وراء شخص ما وأتخيل أنه من أسرتي، وأتعقب شخصاً ما في الشارع وأقول أنه حبي الكبير.

وأدركت أن مارتيال أو هابيل أو زُهرة لا يمثلون خطراً، إنما ضحاياهم هم الذين يشكلون خطراً لأنهم مستسلمون.

عرفت أن الناس لو كان لهم الخيرة بينك وبين سعادتهم، لاختاروك أنت.

عند مدينة ليون، كنت متعبة للغاية، فصعدت على مقعد النوم الذي يعمل بنظام اللمس. كانت المرأة التي ترتدي ملابساً وردية اللون تنام في الطابق الأرضي من عربة القطار، ورأيت في الطابق الأول رأس الأسبانية المستديرة التي كانت تلمع في ضوء المحطة، وسميتها بالأسبانية لشعرها وعينيها الشديدتي السواد، وظننت أنها ستقول لي شيئاً، ولكنها اكتفت بتفحصي دون أن تحرك رموشها ودون أن تبتسم لي. أما جيسانيكو فقد تمدد على مقعد النوم وكان يغط تقريباً، وكان يفوح منه عرقه وملابسه القذرة بشكل لافت للنظر، فكان الأمر وكأنني أنام بجوار متشرد، دفعته نحو حائط

العربة، ولكن اهتزازات القطار كانت تدفعه نحوى بلا توقف ؛ ثم خلصت إلى النوم ينتابني نعاس ثقيل، تقطعه ومضات الضوء وصوت عجلات القطار على شريط السكة الحديد.

ثم انتشلني جيانيكو من فتوري، فلقد هبط من مرقده دون أن يحدث أي صوت، متعلقاً بالسلم الصغير كالقرد، ثم قال لي في أذني حتى لا يكون عليه أن يصرخ: "تعالي، يا تاتا ليلى، تعالى كي ترين"، فخرجت تحسساً، وكان الضوء خافت في عربة القطار، وكان الطقس حاراً، كان هناك رائحة نسمة، وفي ممر عربة القطار، كانت النافذة تقطع زاوية تحجب الرؤية، وكانت المنازل وأبراج الأسلاك الكهربائية المتاخمة للبحر تجعله يتلألأ في أشعة الشمس، وكان القطار يتعرج على طول الساحل ويتخطى الأنفاق، ويخرج منها، أما البحر فكان حاضراً دوما، لامعاً في الشمس، في لونه الأزرق الفاقع إلى حد أن عيني تغرغرت بالدموع من النظر إليه.

كان جيانيكو يرقص في مكانه، فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها البحر ؛ وعندما جاء من رومانيا، حمله القطار، هو وأمه وأخوته من تيميزورا، مباشرة دون أن يتوقف، إلا لعبور الحدود عبر الحقول بين ألمانيا وفرنسا، ثم لحقوا بمعسكرات البوهيميين.

من آن إلى آخر، كان يلتفت نحوى بابتسامته العريضة والتي كانت تجعل أسنانه تلمع وسط وجهه الداكن، ليقول، "أترين ؟ أترين ذلك؟"

هبط الناس من القطار بعضهم تلو البعض الآخر، في كل مدن الساحل، اجيه، سان رفائيل، كان، أنتيب، حتى صرنا بمفردنا في العربة قبل الوصول إلى مدينة نيس ؛ وكان القطار يسير على طول شاطئ طويل من الحصى الأملس، يتبعه طريق حيث تسير السيارات بنفس سرعة القطار، وكانت هناك أمواج تتدفق بانحراف، وطيور نورس تطوف فوق البالوعات، وكانت الشمس تلمع عبر الزجاج، وكان يبدو لى أننى استيقظت، أو نهضت من حلم طويل، كما ينهض الإنسان من مرض.

ودون أن نترك موقعنا في ممر العربة، أخذنا الإفطار الذى حملتهُ من باريس، برتقالات (مغربية) وشرائح خبز بائتة مبطنة بقشرة من الشيكولات، ولم يكن بوسعنا أن نتناول لحم الخنزير لأن ذلك كان محرماً بالنسبة لى، أما جيانيكو فكان يقول أن لحم الخنزير لايُعد طعاماً للإنسان، وأذكر أنه ذات مرة ونحن نناقش هذا الأمر، قال لى – ولا أعرف من أين أتته هذه الفكرة – أنه من الممكن أن يجعلوك تأكلين لحم البشر قائلين لك إنه لحم الخنزير، وربت على مؤخرته حتى يبين ما كان من أمر ذلك.

كانت مدينة نيس جميلة كما تخيلتها، مدينة جميلة بيضاء في قببها العادية وقببها البصلية، وكان هناك الكثير من الحمام والشيوخ، وكانت هناك الشوارع الكبيرة المحاطة بأشجار الدُلب[2] والمكتظة بالسيارات

(2) الدُلب هي شجرة للزينة يكثر غرسها على أطراف الشوارع الفرنسية. (المترجم)

حتى على الأرصفة، وكان هناك الكثير من العرب، ومع هذا فلم يكن هذا المكان يشبه أفريقيا، ولا حتى أسبانيا.

كانت مدينة يسعد الإنسان فيها، ويحلم فيها، ويتنزه فيها كما كنا نفعل نحن أنا وجيانيكو مشبكين أيدينا كأخ وأخت.

كان الناس ينظرون إلينا باستغراب لطريقة سيرنا وملبسنا، فكنت أرتدى قميص نونو السجفي وبنطالاً وحذاءً ماركة "تكس مكس"، وكان جيانيكو يرتدى بصفة دائمة ثيابه الرثة الفضفاضة وقمصانه الثلاثة الصغيرة ذات الألوان المختلفة والتي كان يضع الواحد منها فوق الآخر على جسده، القميص الأكثر اتساعاً في الأسفل، ثم الأكثر صغراً، ولكن الأكثر عرضاً، ثم فوقهما قميص مخطط بألوان أزرق – أبيض – أحمر وورد، وشعره الكث المجعد الأسود، وطالعه النحاسي اللون كالهنود ؛ ولم يكن معنا حقائب، إلا حقيبة صغيرة كانت معي وكنت أضع بها مذياعي القديم، وأشياء صغيرة خاصة بالسيدات وكتاب فرانتز فانون الذى كنت أحبه.

كان الطقس رائعا إلى أقصى حد، حيث سرنا النهار كله، بلا هدى، على طول البحر، وفى شوارع المدينة القديمة، وأيضاً فى التلال المليئة بالحدائق القديمة. لم يكن يعرف جيانيكو أين يقيم عمه رامون، لم يكن معه سوى اسمه وعنوانه الذى كان مدوناً بشكل مائل على مظروف هكذا: رامون

برسو

معسكر إيواء كريما

في الظهر، تناولنا مرة أخرى خبزاً وشيكولاته على شاطئ البحر الملئ بالحصى والذى كان يُحاط بغيمة من طيور النورس، وكان جيانيكو كالكلب صغير، يجرى متعرجاً على طول البحر، وكان يرتمى على الحصى وسط طيور النورس، ويؤدى حركات جنونية كثيرة من هذا النوع، ولم أره مطلقاً هكذا، فجأة، بدا عليه أنه طفل بحق، لقد أصبح طليقاً، ولم يعد يفكر في مستقبله ؛ وأنا أيضاً، لم أعد أفكر فيما يمكن أن نفعله، أين نرقد، وما يمكن أن نأكله هذا المساء. رميت لطيور النورس آخر قطعة خبز كانت لدينا، فلقد كانت هذه القطعة جافة لحد ما، ولو كان بوسعى، لألقيت بحقيبتى الصغيرة الزرقاء في البحر بكل ما تحوى، ولم يمنعنى المذياع ولا كتاب فرانتز فانون، فالمذياع ما هو إلا علبة للموسيقى والكتاب يمكن أن يُستبدل، ولكن ما منعنى، على الأرجح، هو المظروف الذى يحوى جواز سفر ماريما وخطاب حكيم الذى حرره لى قبل أن يحمل جده إلى ياما على نهر الفاليميه.

أمضينا كل شهر مايو في مدينة نيس دون أن نفعل شيئاً سوى الذهاب صباحاً إلى مكان إخلاء الشاحنات، وإلى الشاطئ بعد الظهر، ثم التسكع في شوارع المدينة القديمة.

في البداية، كان الأمر صعباً بالنسبة لنا في المعسكر، فلقد كان نائياً عن كل شئ، ويقع في الشمال، في الوادى، ويبعد عن الضواحى وعن أعمدة الطريق السريع، وكان يشبه دوار تبريكة إلا أنه كان في التلال، بعيداً عن البحر، في التلال الوعرة، العارية، حيث تهب الرياح في زوبعات وحيث

يكون للثرى طعم الأسمنت، فلقد شُيدت المدينة إلى الأسفل من المكان الذى تفرغ فيه الشاحنات، وكانت المنازل صغيرة مبنية من الأحجار المطلية باللون الوردى وأسقفها من القرميدة، وهو نمط بروفانسي[3]. كان هناك فى المجمل حوالى خمسين منزلاً صغيراً، وأتخيل أنه في يوم الافتتاح في حضور ممثلين عن السيد رئيس الشرطة والسيد العمدة والمدير الإقليمي للمساكن ذات الإيجار المعتدل، كان المشهد رائعاً وممتعاً، ولاسيما إذا لم يُركز على حفر مكان تفريغ الشاحنات. ولكن بعد مرور سنوات، أصبحت مدينة الصفائح شبيهة بالمدن الأخرى، فلقد طُبع دخان المرامد على الحوائط، وزخرفت الأوراق والحقائب البلاستيكية على ساحة الخط الحديدى، وغدت الشوارع طرقاً مصدعة بالأخاديد الطينية.

ما كان طيباً في هذا المكان هي المخيمات، حيث كان أمام كل منزل صغير، مخيم أو أثنين للرحالة، وكان بعضها مبنى من الطوب الأحمر ؛ وفي إحدى هذه المخيمات جعلنا رامون برسي نقيم مع أبنائه الثلاثة والذين كانت أعمارهم في عمر جيانيكو أو أقل منه سناً، مالكو، جورج وإيفا. في المساء، كنا نبسط حقائب النوم والغطاء، وكنا ننام حتى على خشب الخيمة ملتصقين بعضنا بالبعض الآخر حتى لا نشعر بالبرد.

كان رامون برسي رجلاً فارع الطول، قوى البدن، شعره وأهدابه شديدة السواد، وكان يعمل بالمتطوعية في ساحة التعمير، وكان يتحدث

(3) ريف فرنسي يميل إلى ارتياد طابع شبه خاص في العمارة. (المترجم)

الفرنسية بصعوبة بالغة، وقال لي جيانيكو أنه لا يتحدث الرومانية أفضل من حديثه بالفرنسية، الخلاصة أنه لم يكن يتكلم. في المساء، عندما كان يعود من العمل، كان يجلس على طرف الفراش في حجرة المنزل الوحيدة، ثم يشاهد التلفاز وهو يدخن الغليون.

عندما شاهد جيانيكو يأتي إليه، لم تبدو عليه الدهشة، فربما كان يراقبنا وأن أحداً قد أخطره بذلك. كان رامون يرسي يعيش في منزل صغير مع امرأة فارعة شقراء بشرتها حمراء، تُدعى اليثا، وكانت إيفا ابنتها، أما جورج ومالكو فكانا من امرأة أخرى هجرها رامون.

في الصباح، في ساعة مبكرة، كنت أذهب مع جيانيكو والفتيان إلى مقر تفريغ الشاحنات، وكان جيانيكو يسمي ذلك "عمل".

كانت عربات النقل تصل بعضها خلف البعض الآخر في ساحة المسحق الكبيرة، وكان صبيان المعسكر يتراصون هناك من كل جانب، وما إن كانت أكوام القمامة توضع على الأرض، حتى كانوا يسرعون كالفئران قبل أن تقوم الجرافة وتحملها بين فكين من الفولاذ.

كنت قد رأيت من ذي قبل مستودعات القمامة في تبريكة، ولكنني لم أشاهد قط شيئاً مماثلاً لذلك، فلقد كان الهواء محملاً بالتراب الدقيق اللاذع الذي كان يؤذي العين والحلق، وكانت هناك رائحة عفنة ورائحة نشارة ورائحة قتيل. كانت الشاحنات تتحرك في الضوء الخافت، وكنا نرى فوانيس الإضاءة أو منبهات الرجوع للخلف وهي ترسل صوتاً حاداً، ومن

السقف كانت تسقط أشعة ضوئية تخط أعمدة في التراب، وعندما كان الفكان يتحركان لقص قطع الخشب والغصون، كانت الضوضاء مُصمةً.

كان جيانيكو ومالكو وجورج يفتشون في الفتات ويحملون لقاياهم إليّ: مقاعد معطلة، طناجر مبعوجة، وسادات مخروقة، ألواح خشب منتفشة من المسامير الصدئة، ولكن أيضا ملابس، أحذية، لعب أطفال، كتب. كان جيانيكو يحمل إليّ بصفة خاصة الكتب، وكان لاينظر إلى عناوينها، حيث يضعها على حائط قصير بجواري بالقرب من مدخل الصالة، ثم يرحل ثانية مهرولاً ليفتش في شاحنة قمامة جديدة.

وكان هناك كل شئ، مجلات قديمة "رايدرز دايجست"، وأعداد عتيقة من مجلة "هيستوريا"، كتب مدرسية من فترة ما قبل الحرب، روايات بوليسية، أقنعة، أعداد من بيبلوبتيك فيرت[4]، وردية اللون، مجموعات حمراء وذهبية، مجموعات سوداء. كنت أجلس على الحائط الصغير، في الريح، وأطالع صفحات من هذه الكتب، ككتاب "قيثارة العشب" على سبيل المثال، حيث طالعت الفقرة التالية:

"متى سمعت للمرة الأولى الحديث عن قيثارة العشب؟ قبل الخريف حيث ذهبنا نقيم في الشجرة ؛ فلنقول، ذات فصل خريف من ذى قبل، وبالضبط، كانت دولى هي التي حدثتني عنها ؛ لم يكن هناك سواها كي تبتدع اسم مماثل كقيثارة العشب."

---

(4) Bibliothèque verte سلسلة من روايات الأطفال المبسطة لغوياً.

كنت أقرأ أى شئ، ففى جحيم تفريغ الشاحنات هذا، كـان يبـدو لى أن الكلمات ليست لها نفس القيمة، بل كانت قوية جـداً، وكـانت تـدوى فـىّ دائما، وكنت أقرأ أيضاً الروايات التي كـان يلقـى بـها النـاس بعـد مطالعتـهم لها، مثل "العباءة الدينيـة"، "البـاب المفتوح "، "البـاب الذهبـى"، "البـاب الضيق"، ومع ذلـك كـانت هنـاك جملـة مـن الممكـن أن تقفـز إلى العـين وتظـل مطبوعة في الذاكرة: "لماذا نبحر ذات يوم؟"

أو هذه الصفحة القارة من كتاب قديـم، والتـى رأيتـها بكـراً بشـكل لافت للنظر وسط جبل الحثالة: السهل الفسيح أبيض

جامد دون صوت

لا ضوضاء، لا صوت، كل المدينة محترقة.

ولكنه يُسمع أحياناً، كأنه في سهل كئيب،

كلب ليس له ملاذ يعوى في ركن من غابة.

آه ليل العصافير الصغيرة المفجع.

ريح مثلجة ترتعش وتهرول في الممرات.

هم، بما أنه لم يعد لهم ملاذ مظلل بالهود،

فلايستطيعون أن يناموا على أرجلهم المجمدة.

في الشجر الكبير العارى الذى يغطيه رقاق الجليد،

يقيمون هناك، مرتعشون تماماً، من غير أن يكون هناك من شئ

يحميهم.

وبعينهم القلقة يشاهدون الثليج، منتظرين حتى مطلع النهار الليل

الذى لايأتى.

وبعد ذلك، أصبحت هذه الأبيات مقطعاً محفوظاً بين جيانيكو وبينى، فمن آن إلى آخر، فى الشارع، أو عندما كنا مقوقعين فى حقائب نومنا، على أرضية الخيم، كان يبدأ فى لهجته الغريبة: "الليل المفجع للعصافير الصغيرة"، وكنت أقول: "لا ضوضاء، لا صوت"، وأظن أن هذه هى المرة الوحيدة فى حياته التى ألقى فيها شعراً.

وفى كل صباح، كنت أهرول نحو مكان تفريغ الشاحنات مع الأولاد، وكان ذلك بمثابة لُعبة بالنسبة لى، فكنت أتحمس لفكرة أن نجد شيئاً . كانت شاحنات القمامة تصعد وتهبط التل الصغير كالحشرات الضخمة، ثم كانت أطنان القمامة تسيل وتتبعثر وتُسحق وتدق، وكان التراب اللاذع يصعد فوق كل الوادى، ويصعد حتى وسط السماء مُنسجاً بقعة كبيرة بنيةاللون فى زرقة السُكاك[5]، فكيف لم يكن الناس يشعرون بها فى بقية المدينة؟ كانوا يلقون فضلاتهم وكانوا ينسونها، وكأنها غوائطهم، ولكن البودرة الناعمة كانت تسقط عليهم كل يوم كغبار الطلع، على شعرهم، وعلى أيديهم، وعلى روضاتهم الوردية. وكنا نجد من كل شئ فى الفضلات، وذات

(5) السكاك هو الهواء بين السماء والأرض فى الجزء الأعلى من الغلاف الجوى. (المترجم)

صباح، جاء مالكو وهو فخور تماماً، وكان يمسك فـي يديـه لُعبـة، جمل من الجلد المحاك، يمتطيه هجان في ذي أحمر وعمامة بيضاء، واضعاً سيف فـي زناره.

وكـان هنـاك شجار أيضـاً، فلقد سبقتنا مجموعـة مـن الأسـبان، وكـانوا فـارعو الطـول، فـي العشـرين مـن عمرهـم، وكـانوا يرتـدون أقمصة مشجرة، ويضمون عصابـة حـول الشعر، سبونا لأن مـالكو وجـورج كانـا يتحدثـان باللغـة الرومانيـة، وقدمـوا ليروا مـا وجدنـاه: عجلـة دراجة، طناجر، عصي ستائر، سلك حديدي صدئ، قطـع مـن الحديـد، آلـة كاتبة، مطرية سوداء رائعة، حذاء، ونظروا إلى كتبي، والتي كانت عبارة عن روايات تجسس وكتاب قصائد شعرية باللغة الإيطالية لليوبـاردي[6] أو انونزيو[7]، وقلب أحدهم صفحات الكتب وألقاها بازدراء، ثم مسكني من عنقي وحاول أن يُقَبلني، فدفعته وقفز جيانيكو عليه وتعلق في رقبته محدثاً به قطعاً كالمفتاح في وجهه، ثم تشاجروا بعنف غريب، وهم يتقلبون في الفضلات، ولكن دون صراخ، محدثين صوت (هاه) في كل مرة يتضاربوا فيـها بقبضة اليد وركـلات القدم. حينئـذ توقفـت الشاحنات عـن السير وتجمهر

---

(6) أديب إيطالي عاش بين 1798 و1837، من أهم مؤلفاته: "مؤلفـات أخلاقيـة صغيرة" 1827-1833. (المترجم)

(7) أديب إيطالي ولد عام 1863، من أهم أعماله "النـار" 1899 ومسـرحية "المدينـة الميتـة" 1898. توفي عام 1938. (المترجم)

الناس لمشاهدة المشاجرة، كان مسالكو وجورج يتشاجران مع أحد الأسبان، وجيانيكو مع آخر، وكنت أصيح كالمجنونة، مع شعري الأشعث الذي هيجه الريح، وقميصي الجلدي المغطى بالتراب، والحذاء الذي وجدته بجواري على الحائط الصغير.

ثم جاء موظف يعمل في تفريغ الشاحنات، وكان عجوزاً، وتلفظ بكلمات عنصرية عن السود والعرب والبوهيميين، ثم تناول آلة رش تصلح لرش نطاق كبير في تفريغ الشاحنات ورشنا بالماء المثلج بقوة إلى حد أن جيانيكو تزحلج على ظهره كالناموسة وحتى أن كل كتبي طارت أرباً أرباً.

هذا ما حدث لي: نافورة الماء المثلج القاسية مثل السوط مزقت كل كتبي، وبغضت هذا الرجل، وصحت: " قذر، خنزير، حقير"، ثم قذفته بشتائمي العربية التي كنت أعرفها، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي أذهب فيها إلى مكان تفريغ الشاحنات.

وكانت هناك في حياتي سارا، فلقد رأيتها للمرة الأولى مصادفة في مشرب خمر فندق كونكورد في منطقة البرومناد تقريباً، حيث أحببت هذا المكان لأنني رأيت فيه نحت لامرأة فارعة الطول، بشرتها برونزية، كانت تحاول أن تهرب من بين كتلتين من الأسمنت، فدخلت إلى صالة الفندق حتى أسأل عمن شيدها، فقال لي حارس البوابة اسم النحات، سوسنفسكي، ودونه لي على ورقة، وحدث ذلك في نهاية بعد ظهر يوم ما، ولقد تركت جيانيكو، لأنه لم يكن لائقاً في قمصانه المقززة المكدسة بعضها فوق البعض الآخر وشعره

المشمث، ناهيك عن رائحته. وفي نهاية صالة الفندق، سمعت صوت الموسيقى، كان ذلك شيئاً أثار فيَّ الفضول، لأنه عامة، بسبب أذني اليسرى، كنت لا أسمع الموسيقى من بعيد، ولكن في هذا المكان، كان صوتها يصل إلى ثقيلاً ومنخفضاً عن طريق الاهتزازات التي تجرى فوق جلدى وفي جوفي.

سرت عبر الصالة يقودنى الصوت، وفى لحظة، دق قلبى لأننى ظننت أنني قد عثرت على سيمون، إنها هناك، منتصبة فى نهاية مشرب الخمر، تغنى أغنية "اللون الأسود هو اللون الحقيقى لبشرة حبيبى".

وحتى أنصت إليها جيداً، جلست بالقرب منها على سلم الحاجز، وعندما رأتني، ابتسمت لى كما لو كانت تعرفنى، وأعتقد أن ابتسامتها جعلت القائم على مشرب الخمر لا يصرفنى، والذى كان ينظر شذراً لهذه السوداء الصغيرة فى شعرها الكثيف المجعد والتى ترتدى بنطالاً من الجينز وقميصاً من الجلد القدى.

سمعت كل أغانيها حتى جاء الليل. في مشرب الخمر، كان الناس يثرثرون وهم يحتسون الويسكى الاسكتلندى، وكانت هناك ثنائيات من رجال ونساء تتكون ثم تتفرق، وكان هناك من بينهم أيضاً من كان يرقص،. ولكننى كنت أرتشف الكلمات والموسيقى، وكنت أنظر إلى جسد المرأة الشابة، وثوبها الأسود يقولب جسدها، وأنظر إلى طالعها وشعرها المحلوق قصيراً.

بعد ذلك تحدثت معى، وكنت أجد صعوبة فى فهمها، وكنت أحاول أن أقرأ ما على شفتيها. فى مشرب الخمر، ارتشفت كأساً من مشروب

البيريه معها، قالت لى إنها تدعى سارا وأنها من شيكاغو، وسمتنى "الأخت سوالو"، ولا أعرف لماذا، وقالت لى: " إننى أحب لون بشرتك"، ودونت لى اسمها وعنوانها على مظروف، لأنها سترحل عما قريب، ودونت لها اسمى ولكن بالنسبة لعنوانى، لم أعرف ماذا أكتب، فوضعت عنوان بياتريس.

عاد عازف البيانو للعزف، وعادت سارا إلى منصة الغناء، وظللت حتى النهاية، حتى الليل، وجاء رجل طويل أسمر البشرة يبحث عنها، وكان يرتدى بذلة، ومعطف أخضر اللون، ووشاح أبيض وكأنه ممثل فى السينما، واصطحب سارا، فخرجت تتموج بجسدها، ومضت نحو المخرج مبتسمة لى للمرة الثانية بابتسامتها المتوهجة على وجهها الأسود، فكانت تبدو كنجمة فن،كإلهة، كحورية.

بعد ذلك، كنت أمضى إليها كل يوم، من الخامسة إلى التاسعة مساءاً، وكنت أجلس فى ركنى، على حافة منصة الغناء، ولو أن نادلاً قال لى شيئاً، كان لدى إجابتى الجاهزة: "إنها أختى"، ولكنها ربما أخطرتهم بذلك، فلم يسألنى أحد عن شئ.

غنت سارا لى طوال شهر مايو، كانت هناك عواصف، وكان منظر المطر بديعاً، وأخضر البحر الردئ فأصبح رائعاً ؛ وكان جيانيكو يذهب كل يوم معى على الشاطئ، أو على السد الكبير الذى كانت تشكله كتلات أسمنتية ملقاة، ولكن هذا المكان لم يكن مكاناً مناسبا لفتاة مثلى، فذات يوم كنت انتظر جيانيكو هناك، فجاء رجل، وأظهر عن نفسه، وكانت له نظرة غريبة،

تائهة ولم تكن لدى رغبة في أن أصرخ فيه كما حدث في السابق مع العجوز في دار المقابر: "سر وشأنك"، كما أشار لي صيادون - كانوا يستلقون مركبهم - بحركات مخلة بالأدب، وهم يتظاهرون بأنهم يرفعون شباك صيدهم، وكانوا يتلفظون بحماقات لم أكن أفهمها، فغضب جيانيكو وصاح فيهم: "يا أولاد العاهرة، سأقتلكم"، وكان يقفز من صخرة إلى أخرى، كان يشير لهم بحركات، ويتظاهر بأنه سيلقي عليهم الأحجار.

وفي معظم الأحيان، كانت هذه التصرفات تقتلني، فلم يكن هناك مكان هادئ في الدنيا، أي مكان، فعندما أجد ركناً منعزلاً، تعرُجاً، مغارة، مكان صغير مهجور، كان هناك دوما شئ ما بذئ، كغائط أو متلصص.

ولهذا، ففي فترة ما بعد الظهر، كنت على موعد حتى أستمع لموسيقى سارا التي كانت تداعبني.

وكل يوم في فترة مابعد الظهر، كنا نتحدث في الفاصل الترفيهي، وعلى كل حال، لم نكن نتحدث بحق لأنها لم تكن تعرف الفرنسية. إضافة إلى أنني لم أكن أسمع جيداً ما تقوله لي ؛ كانت تضحك، وتقول كل مرة: "أختي سوالو، أحب لون بشرتك"، حتى أن تلك المقولة أصبحت لازمة لديها.

كنت أمكث حتى نهاية الغناء، وكان صديقها يأتي يسعى إليها كل مساء، وكانت تمر أمامي دون أن تقول لي شيئاً كما لو كانت لا تعرفني ولا أعرفها، وكانت عيناها تمزحان معي، وتلقي بابتسامة صغيرة تضئ وجهها،

ثم تدلف متموجة نحو باب الفندق عندما يكون الليل قد حل تقريباً، فعشقت سارا طوال هذا الشهر.

في هذا الفترة أخذت في التعرض لمضايقات من جانب صبية معسكر كريميا، من أخوين، داني وهيج ؛ كان داني شعره بني اللون مجعد، أما هيج فكان فارع الطول، أحمر البشرة، وكنت أشبهما بالهنود، نظراً لقمصانهم المشجرة، وعصابات رأسهم وسيارتهما الشيسلر التي كانا يصارعان بها. صعدت في سيارتهما أنا وجيانيكو ومالكو، وكانا يدلفان في الشوارع، على غير هدى، جاعلان إطارات عجلات السيارة تحدث صوتاً، وكانا يطلقان صيحات، وكان ذلك أمراً جنونياً، فكانت الشوارع تتوارى خلفهما وهما يسيران بأقصى سرعة، وكانت الريح تدخل السيارة عن طريق نوافذها المفتوحة، وأظن ذلك ما أنعشهما، ولكنهما كانا قد أشعلا الغليون قبل ذلك، ولذا كانت أعينهما حمراء اللون طوال فترة ما بعد الظهيرة. لم يكن ينتابني خوف، ولم أكن أهاب بشر مثل داني وهيج، ويبدو أنني كنت أرى فيهما سلوك الأطفال، والأولاد السفهاء والغرباء والضعفاء أيضاً.

كان داني في العشرين من عمره فقط، أما أخوه فكان في الثامن عشر من عمره، وحدث أنهما ركنا سيارتهما الشريسلر قبل ليل يوم بقليل في موقف متجر كبير لقطع الخردوات، متجر بريكولتو[8]، أو ميزون فرت[9]،

---

(8) Bricoltou متجر خردوات معروف بفرنسا. (المترجم)

(9) Maison verte متجر أدوات خردة معروف بفرنسا. (المترجم)

لا أتذكر، ثم هبطنا من السيارة وبدأ الأخوان في التجول بأجنحة المتجر وهما يشبهان الهمج في شعرهما المتدلي على أكتافهما، وقمصانهما المشجرة المفتوحة في البرد، وظل الناس واجمون واضعون رقابهم في معاطفهم، وكانوا يتعقبونهما بالنظر، كما لو أنهما تشبين يهرولان في الأجنحة ؛ وكانا يتحدثان بصوت مرتفع بالأسبانية، وكان أحدهما ينادي على الآخر من طرف إلى طرف آخر في المتجر، وكانا يضحكان، وكانت أسنانهم تتلألأ بين طالعهما الداكنين ؛ ثم رحلنا، وكنا نسير بالمصادفة، علي طول النهر حتى الجبل، كنا نعبر كتلات سكنية نائمة غارقة في ضباب ثقبه الضوء الأصفر المنبعث من الفوانيس.

كنا نرتكب أمور جنونية ، فلقد ذهبنا يوما ما إلى المقابر، وكنا ننصت للمقابر حتى نسمع الموتي، وكان داني أبله قليلاً، على ما أظن، وكان خال جيانيكو قد حذرنا منهما قائلاً: "لا تذهبوا معهما، فإنهما سيسببون لكم المتاعب"؛ وكنت أحب هيج، وذات يوم، جلست في مقدمة السيارة بين الأخوين، ثم توقفنا لنشرب، وكنت أتغازل قليلاً مع هيج، بينما كان كل من جيانيكو ومالكو يدخنان الغليون وهما جالسان على السيارة من الخارج، فحاول هيج أن يقبلني، ولكنني دفعته عني، فأصبح مخبولاً، وكان هناك وريدا ناتئا على جبينه، وكانت عيناه تبرقان، فأخذ زجاجة صغيرة من البنزين من علبة القفازات ورشني بها ثم أطلق النار، فأحسست بهواء شديد، كصفعة علي وجهي، ووجدت نفسي خارج السيارة وأنا أصرخ، وكان صدري ويداي تشتعلان، فأخمد هيج النار، وغلفني بقميصه ودورني علي الأرض،

وأعطاني لكمات بقبضة يده، وكنت مخبولة، ولم أكن أدرك شئ ؛ وفي أثناء هذا الوقت، كان داني وهيبج يتشاجران ويتسابان، وكان جيانيكو ومالكو ينظران إليهما دون أن يتحركا، وأظن أنهما لم يدركا الأمر جيداً. وعندما أدركت الأمر، مضيت فعبرت الطريق وتركتهم هناك، فأخذني على الفور تقريباً قائد سيارة وحملني إلى الطوارئ، وكان يبدو عليه اللطف، فكان يريد أن يبقى معي، ولكنني شكرته، وقلت له أن الأمر لايستدعي ذلك، فهي حادثة بسيطة، ووضع الطبيب المقيم لى ضمادة، فلقد حُرقت في ثديي وفي رقبتي وفي ساعدي.

سألني الطبيب المقيم: "من فعل بكي هذا ؟"، وكنت أشعر بالألم، وأشعر أنني متعبة، ولكنني قلت له أنني تحسنت، وأضفت: "لا شئ، هذه حادثة حدثت لى وأنا أقوم بإشعال النار"، وكان يبدو عليه أنه صدق قولى، وطلبت سيارة أجرة كي أعود إلى كريما.

بعد ذلك، استلزم الأمر عليّ أن أرحل، ولم يقل راموون برسي أي شئ، غير أن إلنا جاءت إلى المخيم، وأخذت أشيائي، ثم رتبتها في حقيبتي، وأعطتني قميصا جديداً من الصوف الأحمر والأسود، ثم نظرت إلى بقسوة، كما لو أنها تبغضني، وكان مالكو وجيانيكو يلعبان الكرة في الشارع المحفور، فقلت لإلنا: "وماذا عن جيانيكو؟ "، فأشارت لى بعلامة على أنه سيظل معهم، وأعتقد أنها كانت على حق، فمن جرائي أنا، لم تمض الأمور على ما يرام، فأنا أحمل النحس.

في مدخل المعسكر، كانت هناك مجموعة من البوهيميين يتجادلون حول هياكل معدنية، وهم يشبهون القناصة الذين فرقتهم فريسة. كان اليوم يوم الأحد مبكراً، ولذا كان مصنع سحق القمامة لا يعمل. وضعت الحقيبة في حمالة على كتفي الأيسر، بسبب الحرائق، كانت السماء شديدة الزرقة، وكان هناك بعض طيور الخُطاف التي كانت تخط الأفق، وكنت أسمع أصواتها بوضوح. استقليت أتوبيساً حتى محطة القطار، وكانت لاتزال لدى نقوداً كافية كي أشترى بطاقة سفر في القطار الراحل إلى مدينة باريس.

قبل قدوم صيف هذا العام، طرأت تغيرات كثيرة في حياتي؛ بداية، تقدمت لبكالوريا القسم الأدبي كطالبة حرة، وكما كان متوقعا رسبتُ، فلقد أعدت ورقة الإجابة خالية في مادة الحساب وفي مادة التاريخ ؛ أما في مادة اللغة الفرنسية، في الاختبار الشفهي، لم ترد المتحنة أن تصدق أنني كنت طالبة حرة، ففحصت جواز سفري، ثم نظرت إلى ملفي وقالت: "توقفي عن الكذب، أين أجريت دراساتك؟، ثم استطردت: "أين قائمتك؟"، ثم في النهاية، عندما انتابها خجل من أن تبدو ثائرة، قالت: "عن مَنْ مِنَ الكُتاب تريدين إجراء شرحك؟"، فقلت دون تردد: "إيميه سيزار[10]"، ولم يكن هذا الموضوع ضمن المقرر الدراسي، ولكنها دُهشت وقالت لي: "حسناً، سأستمع

(10) كاتب فرنسي ولد في جزر المارتينيك عام 1913. عُرف بنزعته المناهضة للفكر التقليدي الغربي الاستعماري. حاول في مؤلفه أن يبرز دوره المساند للزنوج. (المترجم)

إليك"، فألقيت عن ظهر قلب قصيدة "كراسات عودة إلى الوطن مسقط الرأس، التي ذكرها فرانتز فانون في كتابه: وبالنسبة لهذا الرب ذى الأسنان البيضاء

الناس ذوى العنق الهش

يتلقى ويلمح قدراً هادئاً بشك مثلثي

إلى رقصاتي رقصات زنجية سيئة

وحتى الأبيات: أوصليني، أوصليني أيتها الأخوة اللاذعة

ثم اخنقيني بوهجك النجومى

اصعدى أيتها الحمامة

اصعدى

اصعدى

اصعدى

أتبعك، مطبوعا بنسبي

قرنية بيضاء

اصعدى يا متملقة السماء

والثقب الكبير الأسود حيث أردت أن أغرق

القمر الآخر

هناك أريد أن أقتنص الآن اللغة الشيطانية

لليل في سكنه.

وفي مادة الفلسفة كان الامتحان هذا العام عن الإنسان والحرية، أو شئ من هذا القبيل، فكتبت بحماس إجابة شغلت عشرين صفحة، ذلك أنني كنت أذكر باستمرار مقولات لفرانتز فانون ولليفيين، ولاسيما العبارة التي يقول فيها: "عندما لا تبقى على ظهر الأرض أية إمكانية لاستغلال الآخرين، ولا يبقى مُلاك للمال، ولا مُلاك للمصانع ولا يكون هناك عوزة في ناحية وجوعى في جانب آخر، وعندما يصبح كل ذلك مستحيلاً، حينئذ فقط، سنضع آلة الدولة في الخردة."

ولهذا رسبت، وكنت قد كتبت كل شئ دون أن استريح، ودون أن أقرأ ما كتبت، كنوع من الإفلاس، ثم رميت كومة الأوراق على مكتب المراقب ورحلت دون عودة، حتى أنني لم أبحث عن اسمي في سجل الناجحين، فلقد كنت أعرف مسبقاً أنه لن يكون فيه.

في باريس، كان كل شئ كما هو ومختلفاً في آن واحد ؛ ففي منزل بياتريس كان الطقس رائعاً، كانت نافذة الصالون الكبيرة تلمع لمعاناً رائعاً، أما جوهانا، فلقد كبُرت ونبت شعرها، وكانت عيناها مشابهة للعقيق، مع نظرتها الثابتة والقلقة.

كنت أمكث معها كل فترة الصباح، بينما كان ريمون في مكتب المحامين وبياتريس في جريدتها. كانت شجرة الليلاك مليئة بالعصافير، فكنت أحمل جوهانا بالقرب من النافذة المفتوحة حتى تسمع إلى زقزقتهم.

قررت أن أرحل، وبفضل مدرس في المركز الثقافي وعقيد فـي مركـز يوسيس كان قد أغرم بي، حصلت على تأشيرة تبادل، على أن إقامتي ستكون في منزل سارا ليبكاب في ولاية بوستن، وحتى أنني سجلت أسمي في أوراق اليانصيب الذي يوزع بطاقات الإقامة فـي الولايـات المتحـدة حينمـا علمت أن نصيب الأفارقة كان كبيراً هذا العام ؛ ولم يكن ينقصني سوى النقود للرحيل، وبدلاً من أن أبيع قرط أجدادي، اقـترضت خمس وعشرين ألفـاً فرنكـاً من بياتريس، وكنت على استحياء منها إلى حد ما، ولكـن المسألة كـانت مسألة حياة أو موت، أو تقريباً كذلك. كان لدى انطباع أن بياتريس وريمون أعطياني هذه النقود حتى أخرج من حياتهما مرة واحدة، وحتى لايبقى هناك من شئ يربط جوهانا بأمها الحقيقة.

ما كان عليّ أن أقوم بوداع الآخرين، فلقد كـان كـهف شـارع جـافلو مغلقاً، فحينما عاد إيف – صديق نونو – من موريا، أبلغ عن الكـهف، فأمر عضو المجلس البلدى بتبديل القفل، ومررت من أمامه في سيارة أجـرة، ذات يوم من بعد الظهر، وانتابني شعور غريب وأنا أرى الباب المعدني المطلي بلون أخضر برقم 28 المدون على الطلاء الأسود على حجر الزاوية، كما لو كان ذلك مبيت سيارات أو خزانة فيها عدادات أو أى شئ من هـذا النـوع، وأن ما مـن أحد عاش فيه، وأنه لم يكن هناك البتة هذا الليل الـذى وُلـدت فيه باسكال ماليكة، فكان ذلك أمراً غريباً، كل شئ بدا معكوساً لى، وعندمـا خرجـت من نفق الشارع، قلت لقائد السيارة الأجرة: "عُد إلى الخلف"، فنظر إلى في المرآة

العاكسة، فكررت له: "من فضلك، أريد أن أمر مرة ثانية من هذا المكان"، ومررنا ببطء، وأضاء قائد السيارة مصابيح سيارته، فشاهدت المكان الذى كانت تقف فيه سيارة مارتيال جوايبه المرسيدس ترقب سيمون طوال الليل تقريباً، وكانت هناك بقع زيت على الممر تشبه بقع الدم، ربما ماتت، فلقد كان يصيح فيها يوما أنه سيقتلها ما إن أرادت أن تتركه، ومع ذلك كانت تسجن نفسها لديه، ولم يكن بوسعها أن تهرب منه مطلقاً، ولهذا السبب كانت تضع البودرة في أنفها وكانت تبتلع قرص دواء، وكان ذلك بمثابة أسلوبها في الهروب منه.

تركتني السيارة الأجرة في شارع باريس الكبير، أمام مركز الجمانزيم الذى يلعب فيه نونو، وصعدت السلم الواقع بين متجر الأشياء القديمة وبائع الأجهزة الصوتية. في طابق صالة الجمانزيم، كان باب الصالة مغلقاً، ولكن كان هناك جلبة صوت، فقرعت على البلاط طويلاً حتى أتى أحد الأشخاص، وكان رجلاً فارع الطول، يرتدى ملابس رياضية، عربي، لم أكن اعرفه، فسألته: "أين نونو؟".

جعلني أكرر سؤالي، وصاح باتجاه عمق الصالة: "هل تعرف نونو؟"، ومنعني من المرور إلى الصالة، كما منعني من النظر، ثم جاء رجل في حوالي الأربعين من عمره، فارع الطول، كان لونه غامقا، له أنف قوية وشعره مجعد وأشيب، كان يشبه السيد دلاهاى، ولا أعرف لماذا، قررت على الفور أنه هو، إيف لى جن، صديق نونو، نظر إلىّ لوقت طويل دون أن يقول

شيئاً، تعرف عليَّ بالتأكيد هو أيضا، ولكنه لم يعبر عن شيء، لا تعاطف ولا اشمئزاز، رغم أنني كنت أشاطره نونو، فعل حركة بيده كي يقول انتهى الأمر، كل شئ انتهى، وقرأت الأمر على شفتيه، أكثر مما سمعته، كان يقول بصوت منخفض إلى حد ما: " لم يعد هنا، لم يعد نونو يأتي إلى هنا، خسر مباراته، وانتهى، لم يعد يلعب ملاكمة هنا، ولن يلاكم مطلقاً "، فقلت شبه صائحة: "وأين هو؟ هل تعرف أين يمكنني أن أراه؟ "، فهز الرجل كتفه، وقال: "ليس لدى عن هذا الأمر أية فكرة، ربما عاد إلى أفريقيا، ربما تم طرده من الأراضي الفرنسية، فلقد فسد أمره ".

لم أشأ أن أصدق قوله لى، فوقفت على طرف أقدامي، كالحيوانات حتى أرى من فوق أكتافهم كما لو كانوا يخفون عني شيئاً، فرأيت الصالة القذرة وحلبة المصارعة التي تدر ربحاً، والصبية الذين يضربون على حقائب الرمل، والذين يبدو عليهم أنهم يرقصون، وكان هناك من الشباب سود البشرة، نحفاء البدن من كانوا يتدربون كنونو، ثم أدار الرجل ظهرى ودفعني العربي براحة يده حتي يتمكن من أن يغلق الباب، وكانت تُشتمُ هناك رائحة حمضية أو رائحة عرق أو عفن كعفن نونو عندما كان يعود من التمرين ؛ وفجأة، أحسست بنفسي وحيدة، وكأنني أدركت في النهاية أنني راحلة لأن الجميع رحلوا قبلي.

عدت إلى بلاس دى إيتالى كى أرى حورية، ولم يكن السهد في يحبني، ولكن كان ذلك لا يمثل لى شيئاً، فلقد صممت على أن أرى حورية

وباسكال مليكة، فلن يأخذ هذا الأمر سوى دقيقة واحدة، وفي هذه اللحظة، لم أكن متيقنة مما سأفعله. وفي مطعم في تيه تو، كان الباب مفتوحاً للسهرة، ولكن الصالة الصغيرة كانت خالية، وأخرج السيد في رأسه من باب المكتب، وقال لي بصوت ردئ: "ماذا تريدين؟"، فحاولت أن أمر، لكنه سد أمامي الطريق، فلقد كان أكبر قوة من رجل قصير ونحيف مثله، وصاح فيّ: "انصرفي! انصرفي!"، وأملت أن يلفت صوته نظر حورية، ولكنها لم تظهر، فربما كان يحبسها، أو لربما لم يعد لها رغبة في رؤيتي البتة، وربما كنت بحق أحمل النحس للآخرين.

درت كثيراً في خطوط المترو هذا المساء، حتى في جانب محطة ريومير أو في جانب محطة جار دى ليون وحتى محطة دانفير - روشرو، وكان هناك أناس غريبو الطباع في عربات المترو وعلى الرصيف، وكان هناك جنود مُسرحين يغنون مرتشفين الخمر متشردين، وكانت هناك نساء لهن عيون شفافة، وكان هناك سائحون تائهون، وأناس عاديون للغاية يحملون سلات وقبعات. وفي محطة ار ايه متييه[11]، بحثت عن الجندى القديم، اريتريه الذى كان يبدو عليه بحق أنه محارب، مغلف في دثاره الفضفاض وأقدامه محمية بخرق، ثم بحثت عن يسوعي الذى يستجدى راكعاً سواعد من صليب، ومارى مادلين بعينها الخضراء اللون وشعرها المنكوش وفمها الملطخ

(11) محطة مترو في باريس تعلق فيها لوحات تاريخية ومعادن صغيرة على صلة بأحداث قومية بصفة خاصة. (المترجم)

بالدم كما لو أنها انتهت من قرط أحد ما. وكان الأمر غريباً بالنسبة لي، فللمرة الأولى دون شك، صمتت الطبول ودق الصمت في الممرات، وفي محطة اوستيرليتز، بدت الأمور وكأنها لحظات تعقب عاصفة، أو لحظة تعقب دق نواقيس، فأدركت أن ذلك بمثابة علامة شؤم.

في اليوم الأخير قبل أن أستقل الطائرة إلى ولاية بوستن، تسكعت بجوار شارع جان – بوتن كما لو كان هناك شئ بحق سأجده هناك، بخلاف بعض الفتيات المتشردات، المربدون ذوى السنتيمين، وفندق الآنسة مايير المؤثث، وتمنيت بغير وضوح أن تخرج مارى – هيلين من المبنى، وأن تأتى نحوى وتسلم علىّ بحرارة شديدة وأن أرى نونو في المطبخ، عارياً تماماً وهو يرقص الجامبه. كانت السماء تمطر، كانت القطرات تنحت مستنقعات صغيرة سوداء، لا شئ تبدل، ومع ذلك كانت تلك حياة أخرى بعيدة جداً. مرت سيارة شرطة ببطئ، فرحلتُ مسرعة، ووجهي ملتفت إلى جانب آخر حتى لا يلحظ أحد إلى أى حد أنا سوداء، فعلى الرغم من جواز سفر ماريما، وخطاب قطاع الهجرة لسفارة الولايات المتحدة الذى يفيد أن اسمى تم سحبه في القرعة، كان قلبي يرتجف كما لو كان أحد سيلقيني إلى خارج الولاية، وحينئذ فكرت أنه ليس هناك ولو مكان واحد لي في الدنيا، وأنه في كل مكان سأذهب إليه، سيقال لي أنني لست في بلدى، وأنه ينبغى على التفكير في الذهاب للبحث عن مكان آخر.

بوسطن

في فصل الصيف، يكاد المرء يختنق بولاية بوستن، فلقد كان هناك بخار يعلو المدينة حيث تختفي ناطحات السحاب. كانت سارا ليبكاب تقيم في شقة مكونة من حجرتين في مبني من الطوب الأحمر بالقرب من نهر شارل ناحية بي. يو. وفي الصباح، كانت تُدرس الموسيقى في مدرسة دينية، وفي المساء، كانت تغني في حانة لموسيقى الجاز مع صديقها جوب، عازف البيانو.

في الآونة الأولى، كانت الأمور تمضي على ما يرام، إلى حد أنني لم أشعر مطلقاً بالحرية مثلما شعرت بها في هذه الفترة، فلقد كانت هذه الفترة مثل عهدي بالفندق والأميرات، والفارق أن هنا لم يكن هناك من إنسان يكلف

أحد بالبحث عني ، فكنت أستقل الترامواى وأذهب إلى حيث أريد، وأظل خارج المنزل طوال النهار في باك راى أو في هاى ماركت أو في ارليجتسون أو في الميناء ، وكنت أذهب إلى كمبردج سيراً على الأقدام مدلفةً على طول النهر أو مستقلة المعبر ، وفي الفترة التي كانت تمضي فيها سارا لتلقي دروسها، كنت أقوم بعملية تنظيف المنزل، فكنت أنظف وأنسق الأواني، وأعد طعام الغداء والعشاء، ولم تكن سارا تطلب شيئاً مني، ولكنني كنت أرى أن ذلك أمر طبيعي، عوضاً عن المسكن كما كان يحدث في منزل بياتريس، غير أن سارا وجوب لم يكونا يعطياني النقود، ولم يكونا يسألاني البتة كم أنفقت كي أشترى لهم الطعام، ولم أكن أجسر على طلب النقود منهما، ولكنني رأيت أن مدخراتي تنهار ولم تعد لدى ولو ورقة مالية خضراء، ولم يكن في إمكاني أن أزاول عملاً، وكنت أترصد صندوق بريدى كل يوم على أمل أن أتلقى مظروفاً مدوناً عليه قطاع الهجرة، وكنت دائما منفعلة قليلاً، وكان لدى شعور بأن مصيدة تطبق عليّ بهدوء دون أن يكون بوسعي أن أفعل شيئاً.

كانت سارا وجوب يعيشان يوما بيوم، فكانا لايدخران نقوداً، وكانت سارا تقوم بتسديد إيجار الشقة من راتبها الذى تتقاضاه من عملها كمدرسة للموسيقى، ولكي تنفق على الأمور الأخرى، مثل السهرات مع الأصدقاء والمطاعم والثياب، كانت تنفق عائد عزف البيانو في مشرب الخمر، وأظن أنهما كانا يتعاطيان منشطات أيضاً، فكانا يدعوانى من آن إلى آخر،

ويصطحباني إلى نادى سي. تي. وايو في منطقة باك باى، الذى كان يسميه جوب "بلاك باى" لأننا كنا نستمع في هذا المكان لأفضل موسيقى جاز.

كانت سارا تحب كثيراً أن تقدمني لأصدقائها، وكانت تجعلني أرتدى مثلها أثواباً سوداء ملتصقة على الجسد، قميص أسود وقبعة، أو كانت تجدل شعرى إلى ضفائر صغيرة كما كانت تفعل الأميرات في الفندق، وكانت فخورة بي، وتقول أنه ليس لى من مثيل، وأنني أفريقية حقيقية، وكانت تقول لأصدقائها: "إنها تدعى ماريما، وهي من أفريقيا"، فكان الناس يقولون: "آه؟ " أو "اوه"، ويطرحون علىّ أسئلة غبية، مثل " أى لغة يُتحدث بها هناك؟ ". وفي البداية، تعودت على لعبة سارا، ثم أخذ ذلك الأمر يضايقني بحق، أسئلتهم، نظراتهم وجهلهم بكل شئ. في مشرب الخمر، كانت الموسيقى تدق بقوة شديدة، وكان هناك إيقاع ثقيل يدق في جوفي، وكنت أحاول عبثاً أن أضع يدى على أذنى السليمة، صوت الوتر الغليظ كان يدخل جسدى، فيؤلمني، وكنت أشرب البيرة، المرجريتا، الكوبا الحرة، كنت أرتشف الضوء والدخان فأصبح ثملة مثل حورية عندما عادت من العُرس.

ربما كنت أحب ذلك أو ربما لم أكن، فلقد كان ذلك الأمر جديداً علىّ، وكنت أشعر وكأن شخص ما بدل جسدى، فلقد أصبحت رفيعة للغاية، نحيفة تقريباً، وكانت عيناى محمومتين، وأشعر بالكهرباء في أناملي حتى أطراف شعرى، وكنت أشعر بالكحول يملأ مفاصلي فيجعلها أكثر ليونة،

وكنت أمضي من مجموعة مـن النـاس إلى أخـرى، وكـان جـوب يمسـكني من منتصف جسدي، ثم يتحدث بصوت جهور وبسرعة، فلم أكـن أسمـع مـا كـان يقول، أما سارا فكانت تضحك بطريقة عجيبة، ضحكة خفيضة، تغـدو شيئاً فشيئاً حادة، وتدور كالشلال.

كانت سارا ليبكاب تحب أن تقص حكايتي، كيـف تعارفنـا، فنـدق اكسيلسيور، أو كونكورد، لا أعرف، تمثال المرأة العارية بين حائطين كما لو كان قد وقع زلزال، والأيام التي كنت أجلس فيها علـى حافـة منصـة الغنـاء، كفتاة صغيرة مجـدة كـي أنصت إليـها وهـي تغنـي لماهليلا جاكسـون ولنينـا سيمون، وكانت تحكي أنـها كـانت تعـاملني وكأنـها أختـي الكـبرى، وأنـها انتشلتني أنا التي لم يكن لها أحد في الدنيا، أنا التي كان بإمكانها أن تعزف الدرابوكا وتغني، وأنها أتت بـي لديـها هنـا، فـي ولايـة بوسـتن، فـي هـذه المدينة العفنة، حيث لا يستطيع أحد، ولاسيما شخص ذو موهبة، أن يتمكن، مهما كان الأمر، من الخروج من الفسق بل يمضي ليعيشه تماماً.

حدث ذلك في بداية الأمر، ولكن فـي نهايـة الشـتاء، كـانت هنـاك هذه العاصفة، هذا الإعصار الحلزوني الذي قلب كل شيء، ولا أعـرف إن كـان هذا بحق الإعصار الحلزوني الذي كان السبب فيما حـدث، فلقـد كـان الطقـس حاراً جداً، وثقيـلاً جـداً فـي بدايـة شـهر أغسـطس ؛ وأحيانـا كـان الضبـاب مترامي الأطراف إلى حد أنه كان يغطي أعلى المباني، ناحيـة الميناء. وعندمـا جاء الإعصار الحلزوني يقصد مرتفع كـود، كـان هنـاك إنـذار، فأغلق النـاس

أبوابهم ونوافذهم وألصقوا على الأبراج الزجاجية لفات من الـورق ، وبـالرغم من ذلك استمرت سارا في الذهاب إلى مدرستها كـي تُـدرس محاضراتـها فـي البيانو.

اعتاد جوب المكوث في المنزل في فترة الصباح، وكان يتزرع بـالقول بأنه سيساعدني في التنظيف وإعداد وجبـة الغذاء، ولكنـه فـي الواقـع كـان يتمدد على الأريكة في حجرة الجلوس ويرتشف البيرة نـاظراً إليّ بـأطراف عينه ومن فوق شاشة التلفاز المشعلة.

وذات صباح، كان هناك مشـهداً سـاخراً أسفت عليـه، تقدم جـوب نحوي، دون أن يلفظ شيئاً، كما لو كان يبحـث عـن شئ يشربه فـي المطبخ، وكان الطقس حاراً للغاية ، وكـان جـوب عاريـاً تمامـاً، يرتـدي سترة وسطه فحسب، وكان جلده الأسود يلمع من العرق، وكنت أمرر المسحة المبللة علـى البلاط، وبدلاً من أن يقفز من فوق المسحة، مـر من خلفها وأمسـك بـي. فـي البداية، ظننت أنه يمزح، ولكنه طوقني بزراعيه وسعى لتقبيلي، ومـرر يـده من أسفل قميصي حتي يلامس ثدي، فـأخذت أصـرخ بكـل قوتـي ، وحينئـذ تركني، فظننت أن الأمر قد انتهى، ولكنه عاد نحـوى، وحـاول أن يقتـادني إلى غرفة النوم، إلى الفراش ، ولم يكن جوب قوياً، ولكن الكحول ضـاعف مـن قوتـه، ورفعني وســحبني إلى الغرفـة ، ظللـت أصرخ، وأوجـه إليـه ضربـات بقبضة يدى، فضربني في البداية على جـانب رأسـي ثـم علـى وجنتـي وعلـى رقبتـي، وكـان يصيـح فـي نفـس الوقـت: "كلبـة ! " أو "لا تكونـي كلبـة!"،

وعندما رأى أنه لن ينالني أو خاف أن يأتي الجيران يطرقون الباب كي يسألون عما يحدث، تركني، ثم أخذ يدي ووضعها على عضو ذكورته المنتصب، وأراد أن أستمنيه، وقال إنه مريض، وأظن أنه قال أنني إذا تركته في هذه الحالة، سوف يهوى مريضاً، فقلت له أن يمضي يستمنى نفسه ثم رحلت.

دلفت طوال النهار في شوارع بوستن، وأخيراً توقفت الزوبعة الحلزونية التي استهدفت مرتفع كود ومضت تشمت منازل الأثرياء الخشبية في منطقة مارثيس فينريد.

بعد الظهر، كانت السماء تمطر، وذهبت إلى الشاطئ الآخر للنهر سائرة في شوارع كمبرديج المصممة على الطريقة الإنجليزية، وكان الناس يخرجون من منازلهم، وكان هناك طلاب وعشاق يفترشون العشب الأخضر، ويحتمون بمظلاتهم الجولفية، وكان المطر الدافئ يخرج رائحة العشب ورائحة الأرض.

شعرت بنفسي خاوية، منهكة ؛ وفي مقهى بجوار محطة الترام، التقيت بجان فيلان، قال لي أنه جاء ليتعلم في هارفرد وأنه يُدرسُ اللغة الفرنسية في اليانس شيكاغو[1]. لم يكن طويلاً، كانت مقدمة رأسه خالية من الشعر، ولكن كانت عيناه جميلتين خضراوين، مرتبكتين قليلاً، وكانت له

(1) الاليانس Alliance منشئة تعليمية فرنسية تعنى بتدريس اللغة الفرنسية في كثير من بلاد العالم. (المترجم)

ابتسامة عطوفة. أمضينا بقية النهار في الحديث والسير في الشوارع والذهاب من مقهى إلى آخر ، كـان صوتـه واضحاً فكنت أسمعه جيداً ، وكـانت يداه كبيرتين جميلتين ، وأظن أنني لم أتحدث مطلقاً مع أحـد أكـثر مما تحدثـت معه ، ويبدو لى أنه منذ سنوات لم أتحدث هكذا ، كما كنـت أتحـدث مـع جـد حكيم . كنت أحتمي وجان فيلان من المطر تحت أشجار المنتزه ، وعندما بللنـا المطر ، جلسنا في مقهى ، ولكي أفرغ من ذلك الأمر ، مضينا إلى غرفتـه التـي تقع في الطابق الأخير في منطقة "ذا أين" عندمـا جـاء الليـل ، وكـانت هنـاك نافذة تطل على شارع ماساشوستس العريض.

لم نكن نتحـدث بحـق بسبب أذنـي الصمـاء ، ولأن الأخـرى كـانت متعبة ، وكنت أشعر بالخواء يدق في رأسي. ولم أشأ أن أفكر فيمـا حـدث فـي منزل سارا ، إذ كنت أتحدث بالكـاد ، وكـان جـان يتحـدث غير ملتفت إليّ ، فقص عليّ طفولته السعيدة ، حكى لى عن أخوته وأخواته ، فـي بريطانيـا وفـي باريس ؛ ومن آن إلى آخر ، كنا نضحك وكأننا نمتنا لفكاهة هائلة.

كان الوقت متأخرا جداً كي أعود للمنزل ، ولم يكن هناك من شئ في الدنيا يجعلني أعود لمنزل سارا ، فتناولت وجان البسكويت المملـح الـذى كـان موضوعاً في الثلاجة ، وارتشفنا زجاجات صغيرة من الكحـول ومـن الجيـن[2] ومن الفودكا[3].

(2) مشروب مسكر قوى. (المترجم)

(3) مشروب كحولي تشتهر به روسيا. (المترجم)

لم أنم حتى الصباح، وتمدد جان على الأريكة، فبدا شاحباً ومنهكا، وكان ذقنه يظلل وجهه، وقلت لنفسي أنه عندما نخرج، سيقول العاملون في الفندق أنني عشيقته أو ربما عاهرة لوقت قصير .

مضينا نتناول الإفطار في كافتريا الفندق في الفناء الداخلي: كثير من الشاي، بيض، فاصوليا ؛ ثم كان على جان أن يستقل طائرة شيكاغو عند الظهر.

عدت إلى منزل سارا.

ولكن خلال الأيام التي أعقبت ذلك، لم تمض الأمور على ما يرام البتة، ولم أعرف ماذا قص جوب على سارا، ولكنها أصبحت مجنونة وشريرة معي. فكرت كثيراً أن أقول لها الحقيقة، ولكن ماذا كان جدوى ذلك؟ فلم تكن لتصدقني، فدائما تنحاز السيدات لجانب الرجل، حتى عندما يخطئون وحتى عندما يخونهن.

حينئذ اشتريت بطاقة سفر إلى جريهوند ، ووضعت أشيائي في حقيبة صغيرة، ووضعت كما أفعل دائما مذياعي الصغير المبقع، وكتاب فرانتز فانون الذي تبقى من ذكرى حكيم ورحلت إلى شيكاغو.

لم يكن لدى خوف من شئ، وكنت قادرة على أن أواجه الدنيا. وبعد وصولى بيومين، عملت في فندق كانال ستريت الذي يديره مستر استيان، "الستور"، وكان كوبياً منفياً، وكنت أجمع وأغسل أكواب مشرب الخمر في "الساعة السعيدة"، وهي ساعة مرور الجريهاوندز ؛ وكانت هناك مغنية

سوداء البشرة لا تشبه سارا البتة، كانت تغني على موسيقى البلوز[4] مصحوبة بعازف بيانو منهك. قمت بتأجير غرفة في منزل بمنطقة ساوز روبنسون، فلقد رأيت لافتة على نافذة سفلي من المنزل كلافتات إعلانات السينما، وكان المنزل قديما متهدما ومؤسس من الخشب الأشهب، به درج سلم في مدخله، وكان سقفه من خشب القدة الأخضر، وكان به مدخنتين عاليتين من الطوب الأحمر.

بعد ذلك بقليل، سقط عازف البيانو مريضاً، فعزفت بدلا منه، حيث ساعدتني دروس سيمون وسارا جيداً، وكنت أعزف من ذاكرتي، ولم أكن في حاجة إلى أن أقرأ عن الموسيقى، وأصبح كل شئ سهلا بالنسبة لي، كنت أربح خمسين دولاراً كل مساء، ومن أجر أربعة سهرات كنت أسدد مسكني ؛ وكنت أتناول عشائي في الفندق، وقبل أن أصعد على المنصة، وكنت أتناول بفتيك وجمبري، وكنت أمسك نفسي عن الطعام والشراب حتى مساء اليوم التالي بزجاجات من الحليب وشريديد وات. كان صاحب الفندق معجبا بموسيقاي، فكان يأتي ليجلس في الصالون عندما كنت أعزف، كان ينصت إلى الموسيقى وهو يحتسي المياه الغازية. وعندما رحلت المغنية بدورها، عينني بدلاً منها، فكنت أغني وأعزف على البيانو، وكنت أغني أغاني سارا: "بيلي" و"هوليدي" و"نينا سيمون". وفي بعض الأحيان كنت أرتجل، فكنت

(4) الـ blues موسيقى من الجاز ألفها زنوج في بعض ولايات أمريكا. (المترجم)

أعزف الموسيقى التي كنا نعزفها في ممرات محطات ريومير – سيباستوبول أو على سقف شارع جافلو، وكان إيقاع البيانو يعزف صوت عاصفة من بعيد، وضوضاء السيارات في الشوارع الكبيرة، وصرخات، ونداءات، وعواء قاطعي الحطب في حقول سان – دومانج[5]: "اوها ! هوا! ".

لم يكن السنور يقول شيئاً يذكر، ولكن مع الطريقة التي كان يتمايل بها قليلاً على مقعده مغلقاً عينيه وهو يمتص سيجارته، كنت أدرك أن ذلك يعجبه كثيراً، ولم أكن أعير انتباها إلى الناس الذين كانوا يشربون في مشرب الخمور، وكنت أعتقد أنني أغني له بصفة خاصة. حاولت أن أتخيل حياته، وما مر به من أحداث قبل أن يصل إلى هنا، وربما كان عقيداً سابقا في الجيش الكوبي، أو قاضي صلح قبل كاسترو[6]. وخارج السهرات في مشرب الخمور، أمام كوب مياهه الغازية، لم أكن أراه البتة، إذ كان يعيش بمفرده في مبنى ملحق بالفندق في نهاية ممر أرضي. لم يكن مسؤولا عن أي شئ، حتى الدفع للموظفين، فلقد كان سامبو رجله الذي يقوم بكل شئ، فكان يعطيني أجرى بعد كل سهرة.

عثرت على جان فيلان، وكان يقيم مع سيدة تُدعى انجليتا في مبنى راقي، في منطقة بين جروف، بالقرب من لاكسهور، وكنت أقضي معه فترة ما بعد الظهيرة من آن إلى آخر، حتى أنسى بقية الناس. وكنا نذهب إلى فندق

(5) Saint-Domingue هو الاسم القديم لجزيرة هايتي. (المترجم)

(6) يقصد فيدل كاسترو. (المترجم)

يقع في أعلى برج، وفي هذا المكان، كان الطقس هادئ تماما، وساكن تماما، فكان صالونا حقيقيا من الدرجة الأولى ؛ ومن خلال فتحته الزجاجية الصغيرة التي تطل على الجانب الشرقي، كنت أشاهد الليل الأزرق والبحيرة وأضواء السيارات التي كانت تتعرج إلى الأسفل على الطريق السريع، كما لو كنت أحلق على بعد ثلاثين ألف قدم. كنا نتحدث في بعض الأحيان قليلاً، ولكن ليس كما حدث في غرفة فندق هارفرد ؛ وكنا نتضاجع، ثم نأكل، ثم أنام بثقل حتى المساء ؛ وفي معظم الأحيان، عندما كنت أستيقظ، أجد أن جان قد رحل ليدرس محاضراته، وكان يُعدُ رسالة عن علم الاجتماع حول المهاجرين المكسيك في ضواحي شيكاغو الجنوبية. مرة أو مرتين، اصطحبني معه في أحياء روزل، تانلي، نابيرفيل، اورورا، وكان يُدعى لحفلات زواج وحفلات تعميد، فكان ذلك يحدث كما لو كان يذهب إلى كوكب مارس، ولست على يقين من أنه – مع كل شهاداته – يفهم أفضل مني ما يراه.

في روبانسون، كان هناك أناس غريبو الطباع، ففي المساء، قبل قدوم الليل بقليل، كانوا يخرجون من منازلهم ذات النوافذ المسدودة بألواح الخشب، ثم كانوا يبيعون جرعات بودرة ومربعات الراتنج(7)، وتعلمت أن أتحاشاهم . ولكن في واجهة نافذة غرفتي على الجانب الآخر من الشارع، كان يعيش السيدور، وكان عملاقاً، ضخما كالدب الأسود، ووجهه طفولي، وكان يرتدي يومياً نفس الملبس من بنطال جينز وقميص قصير لونه أبيض

---

(7) مادة صمغية لزجة تُستخلص بصفة خاصة من أشجار الصنوبر. (المترجم)

وأحمر، حتى عندما كانت رياح الشمال تهب، وكان يعيش في منزل متواضع مع أمه، وكانت سيدة سوداء البشرة وقصيرة، وكانت تعمل في مقهى، وتصادق معي، فكان كل صباح، عندما كنت أخرج للقيام بالمشتريات، في حوالي الحادية عشرة أو في الظهر، كان السيدور يجلس على عتبة منزله يشير إليّ كثيراً، ولكنه لم يكن بوسعه أن يتكلم، فلقد كان هناك خلل في عقله، فكان يحرك رأسه عندما كنت أقول له شيئاً ما، وكان يشبه كلباً ضخماً متوحشاً لكنه مسالم. كان أولاد الحارة يهزئون به، فكانوا يلقون عليه الحصى، ولكنه لم يكن يغضب، وكان بإمكانه أن يجلس لساعات على عتبة بابه، منتظراً عودة أمه وهو يلتهم البسكويت المملح. وكانت العصابات لا تتركه هادئاً، ففي بعض الأحيان، لكي يتسلوا، كانوا يشعلون له سيجارة من الحشيش ليروا التأثير الذى تحدثه عليه، فكان السيدور يدخن السيجارة، ثم يأخذ في التهام بسكويته في هدوء، وكان يضحك ربما قليلاً، هذا كل شئ. كانت له بحق قوة غير معقولة، فذات يوم صدمت شاحنة صغيرة يقودها ثمل على الرصيف وهشمت جدار مبنى بعيد، فوصل السيدور، وتعلق في الجسر المرفوع وبثقله فقط رفعه ثم وضعه في مكانه. ويبدو أن منظم لمنازلات أراد أن يجعله يعمل لديه، ولكن السيدور كان رقيقاً جداً، كثير العطف، لم تكن لديه رغبة في أن يتقاتل، ولم يكن يتكلم كثيراً، وكان كل ما يقوله، يدور حول الطقس المتوقع في فصل الشتاء: "ربما تمطر، ربما تثلجُ، لا أدرى".

كانت أمه تحميه، فذات يوم، كنت أجلس على درجات سلم بيته بجوار السيدور، وكان معي كتاب في الرسوم المتحركة، فلقد صممت على أن أعلمه القراءة، وجاءت أمه، وعندما رأتني غضبت وقالت: "ما هذه الزنجية؟ ماذا تريدين من ابني؟ "، فلم أعاود فعل ذلك مطلقا.

ومع ذلك، فذات يوم من بعد الظهيرة، وقعت هذه القصة المفجعة مع الشرطة، فكان من المفترض أن العمدة أعطى تعليمات حتى يتم القبض على بعض الأشقياء، حتى تلتقط له صورة فوتوغرافية وتتحدث عنه الصحف، ولا أعلم لماذا اختاروا شارع روبنسون هذا، ربما لأنه لم يكن يحدث بـه أي شئ. بغتة، وصلت سيارات الشرطة في شكل علب، فأغلقت الشارع، وهجم رجال الشرطة على المنازل، خاصة المنازل الواقعة في أطراف الشارع، والتي كانت نوافذها مغلقة بألواح الخشب، وعلى ما يبدو فإنهم قبضوا على بعض الصبية، وفجأة، شاهدوا السيدور، وكان العملاق قد نهض من نوم القيلولة، فخرج على عتبة بابه، يرتدى دوماً عفريتته الجينز والقميص الصغير الأحمر والأبيض، وعندما رأى الفانوس الدوار يومض، شده ذلك فتقدم بخطوات حتى يرى ماذا يحدث، وفي أعلى درجات السلم الخشبية، بدا أكثر طولاً وأكثر ضخامة، كدب حقيقي يخرج من الغابة، فانقبض قلبي لأنني لاحظت أنه لا يدرك الخطر وأن رجال الشرطة ينتابهم خوف منه، فأردت أن أصيح له: "السيدور، ارجع، عُد إلى منزلك"، وكانت مكبرات صوت الشرطة تصدر أوامر، ولكن السيدور لم يكن يدرك ذلك بالتأكيد، ومضى في السير

باتجاههم، واضعا يداه في جيوبه متمايلا بلطف، فقفز عليه ثلاثة رجال من الشرطة، وحاولوا أن يسقطوه علي الأرض، ولكنه دفعهم بضربة مفاجئة، فكان يعتقد أن الأمر فكاهة، ونظر إلي أسلحتهم المصوبة إليه دون أن يفهم، واستمر في التقدم نحو منتصف الشارع، ولكنه لم يعد يضع يديه في جيبيه، وعندما تيقن رجال الشرطة أنه غير مسلح، اغتنموا الفرصة، فقفزوا عليه وشرعوا في ضربه بالعصي، علي ظهره، وعلي ساعديه، وعلي رأسه، فكان السيدور ينزف دما من أنفه ومن جمجمته، ولكنه كان لا يزال منتصبا، ودار حول نفسه متذمرا، وزراعيه ممدودان كما لو كان يسعي للتعلق بشئ، ثم ضربه رجال الشرطة علي ساقيه، وفي النهاية سقط علي الأرض، ثم استمروا في ضربه بضربات مطرقة وبقوة شديدة لدرجة أنه خيل لي أنني أسمع صوت الضربات، وكانوا يسبونه ويضربونه. وفي النهاية، رأيت السيدور يبكي راقدا علي الأرض، واضعا زراعيه علي رأسه حتي يذود عن نفسه الضربات، وكان يطلق صرخات تذمر واستنجاد بأمه.

وصلت العجوز في اللحظة التي حملوا فيها السيدور في سيارة، وكان ضخما لدرجة أنهم لم يتمكنوا من إدخاله مستقيما، فدفعوا رأسه إلي الأمام وضربوا ساقه حتي يثني نفسه في السيارة، وجرت العجوز السوداء خلفهم وهي تصرخ، كانت تسعي لتلحق بهم، ثم رحلوا فعادت إلي منزلها وأغلقت بابها. كانت علي يقين من أننا جميعا – في هذا الشارع اللعين – نحن الذين أرسلنا رجال الشرطة للبحث عن أبنها. وبعد يومين من ذلك،

وبعد أن عاد السيدور، تبدل شئ ما، فلم يعد يجلس في خارج المنزل يشاهد الناس وهم يعبرون في الشارع، وظل حبيس المنزل، فلقد كان خائفا. وبعد ذلك ببضعة أيام، رأينا لافتة علي المنزل، فلقد حملت العجوز السيدور إلى حي آخر، فلم أعد أعرف عنه شيئا.

بعد ذلك، عرفت الانحراف، كان لدي منه ما يكفيني وأنا أقتسم جان مع إنجيلا، فلقد خرجت مع يلا، وهو من الإكوادور، وكان يقيم بمنطقة جوليت، وكان فارع الطول، نحيف البدن، شعره طويل مثل هنود السينما، وكان يضع حلية صغيرة ماسية معلقة في أذنه اليسرى ؛ وكان يحلم بالرج[8] والراجا وأن يشهر علامته التجارية، وفي انتظار ذلك، كان يتاجر بشكل غير شرعي في ملاقيط الشعر والمواد المنبهة، وقليلا في البودرة، وكان يتعاطى المخدرات أيضا، ولكن هذا الأمر لم أكن أعرفه عنه. كنت أذهب معه إلى مشارب الخمر، في حانات البلوز[9]، وكنت ألتقي بموسيقيين ؛ وكنت أظل خارج غرفتي طوال الليل، وكنت ألتقي بنجوم في لعبة كرة السلة ولاعبين مشطوبين من سجلات الرياضة متسكعين ونساء شهيرات تتصرفن على نهج جانت جاكسون وهي تغني "فر إذا أردت أن تحيا"، ورجال من جاميكا يتصرفون علي نهج زيجي مارلي، ورجال من هايتي يتصرفون على نمط الفوجز. أما أنا فكنت أحب الأغاني القديمة: كأغنية رازهل "راعي

---

(8) reggae موسيقى يعزفها الزنوج في جامايكا. (المترجم)

(9) موسيقى من مشتقات الجاز ألفها زنوج الولايات الأمريكية. (المترجم)

الضوضاء"، وأغنيات بلاك ثو وهوب ومارك وكامل. واستبدلت المذياع القديم بجهاز تسجيل صغير، كنت أمضي في كل مكان ومعي الموسيقى العميقة في أذني الوحيدة، كما لو كان العالم أجمع صامت، وكنت أرتدى ملابسي مثلهم، كنت أسير وأشعل الغليون مثلهم، وكنت أتحدث مثلهم، وكنت أقول بالإنجليزية: "أتعلم ماذا أقول؟"، وما من إنسان كان بوسعه أن يظن أنني أتيت من الجانب الآخر من العالم. ذات مرة تحدثت عن المغرب، وهي الطرف الآخر من الدنيا، ففهموا أنني أتحدث عن موناكو، فلم أعد الكَرة. ولم يكن هناك من إنسان يعرف ماذا يعني أن يكون المرء من أفريقيا، ثم أنني لم أكن قد تسلمت بعد البطاقة الصغيرة البلاستيكية الخضراء التي تمنح كل الحقوق. كنت أرى جان من آن إلى آخر، ولكنه لم يكن يحب أن يشاركه أحد مثل بيلا فيّ، ولما كان ذقنه صغير، فلقد كان يبدو أكثر حزناً.

بفضل سينور، أصبح لدى رقم في التأمين الصحي ورخصة قيادة، وذات مساء، ودون أن يخطرني، دعا مستر لورى إلى مشرب الخمرة حتى يسمعني وأنا أغني، وعندما انتهيت من دوري، دون مستر لورى على بطاقة زيارته موعداً لليوم التالي، وذهبت بمفردى لحجرة التسجيل، دون أن أحدث بلا، ولا جان، ولا أي شخص، ولم أدر ما الذى كان يريده مستر لروا مني، فارتديت بنطالاً ضيقاً، وقميصاً من الصوف فضفاضاً لونه أسود، ورقبته مستديرة تحسباً للحالة التي من الممكن أن يعتدى عليَّ فيها. كان الأستديو يقع تحت الأرض من مبنى في منطقة اوهيو، وكانت هناك صالة كبيرة

مفروشة بعازل أسود، وبها بيانو أبيض في منتصفها، وكان الأمر مخيفاً إلى حد ما. عزفت كما تعلمت مع سيمون في منزل لابيت أوكساي، منحنية على لوحة المفاتيح حتى أنصت للنوتات الخفيضة وهي تدق، وغنيت لنانا سيمون أغنية: " أضيع هجاءً لك" وأغنية "أسود لون بشرة حبيبي"، ثم عزفت مقطوعتي، تلك التي أعوى فيها كمقطعي الحطب والتي أصيح فيها كصياح كطيور السمامة في السماء فوق فناء لالا أسماء، والتي كنت أغني فيها كالعبيد الذين ينادون أجدادهم على حافة المزارع وهم منتصبون في البحر، ثم عاودت غناء أغنيتي " على السقف" تذكاراً لشارع جافلو وسلم رجال الإطفاء الذي يقود إلى سقف الدنيا. كان قلبي يدق بشدة، وحتى أمنح نفسي الشجاعة، فكرت في صوت دجاما الغريب والمتعش الذي كنت أسمعه في الماضي في دوار تبريكة ومذياعي ملتصقاً بأذني، عندما كانت تعلن عن كتات ستفانز على إذاعة تانجير، صوت أمريكا.

الآن بعد كل هذه السنوات، أعرف ما أريد أن أسمعه: هذا الرنين اللامنقطع والأصم والخفيض والعميق، صوت البحر على هضبة الأرض، صوت الناقلات الحديدية على شرائط السكك الحديدية اللامتناهية، زمجرة الأعاصير المستمرة التي تخرج خلف الأفق كالتنهد أو الضوضاء القادمين من المجهول، صوت دم شراييني عندما أستيقظ في الليل وأشعر أنني وحيدة.

في هذه اللحظة، أعزف ولم أعد أخاف من شيء ، وأعلم من أنا، وحتى طرف العظمة الصغير الذي تهشم خلف أذني اليسرى، لم تعد له

أهمية، وحتى الحقيبة السوداء والشارع الأبيض والصرخة المدوية لعصفور الشر، لم تعد هناك أهمية أيضا في حياتي لزهرة ولاهابيل ولاللسيدة دلاهاى ولا حتى لجوب، لكل هؤلاء الناس الذين يراقبون بدقة ويطاردون ويمدون شباكهم في كل مكان . غنيت لوقت طويل، دون أن آخذ نفسي تقريباً، فانتابني ألم في أطراف أناملي، ثم انتابني شعور بدوار كبير، وكأنني في ممرات محطات المترو الخاوية عندما يفر الناس، أما مستر لروا فلم يقل شيئاً، فرحلت من قاعة التسجيل وقلبي منقبض، كان لدي انطباع أنني فشلت في كل حياتي، وفررت ألوذ بالفندق مع جان فيلان.

رقدت على مدار نهارين وليلتين، دون أن أستيقظ تقريباً، فلقد استنفدت كل طاقاتي. وبما أنني رأيت العملاق السيدور ملقياً على الأرض على يد رجال الشرطة، مضروباً ومتروكاً لبكاء أمه وكأنها تبكي طفل صغير، فلم يكن في وسعي أن أعود إلى شارع روبنسون، فمازالت تدوى في أذني صفارات سيارات الشرطة عندما أغلقوا الشارع. ومع وجود سماء فصل الخريف الزرقاء والأشجار حمراء اللون، إلا أن الأمر لم يكن مختلفاً عن شارع جسان – بوتس، ولا يختلف كثيراً عن فناء لالا أسماء، ولا عن الشارع الأبيض حيث أختطفت عندما كنت صغيرة.

قبل هبوط الثلوج فحسب، وفي شهر نوفمبر، تلقيت في آن واحد خطاب هيئة الهجرة به بطاقة إقامتي، وموعداً مع مستر لروا لتسجيل أغنية "على السقف". وفي قاعة التسجيل، كان هناك المنتج والمساعدين والفنيين،

وعزفت وغنيت في فترة الصباح، وكان التسجيل يتقدم قليلاً، وكان الأمر يستلزم أن أعود للوراء دوما، ثم أبدأ من جديد، ثم، عندما فرغت من ذلك، وقعت عقداً لشريط واحد ولكل ما أنتجه على مدار خمسة أعوام، فلم تكن لدى طوال حياتى نقود أكثر من ذلك، ولم أكن أدرك ما حدث جيداً. فى الليل التالى، وفى صحبة بيلا والموسيقيين، ذهبت ومستر لروا ومساعدو الإنتاج إلى مطعم "ليجران" لصاحبه ماجيك جونسون، وكانت رأسى تدور، وكان يبدو لى أنه لم تعد لى حدود، وكانت هناك صحفية تطرح على أسئلة، فكنت أقول لها أى شئ، أننى فرنسية، وكنت أفريقية، وعندما سألتنى عن عنوان أغنيتى القادمة، قلت لها دون تردد " إلى السيدور مع حبى"، وانتابنى غضب مفاجئ، وكنت ارتعش. كان لدى انطباع أن موسيقى الطبول فى محطة ريومير – سيباستوبول كانت موجودة فى كل مكان، فى الهواء، فى دخان مشارب الخمور، فى اللمعان الأحمر الذى يظل فوق شيكاغو حتى الفجر.

فى الصباح، تركتهم جميعاً، وسرت على طوال البحيرة، كان الطقس بارداً للغاية ولم أكن أرتدى سوى قميصى الجلدى وقبعتى السوداء الممدودة حتى أذنى، وكانت أشجار الحور الرجراجة مشتعلة، والسماء كان لونها أزرق كثيف، والشمس كانت تشرق فوق البحيرة. رأيت أسراب طيور الكُركى تعبر نحو المكسيك الجديدة.

انتظرت باحتشام فى ممرات الاليانس الفرنسية، فلم يتعرف علىّ جان فيلان على الفور بسبب قميصى الجلدى الأسود وقبعتى، ثم اعتذر

للطلاب، قال لهم إن لديه أمراً هاماً وعاجلاً، وسرنا في الشوارع العريضة، تناولنا إفطاراً، كما حدث في هارفرد، ثم مضينا حتى الهواء الطلق الذي كان يحيط بمحطة التنقية على شاطئ البحيرة. كان هناك أناس جالسون على العشب الأخضر، تجرها كلاب ملكية، وكان هناك شيوخ يرتدون ملابس رياضية ويمارسون لعبة التيشي[10]، كان الطقس بارداً. وعند مروري أمام مبنى في حي شريدان، استأجرت شقة صغيرة، وسددت النقود في الحال، فدفعت شهراً من الإيجار كضمان وشهر آخر كإيجار مقدم، فلقد أردت أن أتصرف كما لو كنت أنا وجان زوجان دون شهود ودون كنيسة ولا مستندات ولا مستقبل ، وأعتقد أنني أصبحت حبلى في هذه الآونة.

لا أعرف أي شيطان دفعني للعودة إلى بلا في شقته في لابلازا بمنطقة جوليت، وربما كان هو الشيطان، أو لربما كان جان فيلان لأنه جعلني انتظر كثيراً، ولأنه أنتظر الكثير مني، وأظن أنه لم يكن يوجد شخص أكثر ضجراً مني آنذاك.

في شيردان، كنتُ سجينة في قفص من الزجاج والحديد، أعلى المدينة والبحيرة المتجمدة، وفي مكان مُغلق بإحكام إلى حد أنني كنت أظن أنني أصبحت صماء الأذنين. كنت أنتظر طوال اليوم، كنت أنتظر أن ينهي جان محاضراته، كنت انتظر أن يفرغ من تلاميذه، من أساتذته ومن مقالاته، ثم كنت أنتظر أن يفرغ من إنجيلا. وفي حوالي الرابعة، كان جان يأتي على

(10) رياضة صينية تعمل على تنشيط العضلات. (المترجم)

عجل، يحمل زهوراً، وزجاجة خمر، وبرتقال، كما لو كـان يعـود مريض ؛ وكنا نتضاجع حتى على الموكيت، أمام الفتحة الخالية حيث يكون الظلام قد هبط، ثم أرقد معانقة له، كما كنت ألتصق في ظهر لالا أسماء . فـي منتصف الليل، كان ينصرف على أطراف أقدامه، وذات يوم، سـألته أن يريني صورة لصديقته ؛ كانت تضحك بغباء قليـلاً، على عشب أخضر كبير أمـام حمام سباحة. كان اسم إنجيلا اسماً يليق بـها كثيراً، فلقـد كـانت فارعـة الطـول، شقراء، ملائكية، علـى عكسي تمامـاً فـي مجمـل الأمر، وكـانت روسية أو لتوانية، لا أعرف، وكانت تعمل كطبيبة.

وبلا أيضا كان علـى النقيض تمامـاً مـن جـان، فكـان رفيـع الجسم كالنبات متسلق، عذباً وعنيفاً، يشوبه نوع من الغضب المكتسب، وكـان يُعنى عناية تامة باختيار ملابسه وأحذيته وأقمصته الحريرية السوداء، وكان يطلي كل صباح الحُلي الماس المصقل الذى كان يضعه في أذنه، كان يقول إن ذلك أتاه من أخته، وأنها أعطته له قبل أن تموت من جرعة مميتـة عند أقربائها فـي واشنطن. معه، كان شعوري بالفراغ يقلُ، وكذلك قلقَ الانتظار. وفـي الواقـع، لم أعد أنتظر شيئاً، فكنا نعيش اليوم باليوم، وكنا نستمع للموسيقى، ونذهب لشارب الخمور والحانات الليلية والسهرات ؛ وكان مستر لروا لايحـب بـلا، وذات يوم هتف إليّ ولا أعرف كيف حصل على رقم الهاتف، وقـال لي: "إنـه نمط لايناسبك، فهو ضعيف جداً وسوف يهبط بك"، فغضبت وقررت ألا أعود إلى غرفة التسجيل.

كان ذلك قبل قدوم فصل الربيع، وكان بلا يواجـه صعوبـات ماليـة، فكان مداناً بأشهر إيجار مسكنه، وخططنـا مشروعاً للرحيـل إلى كاليفورنيـا بالسيارة، ولكننا لم نتوصـل لاتخـاذ القرار. فـي المسـاء، كنـا نتسـكع حتـى الرابعـة صباحـاً أو حتـى الخامسـة فـي الحانـات الليليـة، نشـرب ونشـعل الفليون، وعندما كنا نستيقظ، كنا نجد أن الوقت متأخراً جداً، إلى حـد أننـي لم أعد أعرف في أي يوم من الأسبوع أكون؛ ثم طُرد بلا من لابلازا، فذات بعد ظهر يوم من الأيام، وأنا عائدة إلى المنزل أحمل حليباً وفطائراً وبعض الأشـياء للعشاء، لاحظت أن مغلاق الباب قد تغير، وجاء بـلا فغضب، ولم أره مطلقـاً في مثل هذه الحالة، ولاحظنـا أن أشيائنا وضعـت فـي سـلات القمامـة أسـفل درجات السلم أسفل المطر، فقرع بلا الباب بضربات قـدم قويـة، وكـان يصيـح بشتائم، فقدم رجل أمن المساكن يحمل مطرقته الإلكترونية وهاتفـه، وتظـاهر بلا بأنه يتشـاجر، فصعقـه رجـل الأمـن بعصـاه، ثـم نـادى رجـال الشـرطة، فصرخت وتشبثت بالأرض وصرخت ثانية، ثم جـررت بـلا مـن شـعره حتـى المكان الذي تتوقف فيه السيارات، وكان أمراً مضحكاً ومرعباً. وضعنا حقـائب القمامة في السيارة ورحلنا قبل أن يصل رجال الشرطة، وحتـى ينتقـم، ألقـى بلا زجاجـة، من عصير الطمـاطم علي واجهـة المـنزل، والتـي ألصقـت بقعـة عريضة حمراء على الحائط ؛ وفي ذات الوقت، كان يصيح كذئـب مـن المدينـة القديمة، ثم لذنا بأحد أصدقائه في المدينة التي يكثر سكانها مـن الصينيـين، ثم قررنا أن نرحل إلى كاليفورنيا، فعبرنا كل الولايات المتحدة تقريبـاً دون أن

نتوقف، قائدين السيارة بالتناوب، ليلاً ونهاراً، نائمين في مواضع توقف السيارات. في بعض الأماكن، في اركانساس وفي اوكلاهوما، كان الطقس بارداً جداً، وكان هناك ثليج على المنحدر، فسقطت مريضة، وكنت أرتعش، كان بي ألم في رأسي، وكنت أتقيأ، فقال لي بلا: "لا عليك، سيمر هذا الأمر بسلام، إنه زكام"؛ ولكن الألم لم يفارقني، فلم يكن مجرد زُكام، بل حُمى شوكية. عندما وصلنا إلى كاليفورنيا، كنت على وشك الموت، كان ظهري وعنقي مجعدين، وكان هناك ألم واخز يدق في أذني، وكنت أشعر وكأن قلبي متوقف، ولم أستطع أن أتكلم، ولم أعد أسمع ما كان يقوله لي بلا، وكانت عيناي مفتوحتين نهاراً وليلاً كما لو كنت قد سقطت من الفضاء. في سان بيرناردينو، فقدت الجنين ونزفت دما غزيراً، فكان بلا خائفاً من أن أموت في السيارة، فوضعني وحقيبتي على باب مستشفى، ولا أعرف ماذا قص عليهم، ربما أنه انتشلني من نقطة إيقاف أو شيئاً ما، لأنني لم أره مرة ثانية، وربما قبض عليه رجال الشرطة وهو يبيع البودرة أو الأختام، وهكذا فقدت أحد قرطي الذهبيين التي أعطتني إياهما لالا أسماء، ولكنني كنت مريضة بشدة حتى أهتم بذلك.

عندما دخلت مستشفى سان برناردينو، كنت فاقدة الوعي أو هكذا تقريباً، وأمضيت وقتي مكورة، مختبئة أسفل الملاءة حتى أهرب من الضوء. وبسبب الحمى والجفاف، كان لساني أسود اللون ومتورم، وكانت شفاهي تنزف دماً، حتى أنني لم أعد أضع في اعتباري أنني صماء. كنت في شرنقة،

مكورة في قاع مغارة، في عمق ألمي، وكان بطني، وهو روحي وكسائني، قد فسد كثيراً. فلقد كُحت وأخلى إلى حد أنني لم أعد أعيش إلا له. في بعض الأحيان، كان يأتي شخصٌ ما يضطرني إلى الاستيقاظ والتبول في الحوض ثم يقوم بحقني، وكنت أشعر بإبرة تغوص في ظهري، بين فقراتي، فكنت أصرخ من الألم، ثم أهوى منهكة على الفراش.

في هذه الآونة، رأيت ندى للمرة الأولى، وسميتها ندى في داخلي، لأنها وضعت يدها الندية جداً على جبهتي، فكانت كندى الصبح، ورأيت وجهها الأملس الداكن وعينيها اللوزتين السوداوين، وشعرها المصفف في ضفيرة واحدة سميكة كالذراع . كانت تجلس بجوار فراشي، وكنت أنظر إلى عينيها، وأتبحر في نظرتها، وأتشبث بيدها،و لم أكن أود أن تتركني.

حينئذ نمت للمرة الأولى منذ أسابيع، ورأيت في المنام أنني لا أنام، وأنني أتدحرج خلف موجة. في كل صباح، كنت أنتظر عودة ندى، بيدها الطرية، وعينيها. كانت الوحيدة التي قادتني نحو البسيطة، نحو النور، فبدأت أخرج من مغارتي، وهي الوحيدة التي كان بإمكانها أني تضمني على العتبة، هناك حيث كانت تُسمع موسيقى الأطفال وصيحات العصافير، وحتى غطيط السيارات في الشوارع. كنت أجمع الأقراص المنومة لها، ثم كنت أدحرجها في منديل تحت وسادتي، وفي الصباح كنت أقدمها لها، فلم يكن لدى شيئاً آخر أعطيها إياه.

جاء رئيس الأطباء ذات صباح بصحبة طلابه، ثم عقد محاضرة، وكان طلابه يدونون ما يقول في كتبهم، وكنت أنظر إليهم حتى يخفضون أعينهم، وكان الصبية يضحكون مستهزئين، ولم أكن أهتم بذلك، فلقد كنت أنتظر ندى.

جاءت قبل قدوم الليل، قبل أن تعود إلى حيث تقيم في وإلى مؤسسة سان جوان. لم تكن تُدعى ندى، كانت تضع شارة على قميصها الأبيض مدون عليها اسمها: شافيز، وكانت هندية، فلم تكن تكلمني بغير الإشارة، كانت تومئ لى بيديها ووجهها عن كل ما تريد أن تقوله لى، وكانت تخط أحرفاً بأناملها، وتعلمت الرد عليها، تعلمت أن أقول امرأة، رجل، طفل، حيوان، يرى، يتكلم، يعرف، يبحث. وكانت تعرف قصة الجنين، فلقد كان العاملون في المستشفى يواجهون هذه المشكلة إضافة إلى المشاكل الأخرى، ولم تسألني ندى عن شئ . أرتني صور رجال في مجلة بالمصادفة: هوج جرانت، سامي دافيد، كينو ريفز، بيل جوسبي وفهمت، وضحكنا كثيراً، وأظن أنها خافت أن يكون جنيني جاء على أثر حالة اغتصاب، وحينئذ، دونت على المجلة اسم جان فيلان، وأضفت كلمة نعم، إنه اسم رجل.

ذات صباح، قلت لها بالإشارة إنني أريد الانصراف، ففكرت ندى للحظة، ثم حملت إليّ ملابسي، وتقهقرت للخلف ثم فتحت باب الغرفة، وكان ذلك أمراً غريباً بالنسبة لى، لأنه حتى هذه اللحظة لم أكن قد رأيت منها سوى وجهها البيضاوي الصافي، والذى يشبه قناع من الذهب،

وحواجبها المقوسة، وعينيها المشابهتين لدمعتين من السبج[11]، وشعرها الأسود الناعم اللامع. وعندما وقفت أمام الباب المفتوح، رأيت أنها ضخمة وبدينة ، ومن المفترض أنها قرأت في عيني دهشتي، لأنها أشارت لي عن أردافها الكبيرة وهي تضحك.

ارتديت بنطالي الجينز الضيق وقميص قرمزي اللون، ثم وضعت على شعري القبعة السوداء والتي عليها ثبتُّ قرط الهلال الآخر، ثم وضعت النظارة السوداء الشهيرة التي أعطاها لي بلا قبل أن نرحل، وكانت علامة على الحزن، ولكن ها أنا التي كانت مفقودة. أردت أن أترك شيئاً ما لندى، على سبيل الذكرى، فأعطيتها كتابي عن فرانتز فانون والذى وجدته في قاع سلة مهملات، وكانت صفحاته مثنية الأطراف ومستهلكة وكأنها صفحات دعاية لمنتج ينقصها الصور التوضيحية، ولكن هذا الكتاب كان أنفث شيء معي.

عندما عانقت ندى شافز، أعطتني بعض الدولارات من أوراق مستديرة موضوعة في مشبك كما فعلت حورية في السابق عندما رحلنا من تبريكة. هبطت السلم ومررت أمام مكتب الحارس متخذة طريقي بشكل مستقيم تماماً دون أن ألتفت إلى أي شيء.

---

(11) مادة قيرية تلتهب كالفحم الحجرى وتستخدم الكلمة فى وصف العيون للدلالة على شدة سوادها. (المترجم)

ظللت لوقت طويل لا أخرج إلا ورأسي يدور، وساقاي يأبيان السير، وكنت أخفقت في العودة، وكنت أسمع وقع أقدامي على الرصيف، وصوت الدم في شراييني، وصوت الهواء في رئتي، ومع ذلك، لم أكن أسمع شيئاً آخر.



عشيرة هلال

ظللت أسير لمدة أيام، حتى نهاية الشوارع، حتى البحر، حتى نهاية الدنيا، حتى الموت، وكنت أنسل وسط الناس، بين السيارات، مهرولة في الغالب، كنت أكثر سرعة من الآخرين، فليس هناك من شئ يمكنه إيقافي، فلقد تعلمت الجرى منذ وقت بعيد عندما خرجت من فناء لالا أسماء. تعلمت أن أتحاشى الشراك والأخطار وشرطة زُهرة، فكنت أترصد بطرف عيني، ثم أندفع، وأكون في توازن كالبهلوان على الخط الأوسط من قارعة الطريق. الشاحنات تلامسني، والأتوبيسات والعربات المعدنية يصدم هواؤها وجهي، وأشتم رائحة عجلاتها العشر التي عندما تسير تحدث ثرى دقيقاً أسوداً.

السير عكس سير السيارات، أمر تعلمته بالغريزة، فإذا ما مشيت أنت في اتجاه السيارات فلن تراها وهي قادمة، وتكون آنذاك فريسة أو

ظللت لوقت طويل لا أخرج إلا ورأسي يدور، وساقاي يأبيان السير، وكنت أخفقت في العودة، وكنت أسمع وقع أقدامي على الرصيف، وصوت الدم في شراييني، وصوت الهواء في رئتي، ومع ذلك، لم أكن أسمع شيئاً آخر.



عشيرة هلال

ظللت أسير لمدة أيام، حتى نهاية الشوارع، حتى البحر، حتى نهاية الدنيا، حتى الموت، وكنت أنسل وسط الناس، بين السيارات، مهرولة في الغالب، كنت أكثر سرعة من الآخرين، فليس هناك من شئ يمكنه إيقافي، فلقد تعلمت الجرى منذ وقت بعيد عندما خرجت من فناء لالا أسماء. تعلمت أن أتحاشى الشراك والأخطار وشرطة زُهرة، فكنت أترصد بطرف عيني، ثم أندفع، وأكون في توازن كالبهلوان على الخط الأوسط من قارعة الطريق. الشاحنات تلامسني، والأتوبيسات والعربات المعدنية يصدم هوائها وجهي، وأشتم رائحة عجلاتها العشر التي عندما تسير تحدث ثرى دقيقاً أسوداً.

السير عكس سير السيارات، أمر تعلمته بالغريزة، فإذا ما مشيت أنت في اتجاه السيارات فلن تراها وهي قادمة، وتكون آنذاك فريسة أو

ضحية، ثم تهدأ السيارات من سرعتها وتنسحب على طول الرصيف، وأغطيتها الطويلة براقة، وزجاجها مصبوغ، وهنا تفتح أبوابها، وتجد أيدي تسعى للإمساك بك وتضعك في السيارة.

على النقيض من ذلك، إذا سرت عكس سير السيارات - وهو أمر ينعكف على جنون منك - فأصحاب السيارات هم الذين يخافون منك، في مقاعد قيادتهم، خلف زجاجهم، فيتباعدون عنك، ويتركونك في هدوء، ويديرون آلات التنبيه بكل تأكيد، ويطلقون صيحات ذئاب. ولكنك في الحالة الأخيرة، ترى الشمس في وجهك عند الغروب، وتحرق الشمس صدرك وشعرك ولا تسمع شيئاً.

أفكر في ندى شافيز، أميرتي بفندق سان برناردينو، والجميلة جداً في أردافها العريضة وطالعها الهندي وعينيها التي كنت أستطيع أن أقرأ في تياراتها المنزلقة على سطح مائها، ويدها الطرية من ندى الصباح ؛ وهي الوحيدة التي لم تطرح عليَّ أسئلة، ولم تنصب لي شراكاً، وعندما كانت تأتيني في كل صباح، كانت تجلس على المقعد البلاستيكي الموضوع على رأس الفراش، وكانت تمد يدها حتى أضع فيها حفنة من الأوراق بها حبوب بيضاء وحمراء كانت تجعل المجانين ينامون ؛ وكانت تضغط بيدها على جبيني، فتعطيني قوتها. ويوما ما، عرفت أنني مهيئة، ففتحت لي الباب حتى أنصرف.

لكي آكل، أو أكون في الظل أو في محمى من مطر الصباح الخفيف، كنت أدخل المراكز التجارية الكبرى. وللذهاب من محطة الجريهوندز في

المنطقة السابعة والمادا إلى سانتا مونيكا، كنت أستقل الأتوبيس لمدة ساعة أو كنت أقطع المسافة في نصف نهار سيرا على الأقدام، وعندما كنت أذهب هناك، أصبحُ في مجالي، فكنت أختفي وسط الحشود، وأتتبع الممرات، ثم أعبر الميادين الصغيرة والساحات، وأهبط السلالم المتحركة، وأصعد في المصاعد الكهربائية الشفافة، وكنت أذهب إلى أي مكان حتى إلى الأدوار تحت الأرضية، وإلى الأماكن التي تقف فيها السيارات. كنت حاذقة، فلم أكن أذهب إلى مكان بالصدفة، وكنت أعرف أي زاوية أو أي ممر. وكان المشهد مشابها للمشهد الذي كنت أراه في السابق من سطح شارع جافلو، ولكن هنا المساحة كانت شاسعة كالجزيرة، وشاسعة كقارة.

أعرف الأسماء والأوجه ورسومات واجهات المتاجر ؛ وعرفت الحراس، وهم أيضا عرفوني. أظن أنهم كانوا يرونني على شاشتهم المتلفزة ثم يعلنون الخبر: "هناك صبية غريبة، سوداء البشرة، ترتدي قميصاً أحمراً وتضع قبعة سوداء، وهناك شئ على قبعتها، نجمة أو رسم قمر... لاتبعد نظرك عنها" ؛ فكنت أراقب، وكانت هناك ظلال خلفي تقتفي أثرى، كالذئاب في غابات كندا، وكأسماك القرش في خليج كوباكابانا، فكنت أجرهم خلفي، وأعلم بالضبط أين هم، وماذا يفعلون ؛ وكان بوسعي أن أضللهم متى شئت، ولكنني كنت أمزح بوجودهم خلفي وأنهم يتناوبون عليَّ ويتتبعونني بعيونهم. وفي لحظة ما، كنت أتظاهر بأنني أختبئ، ثم أختار الكثير من البذل الكشمير التي كنت أضعها على قميصي الأحمر، ثم أتردد،

وألمس الأنسجة، أشاهد بطاقات الأسعار ورأسي مائلة قليلاً كدجاجة تترصد، ثم أترك كل شئ وأرحل في خطوات واسعة. وذات يوم، تم إيقافي وتفتيشي في حجرة صغيرة على يد امرأة بدينة مخبولة، فلم تكن تعلم من تفتشها، ولم تكن تعرف أن لى عينان خلف رأسي، ومنذ أن فقدت السماع بأذني الأخرى، وأنا أرى كل شئ من على بعد كيلومترات، ويمكنني أن ألمح حركة حارس وهو يحك ما بين أفخاذه على الطرف الآخر من الصالة ؛ ولم أكن أذهب كي أسرق، لكي أمنحهم متعة متابعتي.

كنت أجرب الملابس، هذا كل ما في الأمر، وهذا أسلوبي حتى أكون شخصاً آخر، بمعنى أن أكون أنا، وكنت أجرب تنورات قصيرة من الجلد الأسود ومن حرير الرايون، وأثواب من الأسترتش الأبيض، وبنطاليل ضيقة الأرجل من الجينز، وأقمصة رياضية وأقمصة من الحرير وكنز صوفية من ماركة تي. اليفجر ونوتيكا وأقمصة رياضية أكمامها طويلة من ماركة جاب وار. لوران وسي. كلان وماركة لى وأقمصة بيضاء من ماركة ال. اشلي. وكنت أذهب إلى قسم ملابس الرجال، وأقتاس البذل،و الملابس الرياضية، والبدل الأوشكوش، والسترات الواقية من الريح من ماركة ذا مفز ستورات سيرزس؛ ثم أرتدى بنطالى الجينز الأسود، وقميصى القرمزى وقبعتى السوداء وأخرج. ما كنت أسعى إليه، هو انعكاسي في المرايا، فلقد كان يخيفني ويجذبني. وكنت أقول لنفسي ها أنا بعيني، ولكنني لم أعد أنا، وكنت أدور حول نفسي، وأنظر إلى الألوان الصارخة والأنسجة اللامعة. عيناى لم تعد عيناى

بل أصبحت تشبه رسومات طويلة ومقوسة على هيئة ورقة كعيني ندى، وعلى هيئة شعلة كعيني سيمون، بي تشبه التجاعيد الصغيرة الضاحكة المشابهة لركن عيني تغادير المجوزة، أو الازرقاق الدائري العميق في عيني حورية عندما كانت طفلتها تُولد تحت الأرض.

كنت أريد أن أتحدث مع جسدي، فأمضي نحو المرآة، على طول ممر، كأميرة في شرفتها، وأمشي، ثم ألتفت، أتوارك، وأشعر بالنظرات مصوبة إليّ، وعدسات أجهزة التصوير غير المرئية. في بعض الأحيان، كانت البائعات تتوقفن وتنظرن إليّ، أو أطفال أو فتيات مراهقات، فذات مرة، أتت إليَّ إحداهن، وكان معها بطاقة صغيرة، وطلبت مني أن أكتب لها اسمي، كما لو كنت نجمة صغيرة من هوليود، فكتبت لها: ندى مافوبا، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها، طالعها جميل يشبه طالع قط صغير، وعيونها كانت كبيرة بنية في شكل اللوز، وشعرها على هيئة ذيل الحصان، وكانت ترتدي بنطالاً من الجينز فضفاض جداً على جسدها، مستهلك من على الركبتين، وجعلتها تكتب لي اسمها على ورقة من مفكرتها: آنا.

وحتي آكل، كنت أشتري شواطر اقتصادية، وفي بعض الأحيان، كنت أذهب إلى المطاعم على طريق ويلشير هاليفكس وطريق لاسينجا، وكنت أفر قبل تقديم الحلوى؛ وكان هناك رجال يدعونني، فكانوا يتعقبونني في المراكز التجارية وأقتادهم حتى المقاهي، وكانوا يجلسون معي على المنضدة، وكنت أبتسم لهم وأعرف أنني لن أدفع شيئاً، وعندما يكتشفون أنني صماء،

كانوا يخافون، أو يصبحون أشرارا معي، وكنت آكل وأشرب، وقبل أن يلحظون ذلك الأمر، أكون في الشارع، فأعبره مهرولة، متخذة الاتجاهات المفردة. وذات مرة، كان هناك رجل لم يسدد الحساب للمقهى، ودار ودار بالسيارة حتى عثر عليّ، كان فارع الطول، وسيم، حسن الملبس، ولكنه كان كالكلب، فلقد جرى نحوي ولكمني بيده فجعلني أدور على الأرض في نظارتي السوداء وحقيبتي التي تناثرت، ولم يساعدني أي شخص على النهوض من على الأرض، وعلى الأرجح أنهم كانوا يقولون في أذهانهم: "هالك، عاهرة تُصوب ".

قبل مجيء الظلام، كنت أستقل الأتوبيس حتى الحي السابع، وكنت أمر من أمام السائق دون أن ألقي بطاقتي، وفي بعض الأحيان، كانوا لا يقولون شيئاً، وعندما كانوا يأخذون في الغضب، كنت أقوم بحركة تدل على أنني لا أسمع وألوذ بنفسي. ملجأ الليل كان عبارة عن مبنى كبير طوبي بجوار الاميدا، وكان هناك دوما طابور من الناس الذين ينتظرون، معظمهم مثلي، جلدهم داكن وشعرهم أسود. وفي الساعة السادسة، كانت تُوزع القهوة والشطائر، وكان عنبر السيدات من الخلف، في منتصف مربع عش مُصفر، مُزين بنباتات اليُكة[1] في واجهة السماء البنفسجية، وكانت هناك صالة استحمام مبنية بالأسمنت المطلي باللون الرمادي، حيث تغتسل السيدات في مجموعات، ولم يكن هناك من أحد ينظر إلى الآخر، ولكنني كنت ألمح

---

(1) نباتات للزينة من الفصيلة الزنبقية. (المترجم)

ظهورهن النهكة، أثداهن، وجلدهن الأصفر والأشهب والأسمر المحمر، وبطونهن المحاكة من الجروح البنفسجية، وسيقانهن المصابة بالدوالي. وهكذا كنت لا أفكر في شيء، ولم يكن لي وجود إلا بالعين، ثم كنت أتدحرج أسفل الماء الساخن الذي يلدغ فمي حيث لكمني الشاب. كنت لا أنام، أو أنام وعيوني منفرجة.

أنقذتني الموسيقى، فلقد رأيت بيانو رائع، لونه أسود في بيغرلي، وفي كل مرة كنت أمر من أمامه، لم يكن في استطاعتي أن أحيل نظري عنه. وذات يوم من بعض الظهيرة، لم يكن هناك أناس كثير، فلقد تبدل الرجل الذي كان يحرس البيانو بشاب أشقر البشرة، يضع نظارة، ذقنه صغير جداً، وكان يشبه جان فيلان، وكان يطالع كتاباً وهو جالس على المقعد.

اقتربت من البيانو، ولمست خشبه الأسود، ولوحة مفاتيحه العاجية، ثم نظرت إلى الحارس، كان منهمكاً في القراءة، دون أن يعيرني انتباها. فكرت: ربما كان أصم أيضاً مثلي ؟

جلست على المقعد، ثم شرعت في العزف، وأظن أنني نسيت العزف في البداية، فلقد كانت أناملي تقف على المفاتيح، وكنت أسعى لإيجاد الصوت في ذهني، وكنت أدندن وأتمتم، وكنت أميل برأسي إلى جانب حتى أسمع الأصوات كما كانت تفعل سيمون عندما كانت تعلمني. ثم فجأة، بدأت أسترجع. كانت أناملي تهرول على لوحة المفاتيح، كنت أجد الإيقاع والألحان، وأعيد تشكيل اللحن، وكنت أعزف لبيلس، وأعزف لجيمي

هندريكس مقطوعات منفصلة وهاوية، وأعزف كل ما كان يأتي في ذهني دون نسق ودون أن أتوقف، وكنت أرتجل كما كنت أفعل في شيكاغو، وكما كنت أفعل في منزل لابيت أوكاري، وكنت أعود للوراء، وأستعيد اللحن، وكنت لا أشعر بنفسي، وكانت الأصوات تنبثق خارج سمعي، من فمي، من يدي، من جوفي. لم أكن أرى شيئاً، كانت روحي في علبة البيانو، وفمي متشائب، وبطني ترن، وحلقي، وحتى ساقاي، كما لو كنت أسير في خارج المنزل تحت أشعة الشمس، وكما لو كنت أهرول.

الآن أنصت الموسيقى، ليس بأذني، ولكن بكل جسدي، رعشة تغلفني، تتدحرج على جلدي، تؤلمني حتى في أعصابي، حتى في عظامي. الأصوات المتعذر سماعها تصعد في أناملي، تختلط بدمي، بنفسي، بالعرق الذي يسيل على وجهي وفي ظهري.

اقترب مني الحارس الشاب، ووقف منتصباً، منكمشاً قليلاً، ولم يكن بوسعي رؤية وجهه، ولكنني رأيت أن كثيراً من الناس كانوا يقفون في الصالة، في مدخل المتجر، وكان هناك أطفال جالسون على الأرض، وأزواج متشابكون، وشيوخ في ملابس رياضية يتذوقون مشروبهم. وفي لحظة ما، رأيت الفتاة الشابة التي كانت قد طلبت مني أن أكتب لها اسمي في مفكرتها الشخصية، أنا، كانت في داخل المتجر، جالسة على درجة سلم الحاجز، كما فعلت أنا المرة الأولى التي سمعت فيها سارا، في فندق الكونكورد بمدينة نيس.

من أجلهم وأجلها، كنت أعزف، فلقد عثرت علي موسيقاى، ودق الطبول الصامت في محطة ريومير - سيبستوبول، ومحطة تولبياك، ومحطة أوسترليتز، وصوت سيمون الذى كان ينشد سفر العودة نحو ساحل أفريقيا، وصفارات رجال الشرطة وضربات العصي التي كانت تقرع السيدور، في شارع روبنسون في شيكاغو. لم يكن الأمر بالنسبة لى أن أعزف الموسيقي من اجلى أنا في هذه اللحظة، فلقد أدركت أنني أعزف من أجلهم جميعاً، هؤلاء الذين كانوا يصطحبونني: أناس أسفل الأرض، سكان كهوف شارع جسافلو، المهاجرين الذين كانوا معي على ظهر الزورق، على طريق فال دى الران، وأبعد من ذلك أيضاً: الناس في سويقة دوار تبريكة الذين كانوا ينتظرون عند مصب النهر، الذين كانوا يشاهدون بشكل لامتناهي خط الأفق كما لو كان شئ ما سيبدل حياتهم، ولهؤلاء جميعاً. وفجأة، فكرت في جنيني الذى أخذته الحمّي، ومن اجله هو أيضاً كنت أعزف حتى تلقاه موسيقاى في المكان السرى الذى هو موجود فيه.

أسرتني الموسيقي، كنت أسمعها تمر علي جلسد وجسهى كما يشعر الكفيف بخشخشة الشمس وخرخرة البحر الهادئة ؛ شعرت بالدموع تفيض من عيني ؛ وكانت هذه هي المرة الأولى منذ زمن بعيد، منذ أن تجمد الحاج مافوبا بمفرده في فراشه في إيفرى - كوركورون.

كان بوسعي أن أعزف كذلك حتى نهاية حياتي، شعرت بأيدى الحراس التي كانت تنهضني برفق، فمددت يدى ثانية نحو لوحة المفاتيح،

ولكن فجأة، لم يكن هناك شئ إلا الصمت ؛ وببطئ شديد كالطواف، حملني الحراس على طول الصالة، وكان الناس على الجانبين يصفقون في صمت، وسارت الشابة أنا خلال لحظة بجواري، ولم تكن تصفق، ولم تكن تتحدث، مدت يدها نحوي فحسب، وكان وجهها كوجه القط الصغير على مقربة مني، وفي لحظة رأيت عينيها المتدتين اللتان كانتا تلمعان من البكاء. وضعني الحراس في شاحنة صغيرة بيضاء، وفي مؤخرة الشاحنة، كان هناك رجل مسن يشبه السيد رشدى، أستاذ مكتبتي، وضمني إليه كما لو كان يعرفني، وكنت متعبة للغاية إلى حد أنني تركت نفسي، ووضعت رأسي على كتفه، وأظن كثيراً أنني نمت.

نهاية، الآن أنا في مأمن، أجلس في الجو المنعش في حجرة صغيرة نظيفة يحميها بإحكام من الشمس توجهها نحو الشمال ؛ ولم تكن هناك من نافذة، فقط كُوة باب مسيجة في أعلى الحائط الذى لايُرى منه سوى السماء الزرقاء في هذه الآونة . وبجوار الفراش، كان هناك مقعد بلاستيكي ومنضدة ليلية تخفي حوضاً، وفي أحد الأدراج، أضع الحقيبة السوداء التى رحلت بها من سان بيرناردينو، تضم كل أشيائي، النظارة السوداء وقبعتي التي شبكت فيها قرطي الهلالي الأخير.

في كل صباح، كان يعودني الأستاذ، ولم أكن أعرف إن كان بحق أستاذ، ولكنني أسميه كذلك كذكرى للسيد رشدى العطوف الذي كان يذهب إلى المكتبة التي كنت أرتادها بالقرب من المتحف، وأسليه بأسلوبي في

الضحك بالإنجليزية والفرنسية والأسبانية. لم يكن يتكلم، بل كان يطرح على أسئلة مدونا إياها على أوراق كبيرة الحجم ينزعها من مفكرة، وكان يكتب بنوع من العصبية بأحرف كبيرة مثل: "حالتك النفسية ؟ طبقك المُسكر المفضل؟"، ولكنه كان يود كثيراً أن يعرف من أين أتيت، ماذا حدث لي، عائلتي، واسم الرجل الذي جعلني حُبلى.

عندما كان يطرح عليّ أسئلة حول أسرتي، كنت أقول كلمات يقرؤها بانتباه، وكأنها لغز: ندى، سارا، أنا، ماجدة، ماليكة. وكان يظن أنني مكسيكية أو هايتية، ربما غينية.

جاءتني شافز اليوم للمرة الأولى، ولا أعرف كيف عثرت على مكاني، فربما دلتها بطاقات المستشفى، أو لربما قرأت في الصحيفة الإقليمية مقالاً مع صورتي في عنوان جذاب: "هل تعرفونها ؟"

لم تكن ترتدي ذي الممرضة، ولكنها كانت ترتدي بنطالاً فضفاضاً وقميصا مُشجرا يشبه قميص امرأة حُبلى وكأنها تعاضدني، أتصور ذلك. تعانقنا كما لو كنا صديقتين بيننا صداقة قديمة، ثم جلستْ على المقعد وجلست أنا على الفراش، وتحدثنا وضحكنا كثيراً، ثم خرجت بي إلى الحديقة. وفي هذا المكان، الذي لايشبه سان برناردينو، نحن في مونت زيون، في بيفرلي، وهناك نخيل وأوراق في كل مكان، عشب شديدة الخضرة، ونقود ؛ ليس هناك أسوار ولاحراس، وبوسعي أن أسير وأرحل، وربما لهذا السبب بقيت في هذا المكان.

كل صباح، كانت شافز تأتي إلى هنا مع الأستاذ، وعلى الأرجح أنها طلبت أجازة حتى تتغيب عن عملها، أو لربما أنا عملها، وكنا نصعد في سيارة الأستاذ، أو نتجول في الشوارع بالمصادفة ؛ وكان يطرح عليّ أسئلة، ويدونها دوما في مفكرته، فيود أن يعرف من أنا وماذا فعلت وأين تعلمت العزف على البيانو. عدنا معاً إلى المركز التجاري أمام البيانو، ولكن لم يوحي ذلك لي شئ، فلقد تبدل الحارس، ولم يعد هناك الشاب الذي كنت أحبه كثيراً، وكان البيانو ضخماً، يقف بمفرده وسط المتجر، كآلة جهنمية. حينئذ، حملتهما إلى إحدى المكتبات لكي نشتري مجلات موضة، وتصفحت كتباً بالصدفة ؛ وفجأة، تعرفت على صورة الأستاذ على غلاف كتاب فلسفة، وكان عنوان الكتاب "هيبنوس وثانتوس"، شئ من هذا القبيل، وكان مكتوباً أسفل العنوان، أدوار كلان، وكنت سعيدة لمعرفة اسمه، فبدا متضايقاً لحد ما، ولكنه كان سعيداً أيضاً، وكانت له ابتسامة صغيرة، وكانت لديه الرغبة في أن يقول: "نعم، ها أنا ذا"، وبعد ذلك أعطاني كتابه مدوناً عليه إهداء: "إلى عزيزتي المجهولة".

وذات يوم من بعد الظهر، فُتح باب غرفتي في زيون فرأيت مستر لروا ؛ ومع ذلك، لم يدهشني هذا الأمر، فلقد بلغت نقطة حيث كل شئ يصبح في آن واحد عادياً بشكل غريب وبدون سبب على الإطلاق.

وكما إن لكل شئ تفسير، أقول إنها ندى شافز هي التي دلته عليّ، ففي كتابي "المعذبون في الأرض"، كنت قد نسيت نسخة من عقدي مع كانال،

فهتفت إلى شيكاغو ثم جاء مستر لـروا فـي الطائرة التاليـة، وهـو يحمـل إلى دعوة لمهرجان الجاز بمدينة نيس، وسيرى في هذا المهرجان كل شـئ، حتـى صماه تعزف على البيانو. وبنفس الاندفاع الصادق والأخرق، طلبت شافيز من المعلومات رقم هاتف جان فيلان، وسبب ذلك بلا شك حكايـة مـع انجيلينـا، لأنه وصل في اليوم التالي، وكان من الجائز أن يترك الطبيبة الليتوانيـة، والله شهيد على أنني لم أسأل أحدا شيئا.

عدت باسم آخر ووجه آخر، ومنذ زمن بعيد وأنا أنتظـر قـدوم هـذه اللحظة، إنه الانتقام، فلقد أعددت له كل شئ حتى يتـم، وربمـا فعلـت ذلـك دون أن أنتبه، وكانت سيمون التي كانت على علم بهذا الأمر، تقول دوما إنه ليس هناك شئ يحدث بالصدفة.

في مدينة نيس، حجزت لي لجنة تنظيم المهرجان غرفـة فـي فنـدق على شاطئ البحر حيث كـان هنـاك تمثـال المرأة البرونزيـة التـي تسـعى إلى الفرار من الحوائط التي تحطمها، وكان البيـانو لا يـزال هنـاك علـى المنصـة، وكان هناك صوت ينشد على نغمة موسيقى بيلى هوليدى على الأرجح. وحـين جاء الليل، غنيت أنا أيضا أغنيتي من فوق المنصة. كنت أسير في شوارع نيس في الجو الخانق اللامعقول، أسفل سماء شهباء رصاصية اللون، كما لو كان في استطاعتي أن أتعرف على شئ ما. كان الشاطئ الكبير الملـيء بـالحصى أسـودا من الناس، وكانت الشوارع مزدحمة بالسيارات، وفي كل مكـان فـي المدينـة، كان هناك حشد منهك ومتوقف.

ومن المكان الذى كنت أدلف مع جيانيكو فيه، استقليت أتوبيسا على طول السيل الجاف حتى أعمدة الطريق السريع، ثم بحثت عن مدخل المعسكر. كان يبدو على أننى غدوت شخصا آخر لأننى ما إن عبرت بوابة المعسكر بين الأسلاك الشائكة، حتى سد طريقى رجل بشاحنته الصغيرة، ونظر إلى نظرة استغراب وخبث، وعندما لفظت أسم رامون يرسي، سخر منى وقال للآخرين شئ لم أفهمه، اسم لفظه بتشوه: "روسو، روسو"؛ ثم جاء رجل آخر طويل وأنيق على الرغم من ملابسه المستهلكة، له شارب صغير، أشار لى أنه ليس هناك أحد وأن كل الناس رحلوا، ثم اصطحبنى إلى مدخل المعسكر.

حاولت أن أهتف إلى جان كى أقول له أن يأتى على الفور، كى أحدثه فى أمر طفل ننجبه منذ عودتى، ولكن بسبب فارق التوقيت، لم أتمكن من الحديث إلا لآلة الرد التليفونى، ولم أعرف ماذا أقول له، فقلت أننى سأهتف إليه ثانية. كنت أتقيا، وكان هناك ألم يلم بخاصرى، فتذكرت حورية، عندما كانت تسير فى الجبل والجنين فى بطنها، فلماذا لم تكن لدى نفس الشجاعة فى حين أنه لم يعد فى بطنى شئ؟ . فجأة، خنقتنى الموسيقى، كنت أريد الصمت فحسب، الشمس والصمت.

تركت رسالة للجنة تنظيم المهرجان، قلت فيها أننى لغيت كل شئ، وتركت الفندق بعد الظهر واستقليت قطارا ليليلا إلى سيرير[2]، ثم إلى

(2) منطقة فرنسية فى جبال البيرينيه الشرقية تقع على الحدود مع أسبانيا. (المترجم)

مدريد، ثم إلى الجزيرة[3]، وكان الوقت وقت الإجازات الصيفية، فكان هناك سياح في كل مكان، وكانت الفنادق ممتلئة. في الجزيرة، أمضيت يومين بمقر توقف سيارات كان كثير الأتربة، وكان يعج بالسيارات المتوقفة والأكواخ. نمت على الأرض، ملفوفة في غطاء، واقتسمت الماء والفانتا والخبز مع أسر مغربية. كان أطفال الأسرة يلعبون بين السيارات المتوقفة، وكانوا يرقصون على موسيقى مذياعهم التسجيلي. من آن إلى آخر، كان هناك حراس مدججين بالسلاح يمرون من بعيد، على الجانب الآخر من ساحة الأسلاك الشائكة، وكانت الشمس تلمع في منتصف السماء البيضاء، ولكن الليل كان رقيقا ومنعشا. كنا نتحدث بالإشارة، كنا نحكي قصص، وكنا نحصي الساعات والأيام على نتيجة سنوية. في البداية، كان الأطفال يسخرون مني لأنني صماء، ثم تعودوا على ذلك ؛ وبالنسبة لهم، كنت بمثابة لعبة وليس شئ آخر.

في الليلة الثالثة، رحلنا في ناقلة السيارات، ولم أكن أعرف لماذا مكثت في هذا المكان، وتتبعت حركات الناس دون أن أفهم. لم أكن أسعى إلى ذكرياتي، ولا إلى رعشة الحنين إلى الوطن، ولم أكن أسعى إلى العودة إلى مسقط رأسي، فلم يكن لي مسقط رأس، ولا إلى الشاطئين، فشاطئ

---

(3) ميناء أسباني على مضيق جبل طارق عقد فيه مؤتمرا دوليا حول مسألة المغرب عام 1906. (المترجم)

الحالي، هو شاطئ البحيرة الكبيرة الزرقاء أسفل رياح كندا الباردة، بل على الأرجح كان ذلك الأمر خيطا يمتد حتى مركز جوفي ويشدني نحو مكان لا أعرفه.

سافرت في سيارة نحو الجنوب، وكانت هناك سائحات ألمانيات ترتدين الشورت، وسائحات فرنسيات تضعن قبعات فوق رؤوسهن، وسائحات أمريكيات تنتعلن أحذية التونجز، فلقد تقاطعت معهن في الطريق، ثم سرن في اتجاه آخر . وفي مراكش، استقليت أتوبيسا نحو الجبل ورحلت السائحات نحو البحر، إلى أغادير، اساويرا، وإلى تنتن بلاج.

في منطقة زين تشيكا، بينما كان سائق السيارة يرتشف الشاي، اشتريت من شلوح[4] حجر أمونتي لجان، وبما أن الحجر كان ثقيلا جدا لكي احمله في حقيبتي، أعد لي الشلوح حقيبة ظهر من حقيبة صغيرة مصنوعة من زعف النخيل، فلقد كان قويا وضخما، بشرته حمراء كهنود أمريكا، وكان يرتدي معطفا كبيرا من النسيج المسح، وأبان لي عن بطاقة بريدية أرسلها له أخوه من أمريكا، من قرية في الغابة في ولاية واشنطن.

---

(4) الشلوح هو اسم قبائل بربرية في جنوب المغرب. (المترجم)

هكذا وصلت إلى فوم – زقود[5]. وإلى الجنوب منها، كان هناك طريق يؤدى إلى تاتا[6]، وإلى الشمال كان هناك طريق آخر يؤدى إلى زاجورا[7]؛ وإلى الأمام، ليس هناك سوى المناطق التي حفرتها الشاحنات وأثر سير الماعز والإبل، وهناك الأرض الشاسعة الخشنة المكشوطة، والأبسيرة الجافة، والأكواخ الطينية والحجرية التي تشبه أعشاش الزنوبر.

هكذا وصلت إلى هنا، لا أريد أن أمضي أبعد من ذلك، وكأنني وصلت إلى شاطئ بحر أو إلى شاطئ مصب دون نهاية.

تركت حقيبتي والحجر الأمونيتي في حجرة في القرية ؛ وللمرة الأولى، أردت أن أطرح سؤالا – أحتفظ به في فمي منذ زمن بعيد – على المرشد الذى اخترته في الفندق: "هل أختطف طفل هنا منذ خمس عشرة سنة؟"، لكنني لم أقل له شيئا. على أية حال، كنت أعلم أنه لن تكون هناك إجابة. ومنذ أن عدت إلى هذا المكان، تحسنت أذني، ولكن هل سماع أصوات وكلمات للغة ما يعد أمرا كافيا للفهم؟

الناس هنا، الناس الذين أراهم، وأناس القرى الذين لم أراهم، يتبعون هذه الأرض بنفس الدرجة التي لم أتبع بها أنا أى مكان على الأرض؛

---

(5) منطقة مغربية. (المترجم)

(6) منطقة مغربية. (المترجم)

(7) منطقة مغربية. (المترجم)

فهم يحاربون، وتملك البعض أرضا لم تكن ملكا لهم، وحفروا الآبار في الأماكن التي ليست ملكا لهم.

الناس هنا، أهل اساكا، أهل نخيلة، أهل الوجوم، أهل ولد عيسى، أهل ولد هلال، ماذا يمكنهم أن يفعلوا ؟، يتقاتلون، وهناك الجرحى، والموتى. النساء تبكين، وهناك أطفال يختفون. هذه هي الحقيقة، فماذا بوسعنا أن نفعل؟

ها أنا مطمئنة هنا الآن. الضوء الذي يحدثه السمت ناصع البياض، والشارع متصحر للغاية، والضوء يجعل الأعين تزرف دما، والرياح الحارقة تدحرج الثرى على طول الحوائط ؛ ولكني أقاوم الريح والضوء، اشتريت حيكا[8] أزرق مثل نساء هذه المنطقة، وغلفت جسدي تاركة فحسب فتحة لعيني. في جوفي، يبدو لي أنني أشعر بالضربات الخفيفة لطفل سأنجبه وسيعيش، فمن اجله هو أيضا أتيت إلى هنا في نهاية الدنيا.

راح المرشد نفسه يتبعني في ذهابي وإيابي على طول الطريق المتصحر، وجلس على حجر في ظل حائط ليدخن سيجارة إنجليزية وهو يراقبني من بعيد. ليس من أهل ولد هلال، ولا أهل عيسى، ولا رجلا ظالما من أهل خيريوجا، بل هو فارع الطول للغاية، يبدو عليه كثيرا أنه قادم من المدينة، من مدينة زغورة، أو من مراكش، أو ربما من الدار البيضا أيضا.

---

(8) ثوب لونه أبيض عادة، أعتاد رداءه الناس في بلاد المغرب العربي.(المترجم)

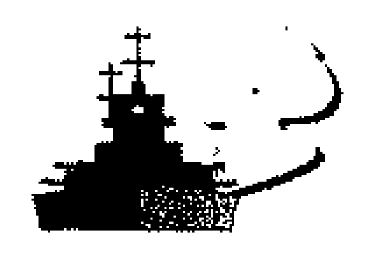
بعيدا، في نهاية الشارع، أمام المنزل الأخير حيث تبدأ بعده الصحراء، تجلس امرأة عجوز على مقعد، وترتدى اللون الأسود أمام باب فنائها الخالي، لاتخفي طالعها بحجاب، فطالعها أسود ومجعد يشبه جلد قديم محروق ؛ نظرت إلى وأنا قادمة إليها دون أن تغض البصر، نظرتها قاسية كالحجر، وتبدو أكبر عمرا وأقسى من الحجر الأمونيتي الذى ابتعته لجان، إنها هلالية حقيقة، من الناس الذين يشبهون هلال القمر.

جلست بجوار العجوز، كانت قصيرة جدا، نحيفة جدا، تصل بالكاد إلى كتفي، كالطفلة. كان الشارع خاويا تسلخه شمس الصحراء، وكانت شفاهي جافة ومتشققة، ومنذ قليل عندما مررت عليها راحة يدى، رأيت دم. كانت العجوز لا تتحدث معي، ولم تتحرك عندما جلست بجوارها، ونظرت إلى فقط بوجهها الجلدى الأسود، وكانت عيناها لامعتين وسائلتين وفتيتين جدا.

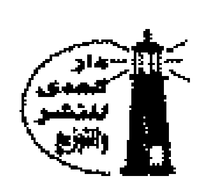
لست في حاجة كي أذهب أبعد من ذلك. الآن، وصلت في النهاية إلى نهاية رحلتي. أظل هنا، وليس في أى مكان آخر، هنا الشارع الأبيض المشابه للملح، الحوائط الساكنة، صرخة الغراب. هنا اختطفت منذ خمسة عشرة عام، منذ الخلود، على يد شخص من عصابة خريبوجا، وهي عدو لعشيرة هلال بسبب حكاية ماء، حكاية بئر وانتقام. عندما تلمس البحر، فإنك تلمس الشاطئ الآخر ؛ وهنا، عندما أضع يدى على تراب الصحراء، فأنني ألمس الأرض التي ولدت فيها كما ألمس يد أمي.

سيصل جان غدا، فلقد تلقيت تلغرافا من فندق كازا، والآن أنا طليقة، وكل شئ يمكن أن يبدأ، مثل جدى الشهير بلال - وهو إحدى الشخصيات المعروفة - العبد الذى أعتقه النبى ودفعه إلى الدنيا. خرجت الآن من زمن البحث عن الأسرة، وأدخل الآن فى عصر الحب.

قبل أن أنصرف، لمست يد العجوز الملساء القاسية وكأنها حجر التقط من قاع البحر، مرة واحدة فحسب، بحركة خفيفة حتى لا أنساها.



الفهرس



المنيا - شاهين - 6 ش أحمد عرابي
المنيا - عدنان المالكي - 6 ش 15 - شقة 1
ت 086/354576 - 012/3454568
فاكس 086/346713

دار القبس للطباعة
ت : ٣٦٤٠٨٣٥ - ٣٦٨٥٦٢٨ - ٥٢٤٣٢١٤

سمكة من ذهب

التناص أو التعددية اللغوية مصطلح نقدي ، يعني تعدد الأصوات اللغوية بما يصاحبه من تعدد الأطروحات الحضارية وتباينها في نسيج العمل الأدبي الواحد ، وقد كانت هناك أكثر من محاولة في عصرنا الحديث لتحقيق تلك التعددية اللغوية في نصوص بعض أعظم أدباء العالم وأقدرهم علي فهم المحيط الأنساني والتعبير عن خصوصيته القومية ، غير ان ذلك المشروع التأسيسي قد شارف علي الاندثار من جراء ت[illegible] القومية » ونمو الشعور المرضي بالعنصرية الث[illegible]

وتعد رواية « سمكة [illegible] من أهم الأعمال الأدبية التي تمثل ظاهرة التعددي[illegible] كان الباعث إلي إقدامنا علي تعريبها ، هل[illegible] إلي القارئ العربي فعلي الرغم من مكانة « لكلوزيو » في الأوساط الأدبية الغربية التي [illegible] أحد أهم أدباء فرنسا في القرن العشرين ، وبالرغم من اهتمامه [illegible] بلادنا ، لا نحسبه قد نال بعد حظه من التواصل